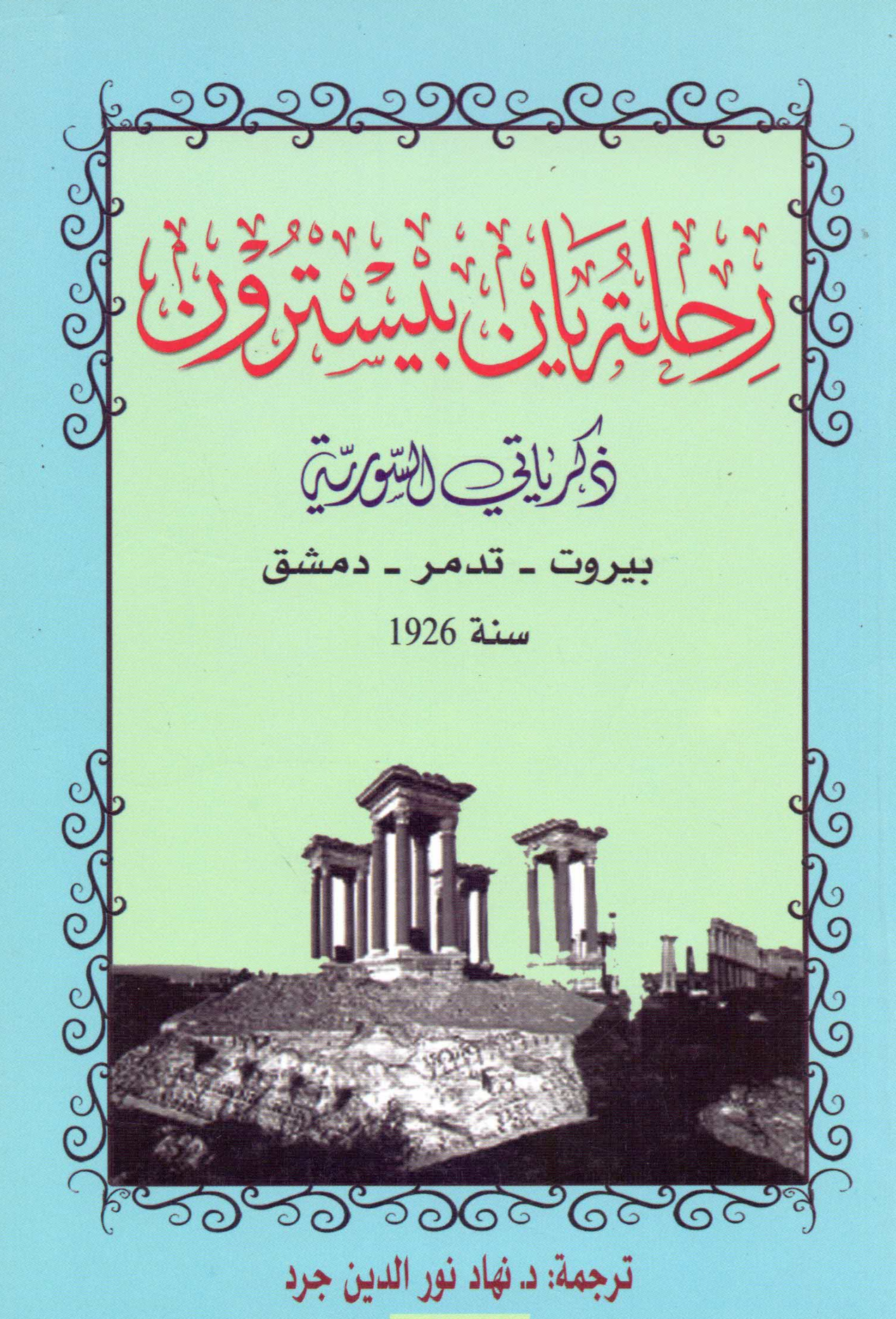
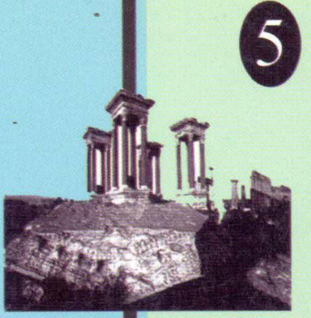

رحلة يان بيسترون
ذكرياتي السورية
بيروت - تدمر - دمشق
سنة 1926
ترجمة: د. نهاد نور الدين جرد
التكوين

رحلات

5



رحلات في بلاد العرب

إنّ ما كتبه بيسترون عن رحلته إلى سوريا، يمكن أن يظلّ مصدراً مهماً لمن يريد العناية بفترة تاريخية مرّت بها بلادنا، ولم يعبر بيسترون عنها تعبيراً يقتصر على الوصف الشكلي أو السطحي أو العابر، فكتابته تحمل روح الأديب والروائي والعالم والمؤرخ والرحالة الشغوف الذي يريد أن يسيغ فنون التعبير لدى هؤلاء جميعاً، وهذا ما كان؛ يمكن للقارئ أن يطالع رحلة يان بيسترون "ذكرياتي السورية" فيجد فيه رواية أدبية، أو كتاب تاريخ، أو ملاحظات وتأملات عالم اجتماع، أو وصفَ وتوثيق مشاهدات الرحّالة.

تمتاز رحلة يان ستانيسواف بيسترون عن غيرها من الرحلات البولونية بأنها وقعت في مرحلة حرجة من تاريخ سوريا، فبيسترون زار سوريا في السنوات الأولى من فترة الانتداب الفرنسي على المنطقة، حين وُضعت الأرض والناس في بلادنا في مختبَر التجربة الكولينيالية، التي أرادت بالتجريب أن تصوغ هوية نهائية لسكان هذه الأرض.

التكوين

رحلة يان بيسترون

ذكرياتي السورية

رحلات	التكوين

- الكتاب: رحلة يان بيسترون ـ ذكرياتي السورية
- الكاتب : يان ستانيسواف بيسترون
- المترجم : د. نهاد نورالدين جُرد



للتأليف والترجمة والنشر

دمشق – حلبوني ـ الجادة الرئيسية

تلفاكس 2236468 جوال 0944 330989

ص.ب: 11418

WWW.ATTAKWIN.COM

INFO@ATTAKWIN.COM

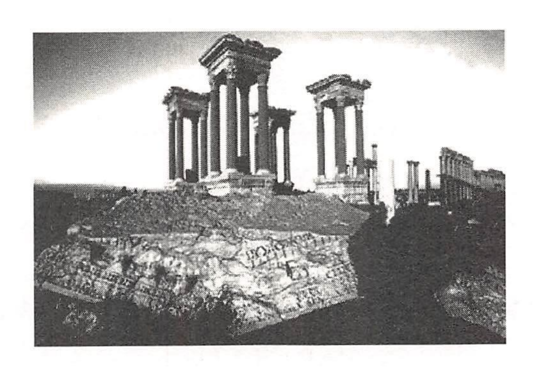
taakwen@yahoo. com

رحلة يان بيسترون

ذكرياتي السورية

بيروت . تدمر . دمشق

سنة 1926



ترجمة

د. نهاد نورالدين جُرد

دار التكوين

العنوان الأصلي للكتاب

Jan St. Bystroń

WSPOMNIENIE SYRYSKIE

BEJRU- PALMIRA - DAMASZEK

Z 15 ILUSTRACJAMI

Nakład Gebethnera i Wolffa

1928

Warszawa – Kraków- lublin- Łódź

Paryż – Poznań – Wilno- Zakopane

اللوحات الفنية مأخوذة من كتاب

CASSAS VOYAGE PITTORESQUE DE LA SYRIE

PARYS 1798

كلمة المترجم

منذ قرون بعيدةٍ يمم الرحالة البولونيين وجوههم شطر البلاد العربية، حجاجاً متشوفين لزيارة الأراضي المقدسة، أو دارسين ومغامرين حثهم الفضول العلمي إلى التعرف عن قرب على تاريخ وآثار المجتمعات التي تعيش في هذه المنطقة، فتركوا آثاراً وكتابات كثيرة تلونت فيها الأفكار والرؤى تبعاً للفترة التي ظهرت فيها كتب الرحلات، أو تبعاً لمشارب الرّحالة الفكرية وتكوينهم الثقافي، فمنهم من كان أديباً موسوعياً وشاعراً مثل Jan Potocki يان بوتوتسكي الذي وصل إلى المغرب العربي وزار مصر والأستانة في نهاية القرن الثامن عشر، ومنهم من كان شاعراً مغرماً بروحانية الشرق وأجوائه الرومانسية، مثل الشاعر الرومانسي Juliusz SŁowacki يوليوش سووفاتسكي الذي قضى شطراً من رحلته في جبال لبنان واستلهم عدداً من قصائده من الأجواء الشرقية التي عشقها فعاشها، ومنهم المغامر الذي عشق الصحراء وحياة البدو في البوادي السوريةمثل Rzewuski جيفوسكي الضابط والمستعرب والمغامر الذي جلب إلى بولونية وإلى اصطبلات القيصر الروسي قطعان الخيول العربية الأصيلة المنسوبة، وعاش بين البدو دارساً عاداتهم وتقاليدهم وآدابهم الشفوية، ينام معهم في الخيام، ويأكل من طعامهم، ويتخلق بأخلاقهم، ويلبس أزياءهم، حتى سموه «تاج الفخر، وعبد النيشان»، وتحولت شخصيته إلى أسطورة ساهم في صنعها الشعراء البولونيون العظام مثل Adam Miskiewicz آدم ميسكييفيتش شاعر الرومانسية البولونية، وغيره.

وتمتاز رحلة Jan Stanislaw Pistroń يان ستانيسواف بيسترون التي أضع ترجمتها بين يدي القارئ عن غيرها من الرحلات البولونية بأنها

وقعت في مرحلة حرجة من تاريخ سوريا ، فبيسترون زار سوريا في السنوات الأولى من فترة الانتداب الفرنسي على المنطقة ، حين وُضِعت الأرض و الناس في بلادنا في مختبر التجربة الكولينيالية ، التي أرادت بالتجريب أن تصوغ هوية نهائية لسكان هذه الأرض، فهذه الرحلة - كما أتوقع - ستثير لدى قارئها كما أثارت لدى مترجمها فضولاً إضافيا لمعرفة كيفية قراءة مؤلفها ظروفَ هذه الفترة ومعطياتها .

كان مؤلف هذا الكتاب رجلاً متعدد المواهب، موسوعي الاهتمامات، ودليل ذلك أنه عند وفاته سنة 1964 ظهرت المقالات الكثيرة التي تناولت نتاجه في الدوريات العلمية البولونية المتخصصة في أكثر من مجال موضوعي، مثل:Kwartalniki Historyczne "الفصليات التاريخية" ، وPamientniki Literackie "المذكرات الأدبية" وStudia Socjologiczne" مجلة الدراسات الاجتماعية" ، و Etnografie Polskie "الاثنوغرافيا البولونية"، وLiteratura Ludowa " الأدب الشعبي" ، و Polska literatura Ludowa " الأدب الشعبي البولوني"؛ مما يشير إلى تنوع الموضوعات التي كتب فيها ، كما كان من الصعب جدّاً في ذلك الوقت شراء نسخة من مؤلفاته التي تمت إعادة طباعتها سنة 1960 لنفاذها السريع من سوق الكتاب البولوني، ولاسيما كتابيه المحببين إلى القراء : *تاريخ العادات في بولونيا القديمة* و *السخرية*.

كان يان ستانيسواف بيسترون «1892ـ1964» عالم اجتماع في المقام الأول ومرجعاً في الثقافة الشعبية البولونية ، ثم بعد ذلك مؤرخاً يهتم بالتحولات التاريخية الاجتماعية في بلده، وتأتي في مقدمة اهتماماته المشكلات الاثنوغرافية واللغوية ، ويبدو أنّ هذه الاهتمامات كانت متوارثة في عائلته ، فجده «آندجيه» كان عالماً اثنوغرافياً

وعالم لغة، عاشقاً للأدب الشعبي البولوني، قام بجمع وتحرير القصص والأغاني الشعبية البولونية في منطقة تشيشين Cieszyń، أما والده فكان عالماً لغوياً ومؤرِّخاً وعضواً في Akademia Umiejętności "الأكاديمية العلمية البولونية" منذ عام 1894.

أتت اهتمامات بيسترون بسوريّا من اطلاعه الواسع على ما كتبه الرحالة البولونيون الذين زاروا الشرق الأدنى، وقد تجلت هذه الاهتمامات في كتابه الكبير « البولونيون في الشرق الأدنى 1141ـ 1914 » الذي راجع فيه أعمال الرحالة البولونيين المنشورة في ثمانية قرون من تاريخ الأدب البولوني مؤرخاً وناقداً ودارساً هذا النوع من الكتابة مما جعل عمله مرجعا لا غنى عنه لتاريخ العلاقات البولونية ـ الشرقية.

وتمتاز كتابات بيسترون بغناها المعرفي وأسلوبه الذي يقترب من الحقائق ليرويها بأسلوبه الجميل الذي يقترب من القارئ العام مقدماً معلوماته في إطار مشوق بعيدا عن الصياغات المعقدة، وهذه هبة مُنحها بالإضافة إلى معرفته الواسعة وإطلاعه على الأدبيات الأوروبية في اللغات الألمانية والفرنسية والانكليزية والايطالية التي أتقنها اتقاناً تاماً مما أكسب حديثه عن المشكلات المعقدة في أعماله ليونة في الأسلوب وسهولة في العرض، وقد كتب في مؤلفه "*السخرية*" عن هذه الناحية قائلاً: "سأكون سعيداً إن لم ينتبه القارئ إلى كل هذه الصعوبات التي واجهتني في كل خطوة .. وإن هو تناول هذا الكتاب كمجموعة من الطرائف فليكن له ذلك، ... فهناك كتب كثيرة وبعناوين فاخرة لكنها لا تقدم فائدة كهذه "[1]

حقاً إن كتاب ستانيسواف بيسترون *ذكرياتي السورية* يمكن أن

1ـ بيسترون، يان ستانيسواف: السخرية (Komizm)، فروتسواف، 1960، ص1.

يكون مثلاً جيداً أيضا لكتابات هذا المؤلف البولوني، فإن القارئ لن يجد فيه يوميات مفصلة مملة لرحلته التي قام بها إلى بلادنا بل سيعثر أيضاً على طرائف وقصص كثيرة أفسح بها المؤلف المجال لإغناء حديثه عن مجريات رحلته، كما سيجد مادة معرفية ووثائقية ترتبط بتاريخ سوريا وبعض رجالاتها، وإشارات كثيرة إلى الأوضاع السياسية والثقافية السائدة آنذاك، مما يمنح كتابه قيمة معرفية مميزة.

يعترف بيسترون أنّ "أدب الرحلات يُملُّ بسرعة، فكثيرة هي الكليشهات الممهّدة.. والاستثناء الحقيقي هو كتاب الرحلة الذي يمكن أن يكون في الحقيقة شيئاً جديداً يمنح رؤية وفكراً ما ليس امتداداً لتقليد معين تم إرساؤه بكتاب أصيل أو ذي سيرورة"[1] .

قالت العرب قديماً "كلُّ إناء بما فيه ينضح"، وقال بعضهم "ملوك الكلام كلامُ الملوك"، وأقول: إن كلام العلماء يبقى موضوعياً دوماً إلى حدود كبيرة مهما كانت جنسياتهم ومهما عالجوا من موضوعات، وهكذا فإنّ ما كتبه بيسترون عن رحلته إلى سوريا، يمكن أن يظلّ مصدراً مهماً لمن يريد العناية بفترة تاريخية مرّت بها بلادنا، ولم يعبر بيسترون عنها تعبيراً يقتصر على الوصف الشكلي أو السطحي أو العابر، فكتابته تحمل روح الأديب والروائي والعالم والمؤرخ والرحالة الشغوف الذي يريد أن يسيغ فنون التعبير لدى هؤلاء جميعاً، وهذا ما كان؛ يمكن للقارئ أن يطالع كتاب "*ذكرياتي السورية*" فيجد فيه رواية أدبية، أو كتاب تاريخ، أو ملاحظات وتأملات عالم اجتماع، أو وصفَ وتوثيق رحّالةٍ لما شاهده. ثمّ إنه صريح إلى أبعد حدود الصراحة في إطلاق أحكامه بل وتكثيفها في قالب

1- بيسترون، يان: البولونيون في الأراضي المقدسة ومصر وسورية.كراكوف، 1930، ص186

الطرفة المضحك أحياناً. ولعل هذا أن يصدم بعضنا؛ فمن ذا الذي لا يريد كلمات الغزل إن كان الكلام عنه أو إليه. لكنّ أسلافنا قالوا أيضاً: إنّ العيوب تُهدى.

لن أطيل كثيراً، لكني قبل أن أنهي، تبقى كلمات في النفس لابدّ منها؛ أولاها شكر وعرفان لصديقي الدكتور مازن عرفه الذي تربطني معه مودة أيام سنوات طويلة قضّيناها معاً، منذ إقامتنا في "فندق الطالب الحرّ" Hotel Studenta Zaocznego في جامعة ماري كوري سكوودوفسكا في مدينة لوبلين مدة تزيد عن خمس سنوات، نحضر لدراسة الدكتوراه معاً في علوم المكتبات والمعلومات، ثم بعد ذلك زميلين في المكتبة الوطنية، هو مديراً للنشاط الثقافي وكنت مديراً للمخطوطات والكتب النادرة مدّة زادت عن سبع سنوات، والصداقة مستمرة؛ ولم أجد فيه إلاّ الصديق الوفي، فهو الذي أعاد إلى اهتماماتي هذا الكتاب، وشجعني على ترجمته، وساهم في نقل نصوصه الفرنسية، وقرأ جملةً من النص المترجم مبدياً ملاحظاته وتصويباته التي قربت العمل من حدود الكمال إلى حدٍّ كبير.

أمّا الثانية فهي شكري للصديق سامي أحمد صاحب دار التكوين، الطامح دوماً أن يقدم للقارئ المحلي والعربي كتاباً مفيداً، يكونُ للقراءة حقاً، لتبنيه نشر هذا الكتاب.

المترجم

دمشق في 2009/7/10

نشر اللورد روبيرتس Lord Roberts كتاب حياته Forty one years in India "إحدى و أربعون سنة في الهند " . إحدى و أربعون سنة! فماذا يستطيع أن يكتب السائح العابر الذي يصف بلداً لم يمض فيه حتى أربعين يوماً!

"ذكرياتي السورية" هي في الحقيقة ذكرياتٌ فقط، رأت النور في يوم رطب وعابس في المكتبة الوطنية Bibliotheqe Nationale الباريسية ، بسبب شوقي إلى الشمس، وأنهيت كتابتها في Zakopana الزاكوبانا[1] في أيام صيفية، حجبت الأمطار فيها منظر الجبال، والذاكرة تعود بي إلى لوحة الشرق الدافئة المفعمة بالألوان.

قمت بالرحلة مع صديقي الودود اللطيف رفيقي في أكثر من رحلة - وأتمنى أن لا تكون الأخيرة - أستاذ آثار ما قبل التاريخ في جامعة وارسو ڤـواچمييج أنطونيفيتش[2] WŁodzimierz Antoniewicz ، وقد أمضينا معاً قسماً من الرحلة مع قافلة البعثة الأثرية السورية الفلسطينية في ربيع عام 1926.

J.S.B

1- الزاكوبانا: مدينة بولندية مشهورة بجمال مناخها وروعة عمارتها التقليدية المنسجمة مع البيئة الجبلية، تقع في جبال التاترا البولونية إلى جنوب كراكوف. (المترجم).

2 . ڤـواچمييج أنطونيفيتش WŁodzimierz Antoniewicz : عالم آثار بولندي (1893-1973) و أستاذ الآثار في جامعة وارسو، ثم رئيس الجامعة في الأعوام 1936-1939 ، مدير العديد من مواقع الأبحاث الأثرية في بولندة، له ما يقرب من 250 عملاً علمياً منشوراً من أهمها: علم الآثار البولوني 1928 ، و تاريخ الفن عند أقدم المجتمعات البدائية 1957. (عن الموسوعة البولونية: ENCYKLOPEDIA POWSZECHNA, WARSZAWA 1983) (المترجم).

بيروت[1]

" أذكر ساعةً من حياتي

كنت فيها مضطجعاً في قارب يوناني ... "

كان مركبنا - إن أردتُ الدقّة - سفينة ركابٍ بخارية، وكانت الساعات تمضي غير عابئة بالزمن. البحر يحيط بنا بلونه الفضي الفيروزي الهوميروسي[2]، وسماء الإلياذة فوقنا ساطعة حتّى يخيَّلُ أنّها تلمع.

من يرد الابتعاد عن مشاغله، وأفكاره المزعجة، وهمومه، وأموره اليومية، والناس، فليركب مثل هذا المركب، ويتشرد بضعة أيام في البحر، من ميناء إلى ميناء، في عرض البحر تارة، أو على طول الشواطئ تارة أخرى. سفينتنا التي امتطيت متنها مع فواچميج في نابولي، التي ستقلنا إلى بيروت، كانت حقاً ذاك المتشرد الذي يحمل اسماً نبيلاً Lamartine لامارتين[3]، أبي الرحلات الرومانسية إلى

1ـ تذكر بعض المصادر أن اسم بيروت مشتق من (بيريت) أي الآبار، وذلك لكثرة وجود الآبار والينابيع فيها، وأكثر الذين تكلموا عن بيروت ردّوا اسمها إلى الأصول اللغويّة الساميَّة، كالفينيقيّة، والآراميّة، والآشوريّة، والسريانيَّة، وقالوا إن معناها في اللغات المذكورة (شجرة الصنوبر) أو (شجرة السرو). (المترجم).

2 ـ نسبة إلى هوميروس الشاعر الاغريقي وصاحب الملحمة المشهورة (الإلياذة). (المترجم).

3 ـ الفونس لامارتين Lamartine (1790ـ1869): الشاعر الفرنسي والرحالة الذي عشق الشرق، شارك في الثورة الفرنسية (1848)، وقد ساهمت كتاباته في تشكيل الذائقة الشعرية الرومانسية، وترك وصف رحلته في كتاب يعدُّ الأهم من بين كتب الرحلات الرومانسية إلى بلدان الشرق الأدنى. (المترجم).

الشرق، وهي من سفن الشركة الفرنسية Messageries Maritime "مكتب السفريات البحرية" وميزتها أنها تبحر إلى بيروت مارة بأثينا واسطنبول، وسميرنا[1]، ورودس، وقبرص، ممضية أسبوعين في رحلتها. يجلب الإنسان عادةً إلى متن السفينة نشاطه الأرضي، فهو دائماً يفكر في أمر ما؛ أو يراقب أشياء معينة، ويتفحص باهتمامٍ الخارطة البحرية التي يحدد عليها القبطان المناوب علامات المسافات المقطوعة، كما يدرس بتؤدة كتب أدلة الرحلات والمطبوعات المتنوعة في قاعة المطالعة، وهو يستمتع بدفء الشمس، ويشغل باله بتخيلات، وخطط متنوعة. لكن الشمس مع مرور الوقت تصبح أكثر دفئاً، والبحر أعمق زرقة، وتُنسج الأفكار السارحة بعيداً عن هذا العالم الواقعي، وفي النهاية يدخل المرء حالة من الانحلال وانعدام التفكير. ويمضي يومٌ وراء يوم دون حاجة إلى تقديم كشف حساب، أو إحساس بمرور الزمن، ويصير الأفق شروقاً متكرراً للازورد الذي هو وحده الشيء الأهم، والملموسُ تقريباً، حتى إنه بنقرة يصدر صوتاً فضياً. وعلى خلفية هذا الأفق تبدو السفينة كأنها موجة كبيرةٌ تمتد وتهدر مع أمواج البحر، أما نحن سكان الموجة فنتأرجح معها مشاركين في كسل البحر الكوني. وفي لحظة تلي يلتقي البحر بالأفق في حمرة الشفق، ثم يحيط بنا العمق داكن الزرقة وأشعة النجوم الذهبية: إنه الليل.

يبدو أنّ لكلٍّ شيء في هذا العالم نهاية، وهكذا تقترب لحظات "الاسترخاء في القارب اليوناني" من نهايتها. نقترب من قبرص الخضراء، تهبّ ريح عاصفة تمنعنا من الاقتراب إلى مياه الميناء الضحلة مع أمطار قوية. وفي اليوم التالي نحن تقريباً قرب الساحل السوري.

---

1. سميرنا: هي (أزمير) الحالية ميناء على السواحل الغربية لتركيا. (المترجم).

للبحر هنا أردية معدنية، تبدو عن قرب بلون رصاصي وفي الأفق بلون الفولاذ؛ كان الجو بارداً، وبدأ مطرٌ ناعم بالهطول موقظاً المسافرين من أحلامهم اللازوردية. استمر هذا الحلم اثني عشر يوماً، يبدو أننا قد فوّتنا فيها الجمعة العظيمة وعيد الميلاد، يلوح أمامنا الميناء الواسع بشاطئه الموحش، وفي الأعلى منازل بيروت المنثورة على مدرجات الجبل، وغابات الصنوبر، وأبعد منهما الجبال الجرد، وعلى كامل المشهد يعلو منظرُ قمة صِنّين العريضة مكسوة بالثلوج.

وصلنا أخيراً، يجب النزول من السفينة. تبدأ فترة محمومة بالحركة، قلقة وغير مريحة، حيث يمكن للمرء بالتأكيد ملاحظة الأشياء الجديدة، أو دراسة هذا الأمر أو ذاك، وتعلّم أشياء جديدة، والتبصّر في أمر كان معروفاً من قبل، لكن الأمور تبقى أكثر متعة داخل البحر! ڤـواچمييج العظيم فَرِحٌ بمنظر الميناء، ويؤكّد أن الوقت قد حان للعمل، أمّا أنا فإنني دائماً أجد وقتاً للعمل، لكني في النهاية لن أجد شيئاً آخر عندما أترك فراشي المريح على السفينة سوى أن أجلب انطباعات الرحلة إلى الفندق المسمى "كونتيننتال" أو "الامبريال"، لم أعد أذكر!

لا تنتمي الفنادق السورية كما يمكن التخمين إلى فنادق الدرجة الأولى، وهي مقارنةً بالفنادق المصرية في درجة أدنى. أما فندقنا هذا فكان قارياً دون شك، لأنّه مبني على أرضٍ صلبةٍ، وهكذا علينا أن نتذكر أننا في قارة آسيا. الفنادق، والمطاعم، والمقاهي وما إلى ذلك هي الموضوعات المحببة في حكايات الرّحالة عادة، ويمكنني من أجل التفاصيل أن أحيل القارئ إلى الأدب الغني المتعلق بالموضوع، ولعلني أستطيع أن أضيف هنا ملاحظاتي الخاصة التي جمعتها في Grand Hôtel de France "فندق فرنسا الكبير" في طرابلس الذي منحني

شعوراً مفعماً بحياة تشبه حياتي في الوطن وبالأخص في Hotel Polski "فندق بولونيا" في مدينة Pinczow "بينتشوف"، وهي لن تؤثر عموماً في تغيير الرأي المتعلق بالموضوع. ويمكن أن أضيف من أجل أصحاب الذوق الرفيع أن لاشيء مهم كي يرتحلوا إلى سورية، وأخبر ذواقي النبيذ اللبناني المشهور أنه غير لذيذ هنا وحامض، أما البخلاء والمقتصدون فليعلموا أنّ الأسعار هنا مرتفعة، وهي في كل الأحوال أكثر غلاءً من بلادنا، وبهذا أنهي هذه المعلومات العمليّة.

من الصعب تسمية بيروت بالمدينة الساحرة، Lamartine لامارتين الذي سكن هنا عدّة أشهر، خصص ما يقرب من مجلّد لمديح المدينة، وعدّها من أجمل بقاع العالم. وهذا لواحدة من اثنتين: إما أنّ بيروت كانت قبل مئة عام لا تشبه ما هي عليه اليوم، أو إن الشاعر الممتلئ حماساً، والتواق إلى إثارة القراء، أضاف كثيراً من خياله في إبداع لوحة المدينة العامة، بيروت مدينة نمطية متأوربة في الشرق، وهي عموماً قليلة الإثارة كمدينة، سكنها تجار الشرق والأوروبيون جيلاً بعد جيل. القسم الأكبر من المدينة مبنيٌّ على الطريقة الأوروبية، دون ذوق كبير، ومازالت هنا وهناك أجزاء ذات مظهر شرقي أكثر، ولكن هذه أيضاً تحمل سمات أوروبية.

للمدينة تقاليد ثقافية عريقة، لكنّها أحدث عهداً من المدن الفينيقية الأخرى، التي ليست اليوم سوى قرى صيادي الأسماك الفقيرة وأكشاك بيع الطعام مقارنةً بالعاصمة السوريةالحديثة.
جمعتColonia Iulia Augusta Berytus " مستعمرة يوليا أوغسطس بيروتوس السعيدة " في بداية عصرنا الفلاسفة والمشرعين، لكننا لا نتوافر اليوم في منطقة بيروت الحالية على آثارٍ من تلك الأزمنة، ويبدو أنّ الزلازل القوية قد دمرت المدينة القديمة. وهكذا عندما احتلّ

المسلمون الميناء في النصف الأول من القرن السابع كان عليهم أن يعيدوا بناءه من جديد. جاء بعدهم الصليبيون الذين حكموا هنا مدّة مئة عام ونيف، لكن لا نتوافر أيضاً على آثار من تلك الفترة سوى على كنيسة القديس يوحنا القديمة، التي حولّت فيما بعد إلى مسجدٍ[1]، وهي لا تثير فضول غير المختصين في فنون العمارة القروسطية. أضحت بيروت أكثر شهرة في أوروبا عندما حصل نابليون الدروز »فخر الدين«[2] في بداية القرن السابع عشر بالقوّة على استقلال لبنان الفعلي وسواحله. واختار بيروت مقراً له، واستخدم سياسة التقرب من الحكومات المسيحية في الغرب. تلك الفترة لم تستمر طويلاً، وانتهت نهاية غير سعيدة للأمير الذكي المحارب، لكن بيروت اكتسبت منذ ذلك الوقت أرضية صلبة لتطور جديد، واتسعت مزدهرة، ونمت يوماً بعد يوم لتصبح مركزاً هاماً للتجارة، وجزئيّاً مركزا للثقافة أيضاً، وأصبحت مع مرور الوقت المدينة الأولى، بازّة بذلك مدن الساحل الفينيقي، كمدينة صيدا "صيدون القديمة" وطرابلس، وبمقدار تطوّر علاقاتها القوية والمقتربة من أوروبا بدأت بيروت تتحول إلى مدينة

1ـ يقصد الجامع العمري الكبير وهو في الأصل كنيسة القديس مار يوحنا الصليبية التي أقيمت بين عامي 1113و1150، وتحولت بعد سقوط المدينة في أيدي المماليك عام 1291 إلى أكبر جامع في وسط المدينة. غير أن تاريخ الموقع يعود إلى فترة سحيقة إذ أقيمت الكنيسة الصليبية على أنقاض جامع بني على أنقاض كنيسة بيزنطية بنيت بدورها على أنقاض معبد روماني قديم شيده الإمبراطور فيليب الحوراني الذي بنا أيضاً هيكل جوبيتر الدمشقي. (المترجم)

2ـ اتخذ الأمير فخر الدين سنة 1632م بيروت حاضرة لولايته، وفي السنة التالية أي سنة 1633م رفعت ضده عدة شكاوى إلى السلطان مراد، فجرد عليه حملة انتهت في 1634/11/12م باستسلامه لأمير الأسطول العثماني وسوقه إلى الآستانة حيث أعدم. (المترجم).

كبيرة ومهمة، لتجد نفسها في الواجهة في فترة تأورب الشرق، وهي الآن عاصمة سوريا تحت الانتداب.

لا يمكن لتمدد أوروبا نحو الشرق - وهذه هي طبيعة الأشياء - أن يثير عجب السائح الأوربي الذي يريد أن يجد نفسه بسرعة في المحيط الغرائبي، فالتقاء نسخة الصورة الأوربية من الدرجة الثانية مع تخلف الشرق هو ما أعنيه هنا، إذن ليس من الصعب أن نستوعب لماذا تسبب مثل هذه المدن شعوراً مزعجاً ومبتذلاً، ويمكن أن تكون الإسكندرية مثالاً واضحاً لهذا، فهي مدينة محرومة بشكلٍ غريب من أيّ جمال على الرغم من موقعها الساحلي وأحيائها الحديثة الكبيرة الخالية من الذوق. تفضل بيروت الإسكندرية موقعاً، فبالإضافة إلى البحر الرائع نفسه نحن هنا في بيئة جبلية، وبيوت المدينة منثورة على مدرجات جبلية تشبه مدرجات مسرح الهواء الطلق، وبامتدادها إلى مياه الشاطئ تشكل منظر ستارة جميلة على الميناء الكبير. والغطاء النباتي الكثيف، وبيارات الليمون والبرتقال، وأشجار الورد الكثيفة وغابات الصنوبر المحيطة بالمدينة من جوانبها المتعددة كلّها تمنح بيروت جمالها، فهي بدونها قليلة التأثير. والطقس - كما يبدو - لطيف وممتع. والذي تزعجه حياة المدينة يعيش خارجها في أحياء الفيلات، أو يغادر في الأشهر الصيفية إلى القرى الواقعة على سفوح الجبل، فهنا يستطيع أن يستمتع بهواء الجبل، وبمناظر الطبيعة الجبلية والبحرية الرائعة. يأتي أيضاً إلى هنا إلى جبل لبنان العديد من العائلات المصرية والفلسطينية الثرية للاصطياف، ولاسيما أولئك الذين لا يملكون القدرة على قضاء الصيف على الشواطئ الجميلة في خليج البوسفور، يقصدون لبنان للإقامة في ضواحي بيروت. كنت مع ڤواچمييج في واحدة من هذه المناطق، وهي بيت مرّي التي تقع في منطقة

مرتفعة إلى حدٍ ما، ويتمّ الوصول إليها بالسيارة بطريق خطرة، حيث تمتدّ طوال الوقت المناظر الجبلية الآسرة على طول الطريق التي تبدأ من غابات الصنوبر والنخيل، وتنتهي بغطاء نباتي ضحل في السفوح التي مهِّدت وزرعت بأشجار مثمرة في مدرجات صغيرة. ويحيط بنا في الأعلى منظر ممتدّ من القمم الثلجية والمنحدرات المترامية، ومنظر الميناء البيروتي الكبير، والمدينة نفسها المبنية على مساحة كبيرة بين خضرة النباتات. والقرى الجبلية تبدو في بيوتها المبنية من الحجر بأسطحها المستوية، ويعيش في بعضها المصطافون؛ ما دمنا نرى هنا وهناك بعض الكتابات مثلاً: Grand Hotel de Egypt "فندق مصر الكبير". وبالقرب منّا دير ماروني يبدو تماماً كما في اللوحات القديمة، وفي دير من هذه الأديرة غير بعيد عن بيروت أمضى SŁowacki سووفاتسكي[1] عدّة أسابيع كاتباً قصيدته "أنهلي" التي دلتنا على روعة البساطة الجبلية، وزرقة الأفق. يبدو السكان هادئين وودودين، ومظاهر الجمال واضحة هنا جداً، ولاسيما عند النساء في ملابسهن الطويلة السابغة اللائي يبدون بمظهر جاد وفاتن.

إن بيروت وإن لم تقدم نفسها في صورة مثيرة لاهتمام الرحالة المتشوقين لرؤية المناظر التي شكّلت جمالياتها الحكاياتُ الشرقية، فهي تجمع في نفسها أكثر العناصر تنوعاً وغنىً كمركز لتداخل التأثيرات الثقافية القادمة من جهات مختلفة، أو إنها كما يحبّ بعضهم كالمصهر الذي يتمازج فيه بتأثير الحرارة العالية أناسٌ ذوي ألوان وبشرة وألسن مختلفة، وأفكار وشعارات متباينة، فهي لذلك

1ـ يوليوش سووفاتسكي (1809ـ1849) من أهم شعراء المذهب الرومانسي في الأدب البولوني، توفي في باريس بعد رحلات قام بها إلى سويسرا وايطاليا و المشرق العربي، حيث كتب مسرحيات و قصائد شعريّة مفعمة بالروح البولونية المتدينة، ومنها قصيدته (أنهلي) التي صدرت عام 1835. (المترجم)

أكثر إثارة لاهتمامات عالم الاجتماع. متواصلين مع المجتمعات الغربية نقوم دائماً مدفوعين بدرس وتفهم الظواهر الاجتماعية فيها، وهنا تكمن واحدة من أهمٍّ متع السفر، وبالفعل يجب أن تحتل دوماً هذه المقاربة في بيروت مقدمة اهتماماتنا، وذلك بسبب البنية الاجتماعية النادرة للمدينة، وبسبب غياب الموضوعات المعتادة للاهتمامات السياحية "المعالم السياحية" sehenswardigkeiten أيضاً، فماذا يستطيع المرء أن يفعل إن لم يجد المتاحف، والآثار، أو المعابد الشهيرة، أو القصور، وإن لم يجد ربات الفن سيطوف ببساطة في أرجاء المدينة، ويتفلسف، أو يتأمل المجتمع، وبكلمة واحدة سيقوم بوضع فرضياته الفكرية المحببة حول اهتمامات الرّحالة الطبيعية.

كلّ من يصل إلى بيروت بحراً يرى الميناء الكبير أولاً الذي تدين له المدينة بأهميتها، حملت المراكب البضائع السورية إلى الغرب، وهي التي أغنت التجار الوسطاء، والمراكب هي التي جلبت أيضاً البضائع والأفكار الأوروبية إلى هنا، مغيّرة طرق تفكير ومعيشة سكان الساحل. لا بدّ من امتلاك شيء ولو كان قليلاً من المعرفة في الأمور البحرية، كي تشكل رأياً خاصّاً حول الميناء، يخيل للعين المجردة أن الميناء واسع جدّاً ، وذو موقعٍ جيّد في الخليج الذي يؤلّفه الرأس الجبلي الممتدُّ بقوّة في البحر، ولكن المراكب حتى المتوسطة حجماً لا تقترب من الشاطئ، بل تتوقف بعيداً عن رصيف الميناء. وبالإضافة إلى ذلك هناك أبنية الميناء النمطية، ومبنى الجمارك، والمستوصف، وسكة الحديد التي تصل إلى حدّ الشاطئ، والشوارع العريضة على طرفيها المتاجر. هذا هو أكبر ميناء على الشواطئ السورية الفلسطينية، ويمتلك طبعاً أفضل الظروف الطبيعية، ويبدو أن الاسكندرونة التي تقع في أقصى الشمال السوري قريبا من الحدود التركية تمتلك أيضاً

ظروفاً طبيعية جيدة كميناء بحري، لكن لم يعد استغلالها ممكناً بسبب الوضع السيئ الذي وصلت إليه بعد سقوط الفكرة السياسية، التي كانت وراء خطّ: برلين - بغداد.

يقع الحيّ التجاري قرب الميناء، وفيه بناء البريد، ومكاتب شركات الشحن البحري، والبنوك التي تشهد حركة نشطة الآن، لأننا في فترة هبوط أسعار صرف الفرنك. تستخدم سوريةتحت الانتداب رسميّاً الليرة السوريةالتي تتألف من مئة قرش. أمر مميز، لأنّه غير مألوف - كما أعرف - في أماكن أخرى، وعوضاً عن عدّ الفكّة يقوم الصّرافون بوزنها في موازين نحاسية صغيرة يضعونها بالقرب من نوافذ دكاكينهم. الليرة السوريةهي في الواقع تسمية تعادل العشرين فرنكاً، والنقود السوريةموجودة اسميّاً فقط، فعدم ثبات سعر صرف الفرنك الفرنسي وما يتعلق بذلك من تعقيدات جعلت الناس لا يثقون كثيراً بالليرة السورية، ولاسيما أنهم في فلسطين المجاورة يتداولون الجنية الذهبي المصري الثقيل. يلعب الجنيه المصري مع الجنيه الانكليزي دوراً مماثلاً للدولار في بولونية. يحسب التاجر في صفقاته الكبيرة بالليرة، وهو رغم ذلك لا يفكر في دخيلته بالليرة السوريةبل بالجنيه. أما السكان في الأرياف، ولاسيما البعيدة منها فيتعاملون فقط بالنقود التركية القديمة، المعدنية منها خصوصاً، ويعاملون بشكٍ كبير النقود الورقية مهما حملت من كتابة. وبكلمة واحدة نحن أمام فوضى نقدية عارمة، والناس الذين يعتاشون من تبديل العملات ليسوا قلّة، والتأفف من هذا الوضع في تزايد مستمر. كان ثمة مشروع لإحداث بنك إصدار سوري، لكن عدم استقرار الفرنك الذي طرأ مؤخراً لم يشجّع على تنفيذ الفكرة، وإلى جانب البنوك ثمة العديد من محلات صرف العملة التابعة لعدد من المؤسسات التجارية والصناعية العاملة في سورية، وثمّة أيضاً سلسلة من الوكالات العاملة

في مجال النقل ومن بينها واحدة تفخر بتأمين الطريق البرية بيروت - بغداد - طهران العابرة للصحراء، وهناك العديد من الكتابات باللغات الفرنسية والعربية، ويمكن مشاهدة الكثير بالانكليزية، وأحياناً الايطالية، والأرمينية، واليونانية. وبالقرب تماماً من الحيّ التجاري القديم المبني بشكل متراص دون مسحة جمالية حيٌّ جديد يماشي الذوق الحديث، شقت فيه الشوارع وفق مخططات هندسية، فهم يبنون بنشاط هنا أبنية طابقية بارتفاع أربعة أو خمسة طوابق بواجهات تماثل الأبنية الباريسية الحديثة. وإلى الأمام وقليلاً إلى الأعلى يقع الحيّ التجاري القديم الفقير بالقرب من المسجد الكبير الذي يسكنه أهل بيروت الأصليون، وهو مبني على الطريقة الشرقية، إنّ أحد المتأثرين بالمدرسة الفرنسية في تنظيم المدن شقّ طريقاً عريضة داخل الحيّ كشريان مواصلات حيوي بدلاً من الأزقة الضيقة، ويبدو أنه سيحول الحيّ يوماً بعد يوم إلى الطراز الأوربي، وتبدو على طرفي الطريق أيضاً خرائب البيوت التي تمّ هدمها منذ وقت قريب وخلفيات البيوت الناجية من الهدم بادية من وراء الأنقاض المتراكمة، وتليها على طول الطريق أكواخ خشبية تباع فيها البضائع الأوربية المقلّدة، أو التي تعدُّ فيها الأطعمة بحسب التقاليد الشرقية وتقدم في صحافٍ صغيرة، كل هذا يذكرنا ببراكات بيع الطعام وبسطات المناسبات الدينية في مدننا الصغيرة. ادّخر هذا كله لنفسي الآن، فإن سمح لي القدر أن أكون في بيروت مرة أخرى، فإنني لابد أن أرى هنا شيئاً يشبه شارعاً رئيسياً من شوارع الضواحي الباريسية.

نصل متقدمين إلى الأمام على طول خط الترام إلى مركز المدينة، إلى الساحة الكبيرة المستطيلة المسماة عُرفاً Place des canons بساحة المدافع[1] على الرغم من أنّها اليوم تحمل اسماً أكثر معاصرة

1 - عرفت بساحة البرج في عصر الأمير فخر الدين المعني الثاني الذي أحضر=

من اسم حربي، ويشغل أحد أضلاعها واجهة بناء مهيب كان قديماً سرايا[1]، واليوم هو مبنى الحكومة الرسمي لدولة لبنان الكبير، وأمامه حراس الجندرمة السوريةوقد اعتمروا قلابقهم السود العالية، وعلى المدخل يخفق العلم بألوانه الفرنسية وعلى خلفيتها ترتسم أرزة لبنان الخضراء. والسوق بجانب الساحة تماماً، وهي صالة كبيرة يشغلها مئات من المتبطلين الطفيليين الذين يعتاشون من استغلال الناس، لدى كل واحد منهم دكان صغيرة لتبديل العملات بربح بسيط يختلف طبعاً عن الأسعار المعلنة في النشرات الرسمية. وإلى الأمام صف من الأبنية الكبيرة بواجهات مبتذلة بنيت قبل عشرات السنين، كانت هذه الساحة في أيام العثمانيين بالتأكيد مفخرة سكان بيروت، ونجد هنا بعض المقاهي حيث يجلس السادة وقد اعتمروا الطرابيش يدخنون النارجيلة، أو يقرؤون الصحف، ويتناقشون في حماسة، وآخرون يتناولون طعامهم في المطاعم العربية العديدة هنا، ولهذه المطاعم مظهر طريف، تعلّق بدلاً من اليافطة هنا عادة قطعة ماشية مسلوخة، يقوم الزبائن بفحصها لاختيار أفضل ما فيها، ثمّ يرونها للبائع، فيقوم هذا حالاً باقتطاعها وشكّها في السيخ، وبعد دقائق قليلة تظهر مشوية على المائدة، التي يشتهيها حتى السائح

=مهندسين ايطاليين لتشييد قصر له في مكانها وأحاطه بالحدائق والرياض، وفي القرن التاسع عشر انزل الأسطول الروسي مشاته في ضواحي المدينة ونصبت المدافع في البساتين المحيطة بالقصر لضربه، بعدما حوله احمد باشا الجزار إلى برج لرد الأسطول، ومن هنا أطلق عليها اسم ساحة المدافع. وتم تغييره بعد الانقلاب إلى ساحة الحرية ثم ساحة الاتحاد، ومع انقضاء العهد العثماني أمر الجنرال الفرنسي غورو أن يطلق عليها اسم ساحة الشهداء تخليدا لذكرى ضحايا جمال باشا السّفاح ومنذ ذلك التاريخ احتفظت بهذا الاسم. (المترجم)

1. السراي الكبير بني عام 1853 ليكون ثكنة عسكرية للحامية التركية. ثم أصبح في أيام الانتداب الفرنسي مقراً للمفوض السامي، إلى أن أصبح مقراً لرئاسة الوزراء في عهد الاستقلال.(المترجم)

الأوربي الأكثر ارتياباً، ولولا القذارة الكبيرة السائدة في كل mise en scène "زوايا هذا المسرح" لكان تناول الطعام هنا أكثر متعة من مطعم الفندق. وبالقرب من ساحة الحزن[1] هذه عدة أزقة لها مظهر مريب جداً: بارات صغيرة مملوءة بزبائن من الجنسين بمظاهر متحررة جداً، ومتاجر دون يافطات وأبواب موارية تحدد الطبيعة الواضحة لهذا الحيّ، الذي يخدم كما يبدو مصالح قصر المحافظة وحظائر السفن في الميناء القريب. Notabene "لاحظ جيّداً" كم يمكن التوصل من هذه المعطيات إلى صياغة أحكام معينة، الحركة في الميناء البيروتي ليست كبيرة، أو إنّ البحارة شرفاء جداً. وبالقرب من الساحة تقع الأسواق، وهي النقطة المركزية لحركة المدينة. ليست الأسواق مغرية، وهي تذكرنا على الأغلب بأسواقنا المحلية: هنا الكثير من الخضار والفواكه، إضافة إلى البضائع الأوروبية المستوردة. لكن حركة المشترين الذين كثيراً ما نرى بينهم رجالاً يرتدون الطرابيش، ونساءً في أرديتهن الثقيلة الطويلة، وأحياناً بوجوه تمت تغطيتها، تعطي الأسواق مظهراً شرقياً في طريقه إلى الندرة.

من المعلوم أنه تمّ الالتزام منذ أزمنة قريبة في الدولة التركية كلها بأوامر مصطفى كمال، التي منعت الطرابيش الحمر والملاءات النسائية السود، فمواطنو تركيا اليوم يرتدون القبعات «البرنيطة» وبناتهم وزوجاتهم يرتدين الإيشاربات على رؤوسهن، جاعلين من استانبول مدينة تشبه كاجمييج أو نالفك[2]، ولا توجد الأزياء الشرقية التقليدية إلا خارج حدود الدولة الحداثية فقط. يتأقلم السوري الذي يسكن المدينة بسرعة مع الملابس الأوروبية، لكنه دون الأخذ

1ـ إشارة من المؤلف إلى الاسم الجديد (لساحة المدافع) التي سميت بـ(ساحة الشهداء). (المترجم).

2. مدينتان أو حيان في بولونيا، كاجمييج مدينة يهودية أصبحت حيّاً من أحياء كراكوف، أمّا نالفك فحيٌّ من أحياء اليهود في وارسو أيضاً.(المترجم).

بالحسابات الدينية يلبس الطربوش، الذي يجب أن يكون عالياً وململساً بالمكواة. ودوماً يتوافر عدد من الخبراء الذين يسخنون الطرابيش المغضنة بعد تلبيسها على أوعية نحاسية لامعة تشبه الطناجر المقلوبة يضعونها في فرن خاص، ثم بعد ذلك يقومون بكيّها وتمليسها.

شارع من شوارع البازار[1] يحمل اسم Suk Sursuk "سوق سرسق" وكلمة Suk تعني بالعربية البازار، وسرسق[2] كما يبدو هو اسم عائلة بيروتية معروفة، ما دمنا نحمل في جيوبنا دعوة من السيدة الفريدا سرسق، إلى حفلة استقبال بمناسبة تكريم محافظ المدينة، واضح أن هذه العائلة ثرية جداً ما دامت تملك سوقاً باسمها، ولديها إمكانية دعوة جمهور من الجنسين. إذن من واجبنا أن نلبي الدعوة. لم يكن على بطاقة الدعوة عنوان، فكان علينا أن نسأل أين تسكن السيدة الفريدا. أعلمتنا استعلامات الفندق أن المدام سرسق تسكن في فيلا سرسق، وأين الفيلا؟ في شارع سرسق. وأين هذا الشارع؟ في حيٍّ سرسق! ركبنا السيارة واتجهنا نحو مدينة السراسقة[3]، تسلقت

---

1 ـ (البازار) كلمة فارسية دخلت اللغة التركية و منها انتقلت إلى اللغات الأوروبية ومنها البولونية. لكنها دخلت إلى العربية من الفارسية مباشرة. (المترجم).

2 ـ عائلة من أصل بيزنطي بلغ من ثرائها ما جعلها تمتلك أراضي من تركيا، لاسيما مرسين حيث كان خان سرسق، وصولاً إلى مصر ومروراً بفلسطين. وقد أتى الرجل الأول من آل سرسق ويدعى جبور إلى لبنان في العام 1740 ،وكان جدّ عائلة سكنت بلدة البربارة شمالي جبيل، وتفرّعت إلى عائلتين أخريين هما جبيلي وبرباري. لكن السراسقة، توجهوا إلى العاصمة و باتوا من عائلات رأس بيروت الأرثوذكسية الشهيرة. (المترجم).

3ـ حي السراسقة بدأ بناؤه في أوائل القرن التاسع عشر وهو جزء من شارع الجميزة الشهير، وقد سمي باسم عائلة الرجل الأول الذي بنى فيه، وهو موسى سرسق. ولعلّ أشهر قصور الحيّ اليوم، هو (قصر كوكرن) قصر ليندا وإبراهيم سرسق، وقصر نقولا سرسق الذي تمّ تحويله إلى متحف بناء على طلب مالكه=

السيارة بنا جبلاً مرتفعاً ثم توقفت أمام قصر بني على الطراز الإيطالي داخل حديقة كبيرة. كان يتجمع جمهور طريف أمام باب الدخول، واضح أن لحفلة الاستقبال لدى السيدة شهرة كبيرة في المدينة، ويبدو أنه سيكون شيئًا محبباً أن نرى أصحاب السعادة المدعوين ونشاهد شيئاً من الاحتفالات التي ستقام في الحديقة. دلفنا إلى القصر وقدمنا أنفسنا في الصالون إلى زوجة محافظ المدينة التي كانت تستقبل كل من يصل بكلمات ترحيب مهذبة، وعند ذكر وارسو عبرت لنا عن أسفها الشديد أنه لم يعد الآن للروس هناك من وجود[1] ، و في الصالون قدمنا سكرتير القصر إلى سيدة القصر، أرملة الرجل الثري الفتية والجميلة والمهذبة، إنها حتماً الشخص الأكثر حضوراً من بين الحضور المحليين جميعاً، لكن الناس السيئين يؤكدون أنها يهودية[2]، «وهذا بالضبط ما يؤكده القديس Atanazy أتنازي[3] عن الملكة

=وقصر بسترس الذي تحول إلى مبنى لوزارة الخارجية، خلف القصر تختبئ فيلا سرسق التي عاش وترعرع فيها أولاد الجدّ موسى سرسق و بنيت عام 1830 وتتضمن الفيلا صالونات مختلفة، لكلٍ منها اسم مثل «صالون الصيد» و«الصالون العربي» و«صالون الزجاجيات»... وقد سكنها الجنرال كاترو أيام الانتداب الفرنسي. وكانت الحفلات تقام في قصر جورج سرسق كلما زار دوق روسي لبنان حيث نظمت السيدة أميلي «الكبيرة»، ليالي ساهرة، لا يقل المدعوون إليها عن أربعمئة شخص، تختمها بهدايا تذكارية للضيوف. بينما يفتح ميشال سرسق قصره كلما رست باخرة خاصة بالملكة البريطانية فيكتوريا. (المترجم)

1. إشارة إلى نيل بولونية استقلالها من الاستعمار الروسي والألماني والنمساوي بعد الحرب العالمية الأولى بعد فترة تقسيم دامت أكثر من قرن. (المترجم)

2 ـ عائلة سرسق واحدة من العائلات السوريةواللبنانية التي تعاونت مع الوكالة اليهودية، وقد باعت الوكالة كثيراً من أملاكها في فلسطين.(المترجم)

3 ـ القديس أتنازي (أثاناسيوس)، ولد سنة 295م. ويعني اسمه (الخالد) ، عاش في فترة صعبة كانت المسيحية فيها مضطهدة في عهد القيصر الروماني ديوقليسان (297=

زنوبيا.» ويسميها آخرون اليونانية، ويروون الحكايات الممتعة عن ثراء آل سرسق، وزفاف السيدة الفريدا السماوي.

نسير في أرجاء القصر نتفحصه من الداخل، نتأمل الحضور بفضول، صالات ثرية مؤثثة بأفخر الأساليب، لكن لاشيء مميز. أما الجمهور الذي ملأ الصالونات فهو هدف أكثر إثارة للمراقب، نساء ورجال في طرابيشهم يثرثرون على الأغلب حول الأعمال وأسعار العملات، والنساء من كل الأطياف يعرضن أحدث الموضات الباريسية، والحلي الفاخرة، أما الفتيات فيراقبن بفضول الأوربيين الحقيقيين الذين وصلوا لتوهم من باريس. من الممكن جداً أن نقوّم أوروبا تقويماً سيئاً، ولكن من الصعب أن ننكر أنّ أحفاد الروح اليونانية هم نمط ثقافي مختلف عن الّذين خلِفوا الفينيقيين. فالفينيقيون أيضا قلّدوا الإغريق دون نجاح أيضاً، وبالمثل فإنّ السوريين اليوم يتمنون أن ينجحوا في تقليد الأوروبيين، ولكن ليس كافياً أن نملك النقود لشراء آخر الموضات الباريسية، بل لابدّ من وجود من يلبسها، بعد نصف ساعة من التجوال على السجاجيد الفاخرة يعصف الحشد السوري ـ الأوروبي بالمائدة الفاخرة التي أعدت بأبهة وذوق رفيع، ويغادرون بمرح بعد ذلك إلى الحديقة حيث يقدم بدوٌ حقيقيون ـ دُعوا خصيصاً من أجل المناسبة ـ لوحاتهم الراقصة. الفكرة مقبولة، فليس بمقدور كل أحد أن يشاهد البدو الحقيقيين، فهم لا يأتون إلى بيروت غالباً، إنّ هذا العرض يذكرني بفرق الرقص الجبلية في الزاكوبانه والتي يتم استئجارها للغاية نفسها، لكنّ الرقص نفسه

=313م)، امتلك ثقافة هلينستية عالية، وكان يعرف القبطية كتابةً وقراءة، كتب سنة 318 رسائل منها: (ضد الوثنيين) و(تجسد الكلمة) شارك في مجمع نيقية 325م، وكان خصما للأريوسيين، انتخب بطركاً لمدينة الإسكندرية.(المترجم)

فيبدو مختلفاً تماماً، فهو هنا قريب من الطقوس السحرية. يقف البدو رجالاً ونساء في صفين متقابلين، ثمّ يبدءون الحركة على إيقاع المزمار الذي ينفخ فيه الساحر قائد الفرقة، ومع ازدياد حماسة النغم البدائي الحزين ينفّذ الراقصون حركاتهم الناعسة التي تزداد سرعة وكأنهم في حالة تنويم مغناطيسي، ويبدو العازف كأنه صائد الفئران[1] الذي يقود بصرامة تامة المخلوقات الغارقة في سماع الأنغام الصافرة، بعد هذه الفترة الغرائبية بدأ عرض الألعاب النارية الرائعة حقاً، والمكلفة أيضاً، خيم الليل الربيعي باكراً، وأصبح بالإمكان أن يلهو الضيوف بالصواريخ النارية المتعددة الألوان، ومراوح الشرارات المضيئة. لكن كان يمكن الاكتفاء دون الحاجة إلى هذا العرض، وبالنسبة إليّ فأنا رأيت أجمل عروض الألعاب النارية في أيام طفولتي في مدينة كراكوف، عندما كان سيّد هذا الفن المشهور موندجيكوفسكي صانع الألعاب النارية، الذي كان التلاميذ يسمونه "موندجيكوفسكي الناري" يعرض أروع فنونه النارية على ضفاف الفيسوا، وبعدها أحرقت واحدة من الصواريخ الرائعة عيني "موندجيكوفسكي الناري" المسكين، حتى إنه اليوم يشحذ في شوارع كراكوف، ولهذا فإنني لم أعد أرى أبداً فنون الألعاب النارية الحقيقية من بعده. عدنا بعد ذلك إلى الفندق بعد بحث متعب عن سيارتنا بين طوابير السيارات المركونة على طول الشوارع المجاورة.

يتجمع السكان الفقراء على طول طرق الموصلات الكبرى؛ أي على الطريق المؤدية إلى طرابلس، أو على طريق دمشق حتى المنطقة التي يصل إليها خط الترام، حيث ما تزال تنتصب هناك أبنية لا شرقية ولا أوروبية، وغير بعيد عنها تبدأ أكواخ أنشئت بما تيسّر من مواد،

---

1 ـ هنا إشارة إلى حكاية الأطفال المشهورة عن عازف الناي الذي أنقذ المدينة من الجرذان. (المترجم)

ولا تنقص هنا أكواخ استخدمت صفائح البنزين بشكلٍ أساسي لإنشائها، وهي تشغل جانبي طريق السيارات. أما الطرق الضيقة الصاعدة نحو الجبل ملتويةً بين البساتين فتقود إلى منازل وفيلات البيروتيين الأغنياء الفخمة.

نلاحظ هنا ظاهرة مثيرة للاهتمام أيضاً في هذه المدينة التي تشكلها مثل هذه الأحياء المختلفة: مدن في المدينة، والقسم الأكبر من التجمعات الصغيرة أو الكبيرة تشكل كلاً متمايزاً لتقسيمات مستقلة على الأغلب ذات طابع ديني، وإثنيٌ أحياناً. فلكلّ مذهب ديني مركز ما، أو معبد ما، كنيسة، مدرسة، مقبرة، مشفى، مركز رعاية خيري، وكل هذا يتجمع غالباً في مكان واحد ليشكل تنظيماً مكتفياً بذاته، يعيش حياته الذاتية الخاصة. وأغلب الجماعات الدينية تمتلك سلسلة من مثل هذه التجمعات التي تديرها الكنائس الكاثوليكية، أو حتى البعثات البروتستانتية بفروعها المختلفة. وتبرز اثنتان من بين هذه المدن الصغيرة التابعة لسلطات دينية مختلفة، وهما تتموان في قسمين منفصلين من أحياء المدينة: جامعة القديس يوسف الكاثوليكية التي أسسها اليسوعيون[1]، والجامعة الأمريكية التي تدار بالروح البروتستانتية بمعونات مادية خاصة.

كما يمكن التخمين بسهولة مسبقاً أنّ هاتين المؤسستين الكبيرتين لا تخدمان العلم فقط، مع أنّ نشاطهما الظاهر يبدو

---

1 . اليسوعيون فرقة كاثوليكية أصولية من أكثر الفرق المسيحية نشاطاً تبشيرياً. ومنذ أواخر القرن السادس عشر وحتى نهاية السابع عشر ظل النظام التعليمي لليسوعيين من أشد الأنظمة صرامة وفاعلية في أوروبا. و كتب أحد كبار اليسوعيين متباهياً في 1647 إن كل معهد ومدرسة يسوعية كانت بمثابة "حصان طروادة المليء بالجنود القادمين من السماء، والذين يقومون بغزو القلوب والأرواح". (المترجم)

تعليميّاً أوّلاً قبل كل شيء، أما أفقهما الأبعد - الملاحظ أو غير الملاحظ - فتبرز فيه السمات الدينية - العقيديّة الواضحة، بل أيضاً السياسية. تستقبل كلتا الجامعتين الطلاب دون النظر إلى انتماءاتهم الإثنية أو الدينية، لأنّ البلاد خالية من هذا النمط التعليمي، والنتيجة إن كلّ الانتليجنسيا السوريةوإن لم تكمل دراستها في الخارج تخضع في نشأتها للتأثيرات الكاثوليكية - الفرنسية أو البروتستانتية - الانكليزية «أو الأمريكية». وليس ضرورياً أن نؤكد بعد هذا أن تأثيرات فترة النشأة تشكل لاحقاً طريقة التفكير والتوجهات السياسية، ولهذا فإنّ سوريةكلها في المحصلة منطقة تنازع فرنسي - انكليزي في إطار التوسع لا يقتصر على المجال الدبلوماسي فقط.

نزور أوّلاً الجامعة الكاثوليكية. البناء الضخم متعدد الطوابق الخالي من أيّ ذوق في عمارته، قاعات المحاضرات، وعدّة مدرجات، والكنيسة، ومجموعات الكتب، وكلّ هذا بأجواء الحياة الداخلية للأديرة. دخلتُ عدة مرات إلى المكتبة الشرقية الكبيرة التي تضم ما يزيد على مئة ألف مجلّد، كي أراجع المنشورات المتعلقة بسوريةالحديثة، أبدى الرهبان الودودون قلقهم الكبير من أنهم لم يستلموا بعد المجلّد الأخير من الدورية البولونية Roczniki Orientalistyczne *الحوليات الإستشراقية*". في هذا البناء الضخم قسمان: الفلسفي، واللاهوتي، ويضمان حلقات الأبحاث الشرقية المشهورة، التي يتمّ فيها تكوين رجال الدين من جميع الطوائف البابوية: الأرمينية، والكلدانية، والقبطية، واليونانية، واللاتينية، والمارونية. فهذه هي إذن المدرسة الأولى لقساوسة ومبشري الشرق. وهناك أبنية منفردة في ضواحي المدينة لكلية الطب والصيدلة، التي

تعمل منذ أربعين سنة[1] ، وأكثر الأطباء العاملين في المشرق أنهوا دراستهم هنا. وفي أثناء الحرب تمّ إخلاء الأساتذة الفرنسيين وسلم المشفى للإدارة العثمانية في كلية الطب في دمشق، وحاليّاً فإنّ المشفى هو من جديد في يد الفرنسيين وهو في حالة ازدهار، إذ يبلغ عدد المتعلمين فيه حاليّاً ثلاثمئة وبضع عشرة طالباً. وقبل الحرب بوقت قصير تمّ إنشاء مدرسة للحقوق على الطريقة الفرنسية، وتشرف عليها الجامعة في ليون ، وتسمى École Françoise de droit "المدرسة الفرنسية للحقوق" ، وترسل الجامعة إليها مبعوثيها لإجراء الامتحانات، وبالإضافة إلى المنهاج الفرنسي تقدم الجامعة أيضاً محاضرات في القانون الإسلامي باللغة العربية. وبمساعدة من جامعة ليون افتتحت أيضاً كلية الهندسة، وإذا أضفنا إليها أيضاً المرصد الفلكي في كسارة[2] في جبل لبنان، والمطبعة الضخمة Imprimerie Catholique المطبعة الكاثوليكية، والمكتبة التي ذكرناها سابقاً ، والمدارس الثانوية ومئات المدارس الابتدائية، والمعاهد المتخصصة، فسيكون لدينا هذا النشاط الهائل لمنجزات جامعة القديس يوسف.

ومن غرائب الصدف أنّ المبادر والداعي المتحمس لإنشاء المدرسة الكاثوليكية الكبيرة هو ماكسيميليان ريوو Maksymiljan

---

1 ـ تأسس معهد الطبّ في الجامعة اليسوعية عام (1883)، ثم تَحوّل إلى كليّة للطبّ سنة 1888 ، فكليّة للطبّ والصيدلة سنة 1889 ، أما دار التوليد فتأسست سنة (1896)، والكليّة الشرقيّة (1902)، ومعهد الحُقوق الفرنسي (1913) الذي تَحوّل إلى كليّة سنة 1946 ، ومعهد الهندسة الفرنسي (1913 أيضًا) الذي تَحوّل إلى معهد الهندسة العالي سنة 1948. (المترجم)

2 ـ كان إنشاء مَرصد كسارة (في البقاع) عام 1907. (المترجم)

RyŁŁo.[1]؛ مبشر الشرق الملتهب حماسة ونشاطاً، الذي عمل في لبنان في ثلاثينيات القرن الماضي، وقد كان له أيضاً دور في الحملات السياسية زمن الحروب التركية - المصرية. لم تعط سلطات الدير في البداية أهمية كبيرة لمشروع تأسيس معهدٍ تعليمي؛ لكن صبر وحماسة الليتواني ريوو تجاوزت الصعاب الداخلية والخارجية، ففي عام 1846م أُسس المعهد الإكليركي في مدينة غَزِير[2] الساحلية شمال بيروت، الذي توسع لاحقاً إلى Collège "كلية"، ثم بعد فترة نقل إلى بيروت، وفي عام 1881م حول البابا ليون الثالث عشر الكلية إلى جامعة وأعطاها حق منح الدرجات العلمية في قسمي الفلسفة واللاهوت، ومع مرور السنوات أسست أقسام الجامعة الأخرى، وهكذا بعد عدّة عقود تحققت خطط ريوو الطموحة.

الجامعة اليسوعية هي أهمّ انجازات البعثة التبشيرية الكاثوليكية في سورية، ولكنها ليست الوحيدة، فإلى جانب اليسوعيين ينشط العازاريون في مجالات التعليم، و"الفرير" Frères des ècoles chrètiennes "إخوة المدارس المسيحية"، وأخوات القديس فينسنت وباولو، والناصريات، والكلّ يعمل بروح التقاليد الفرنسية، والرهبانيات الأخرى التي تدير دور رعاية الأيتام ورعاية المسنين والمشافي. إنّ سورية كفلسطين هي بلد مثاليّ للإرساليات التبشيرية، وكل رهبانية تبشيرية تحاول جاهدة أن تجد لها مكاناً في أرض الكتاب المقدس، ومن هنا نجد في أغلب الأماكن مدرسة ما تتبع هذه الرهبانية أو تلك، أو نجد إرسالية علمانية بروتستانتية تقدم خدمات

---

1. مكسيميليان ريوو O.Maksymiljan RyŁŁo T.j. اشتهر باسم (الأب منصور)، ويذهب بعضهم كالمؤرخ يان رايخمان إلى أنه بولندي الأصل. (المترجم)

2. في كسروان. (المترجم)

تتعلـق بـالتعليم أو التمـريض، وفي أغلـب الأمـاكن ثمـة كنـائس ومؤسـسات يـتمم بـضعها أعمـال بعـض، أو تتنـافس فيمـا بينهـا. ففـي بـيروت وحـدها حـوالى أربعـين كنيسة تمثـل أكثـر المـذاهب تنوعـاً ، والفوائـد الـتي يحـصل عليهـا أهـالي المنطقـة كـبيرة «نتحـدث هنـا عـن المنـافع الماديـة حـصراً لأن المنـافع المعنويـة لا يمكـن حـسابها بدقـة ». فالسوريون الذين ينـاورون بحـذق بين البعثـات التبـشيرية الكـاثوليكية والبروتـستانتية والأرثوذكـسية، والـذين يبـدلون أديـانهم في حـالات الحاجة لابدّ أن تكون حياتهم سهلة جداً. فالبلد السعيد هو البلد الذي لا يشعر بالقلق على تربية أبنائه، وتقديم الرعاية الاجتماعية لهم، ويدع هذه الأمور للأجانب.

ومقابل عدم الجدية والفوائد المادية العاجلة لابد مـن دفـع ثمـنٍ مـا، وهـو ثمـن بـاهظ حتمـاً ، فلـيس لـسوريةفرادة تميزهـا ، ولـيس لهـا أيديولوجية خاصة بها، فهناك حيث تتخرج أجيال كاملة من المدارس الأجنبية، مع العلم أنها هي الأفضل، وحيث لم تكن هناك قطُّ في الحقيقة جهود لأحداث تعليم وطني حقيقي، يسجل سارقو الأرواح [1] هـؤلاء أكبر انتصاراتهم البـاهرة. وعشرات الآلاف من الشباب الـذين يتخرجون سنوياً من المدارس الفرنسية، سيعدون بعد عدّة أعوام بمئات الآلاف، وسيتحولون بفكرهم نحو فرنسا ونحو أولئك الذين يكونون التوجهات الفرنسية، وهكذا فإنّ أكثر المتحمسين لفصل الكنيسة عن الدولة في الجمهورية الثالثة يقرّ أنّ الإرساليات الفرنسية في المشرق هـي عامـل سياسـيٌّ مهـم، فهـم لم يتخلـوا قـط عـن امتيـازات رعايـة المسيحيين في الإمبراطوريـة العثمانيـة، الـتي حصلت عليهـا فرنسـا قبـل

1. إشارة إلى الاسم "غزاة الأرواح" الذي أطلق على المبشرين اليسوعيين. (المترجم)

قرون. ولكنّ خريجي المدارس الفرنسية يواجهون يوماً بعد يوم جيشاً متضخماً من خريجي المدارس الأنجلو ـ أمريكية.

وإذا كانت الرهبانيات الكاثوليكية كانت قد بدأت عملها في البلاد السوريةمنذ القرن الثالث عشر، موسعة نشاطاتها في عهود الاتصالات السياسية المزدهرة «كما في أيام فخر الدين ، وبعد ذلك في النصف الثاني من القرن التاسع عشر» فإنّ أنشطة البروتستانت على اختلاف كنائسهم لم تبدأ فعلاً إلاّ قبل أقل من مئة سنة. والرحالة الذين زاروا سورية في تلك الأزمنة، يذكرون هؤلاء "التوراتيين" مزدرين نشاطهم، فهؤلاء المبشرون كانوا يتصرفون بأموال كبيرة، وبعض السوريين الماكرين وافقوا على ذلك من أجل نقودهم. ونحن نعرف من جهة أخرى إستراتيجية هذه النشاطات من الوقائع التي جرت في بلادنا؛ عندما نشطت بعد الحرب بعثات تبشيرية أمريكية تدعو إلى الإنجيلية الإحسانية: يظهر رجل ذو مظهر جاد في ملابس الرهبنة الطويلة، ويقول للفقير الذي يحلم في الشارع «لديك روح؛ لديك ملابس من صوف، بحسب كلمات الإنجيل». تأخذ الروح الملابس، وتشرب الكاكاو، وترتل الأناشيد الدينية طالما كانت الأيام باردة، وفي أيام الصيف الدافئة تعود إلى ممارسة طقوسها الدينية القديمة التي اعتادت عليها، ليعاودها في تشرين الثاني حبّ الإنجيلية مرة أخرى كي تزيد في عدد المهتدين. الناس سخروا، لكنهم تصرفوا بودٍ إلى حدٍ ما مع البعثة، وهذا ما كان مطلوباً. بهذه الطريقة بدأت البعثات الأمريكية نشاطها قبل أعوام، منتقلة مع الوقت من الأعمال الاحسانية العاجلة إلى الأنشطة التعليمية الهادفة والمنظمة في مستوياتها الأوسع. شبكة المدارس الانكليزية التي تدار بالروح البروتستانتية هي واسعة إلى حدّ كاف في سورية، فعلى الرغم من ضآلة عدد الإنجيليين، فإنّ ثمة

زبائن دوماً للبضاعة الجيدة والرخيصة. "البعثة العلمانية" الأمريكية التي أحدثت قبل مئة عام بوساطة المشيخانيين[1] تدير مئات المدارس، ومعاهد تأهيل المعلمين، ومدارس داخلية للإناث، ومطبعة ضخمة، وتنشط في بيروت الجامعة الأمريكية مستقلة عنها، وقد تم إنشاؤها قبل ستين عاماً باسم Syrian Protestant College " الكلية البروتستانتية السورية"، التي تطورت تماما في زمن الحرب إلى جامعة مستقلة. كنا بالصدفة ضيوف هذه المؤسسة، فعندما كنا عائدين من دمشق، لم نجد مكاناً في الفندق، تشارلز ساروليا الصحفي الانكليزي المعروف جيدا في بولونيا الذي عدنا معه إلى بيروت، أخذنا إلى الجامعة، حيث كان يسكن هو نفسه، لم نستطع رؤية الكثير خلال تلك الليلة، لكن هذه الملاحظات القليلة كانت كافية لأخذ العلم عن شجاعة الأمريكيين وقوتهم. أبنية جامعة القديس يوسف مبعثرة في المدينة، وكأن هؤلاء الذين يعملون فيها، يبحثون عن تواصل حميم مع الوسط، الجامعة الأمريكية حديقة ضخمة تشكل حياً كاملاً في المدينة مغلقاً أمام الغرباء يصل إلى شاطئ البحر. إنه عالم مستقل ممتلئ بمشاعر الفخر بالذات والسمو، وغير محتاج للتعاون، ومكتف بذاته. يؤكد ساروليا أنّ حي الجامعة هذا ذي الحدائق هو أجمل أجزاء بيروت، والوحيد الذي يستحق الرؤية وذو شرعية، الحديقة وحدها وبكلمة أدق المنتزه دون شك التي تلقى عناية فائقة، تذكّر بالمتنزهات البيئية على الريفيرا، تُرى بين أشجار النخيل عدّة أبنية بيضاء، من طابقين على الأغلب، ذات واجهات تقليدية هادئة، «وهي بضعة وعشرون بناءً لكنها لا تُرى كلها من وراء الخضرة». نحصل على

---

1. المشيخانية: صفة لكنيسة بروتستانتية يدير شؤونها كهنة منتخبون يتمتعون كلهم بمنزلة متساوية. (المترجم)

مأوى في فندق الطلبة الفارغ بسبب عطلة أعياد الميلاد، الترتيب في كل مكان مع البساطة والراحة. وفي الأبنية الأخرى تقع صالات الدراسة. كما تُرى ملاعب الرياضة. عالم مختلف تماماً، مضيء ومرح ومتّجه نحو الخضرة، نحو البحر والغرب! كان علينا الرحيل للأسف صباحاً في اليوم التالي لمتابعة طريقنا. وهكذا لم يكن ثمة وقت كي نشاهد عن قرب هذه المؤسسة التي هي في الحقيقة مجموعة معاهد تضمّ الطب، والصيدلة، وطبّ الأسنان، وعلوم الزراعة، والتجارة، ومعهد المعلمين، ومدارس التأهيل. والتعليم هنا، ببساطة، باللغة الانكليزية، والأساتذة أمريكيو الأصل، لا يكلفون أنفسهم عناء التعليم بالفرنسية أو العربية، ولا يدخلون في علاقات حميمة مع سكان بيروت.

إنّ نشاط البروتستانت الأمريكيين، لا يزيد كما يبدو في عدد السوريين البروتستانت الضئيلة، فالإسلام كما المذاهب المسيحية على اختلافها سواء كانت بابوية أم غير بابوية، هي بعيدة فكرياً عن العقلانية البروتستانتية، فالتطور الديني يقودهم هنا نحو الكنيسة الكاثوليكية أو الأرثوذكسية القريبتين بتقاليدهما، وتصوراتهما المحددة، وغنى طقوسهما الكنسية. لكن بعض الأفكار المستندة إلى الإيديولوجيات الدينية المفسرة للعالم تكتسب أهمية متزايدة بمقدار الضعف الذي يصيب القيم الدينية المحضة، وعلى خلفية التوجهات الدنيوية نرى هنا تأثيراً ضخماً للتربية الأمريكية البروتستانتية، وإذا أضفنا إلى ذلك الاحتكاك المباشر الذي يتيح للمتعلمين في تلك المدارس أن يتأثروا بالثقافة والأنماط الاجتماعية الأنجلو - أمريكية التي تتغلغل يوماً بعد يوم في المشرق الإسلامي، فلا بدّ من الاعتراف إذن بنجاح نشاط هؤلاء "التوراتيين" المحدثين المثمر. لكن أيضاً لابد من الانتظار كي نرى ما الذي سيحدث في المستقبل، فسورية حالياً هي تحت الانتداب الفرنسي الذي يرعى نشاط المدارس الفرنسية الدينية

منها والدنيوية، وتعمل جاهدة للمحافظة على الاتصال بفرنسا وإشاعة ثقافتها، لكن وعلى الرغم من هذه النشاطات الرسمية الفرنسية فإنّ الأنشطة الأنجلو- أمريكية تزدهر هنا بنجاح أيضاً، لأنّ السوريين الأذكياء يعرفون أنّ انكلتره تحكم فلسطين وشرق الأردن والعراق وبلاد الرافدين[1] ومصر، وأنّ طرق التجارة العالمية هي في يد الانكليز، وأنّ آلاف السوريين يكسبون ثروات كبيرة في الولايات المتحدة الأمريكية. وكذلك فهم يعرفون أيضاً - على الأقل من كتاب تاريخ الأبّ المسن لامّنس[2] المستخدم في المدارس الفرنسية - أن الجيوش والأعلام تتغير مرات كثيرة، وأن طرق التجارة هي دوماً سالكة من الغرب إلى الشرق، ومن الشمال إلى الجنوب وبالعكس أيضاً.

إنّ الصراع بين التأثيرات الكاثوليكية - الفرنسية والأمريكية - البروتستانتية هي الآن في مقدّمة الحملة لامتلاك روح سورية، فالحرب العالمية شطبت التأثيرات الألمانية «الكاثوليكية والبروتستانتية» والتأثيرات الروسية الأرثوذكسية، التي كانت لها أيضاً هنا مؤسسات عمل خيري، ومدارس وتمويلات مالية كبيرة. لكن دون النظر إل طبيعة التأثيرات الأجنبية فإنّ سوريةكلها هي ساحة صراع داخلي، وهي حرب حيث الكلّ ضدّ الكل، والسلطات الحكومية : العثمانية

1- يفرق بيسترون بين مفهومين جغرافيين باستخدامه دوماً المصطلحين: العراق - وميزوبوتاميا (بلاد الرافدين ، أو بلاد مابين بين النهرين) معا في هذا الكتاب.(المترجم).

2- هنري لامّنس (ت1937) : مستشرق بلجيكي المولد فرنسي الجنسية، كان أستاذاً للأسفار القديمة في كلية رومه، استقرّ في بيروت، وتولى إدارة جريدة البشير مدّة، و درّس في الكلية اليسوعية، صنف كتباً عن الإسلام والعرب بالعربية والفرنسية منها: (المذكرات الجغرافية في الأقطار السوريا) و (تسريح الأبصار فيما يحتوي لبنان من الآثار)، ومات في بيروت . عن (الأعلام للزركلي). (المترجم).

سابقاً والفرنسية حاليّاً، تقوم بدور الشرطة في هذا "البلقان" حريصة على عدم تحول الصراعات إلى مواجهات عنيفة.

ولكن ماذا عن بانوراما البشر والأنماط الاجتماعية والأعراق والأفكار والعقائد والمذاهب؟

يكفي أن تأخذ بيدك منشوراً إحصائياً رسميّاً أو أيّ منشور إعلامي جيّد كي تتعرف على الصورة التركيبية الدينية - القبلية الخاصة. إنّ بعض الأرقام غير متوقعة حقّاً، فعلى سبيل المثال إنّ أتباع الكنيسة الكاثوليكية وهم أهمّ جماعة مؤثرة لا يعدون سوى سبعة آلاف من المؤمنين، وهذا مع الأجانب المهاجرين والمهتدين حديثاً، أما أتباع الكنائس البروتستانتية جميعها بمن فيهم من قسس وراهبات وشمامسة ومهتدين حديثاً «الذين كانوا قبلاً من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية أوالجريجورية أوالنسطورية» فهم أيضاً يساوون الكاثوليك في عددهم. وهؤلاء الأربعة عشر ألفاً يشكلون ملح و بهار الأرض السورية. فالمسيحيون أقلية في سورية، وتشير الإحصاءات إلى أن عددهم بالتقريب هو سبعمئة ألف نسمة. ويعيشون غالباً في المدن، هم أولاً في بيروت التي تضمّ الغالبية المسيحية، وفي الجبل؛ فلبنان كان دوماً جمهورية مسيحية مغلقة كفلت العلاقات الدولية استقلالها النسبي.

المارونيون هنا هم أكبر جماعة مسيحية، ويعدون حوالى ثلاثمئة ألف نسمة، ويسكنون في الجبل، لكنهم يوماً بعد يوم ينزلون للسكن في المدن الساحلية. وهم أحفاد سكان سوريةالذين لم يعتنقوا الإسلام، وتعود تسميتهم إلى القديس مارون[1]، زعيم جماعة نشأت في

---

1 - هو الراهب مار مارون الناسك الذي عاش في أواخر القرن الرابع فوق جبل قورش في سوريا. تجمع تلاميذه حول دير باسمه بناه الإمبراطور ماركيانوس على ضفاف العاصي بالقرب من شيزر شرق حماه في سوريا، هجر هؤلاء=

القرن السابع على خلفية الخلاف الذي نشأ حول طبيعة المسيح الإلهية والإنسانية. وفي زمن الحروب الصليبية تم التقارب مع الفاتيكان ثم الاتحاد به مع احتفاظهم بطقوس العبادة السورية، أما أمور العقيدة والتعليم المتقدم للرهبان فأضحت تحت تأثير الفاتيكان. كان الإتحاد بالفاتيكان لتوطيد علاقات المارونيين بالغرب والحصول على حماية الدول المسيحية الكبرى، أما روما «وعموماً أوروبا» فحصلت بوساطة هذا الاتحاد على موطئ قدم في الشرق، لتنطلق من خلاله إلى انجازاتها اللاحقة: التبشيرية والتجارية والسياسية. سكن المارونيون قديماً في الأراضي الخصبة حول أنطاكية وحماة، وتحت ضغط السكان المسلمين والأنصارية أجبروا على الانسحاب أبعد جنوباً، مجبرين الدروز بدورهم للانسحاب نحو الجنوب والشرق، واليوم فإنّ أهم مراكز المارونيين هو جبل لبنان وبيروت نفسها.

أما المجموعة الثانية من حيث عددها وقوة تأثيرها فهي مجموعة المؤمنين بالكنيسة الأرثوذكسية[1] أي الملكيين، ويعدون حوالى مئتي

=مناطقهم من وجه العرب المسلمين في القرن السابع واعتصموا في جبال لبنان، تصادق الموارنة مع الصليبيين وتحالفوا معهم، ودفعوا ثمن هذا غالياً بعد ذلك للمماليك. تبنت الكنيسة المارونية فكرة القومية اللبنانية، واستعانوا بفرنسا بعد الحرب العالمية الأولى فمنعوا الملك فيصل من رفع راية الثورة العربية في بيروت، وأعلن الكولونيل الفرنسي "دي بياباب" حاكماً على بيروت، وكرست فرنسا استقلال دولة لبنان الكبير عن سورية بمساع مارونية دعمها بعض المسلمين أيضاً. يجد الطقس الماروني جذوره في الطقس السرياني مع دخول المؤثرات اللاتينية عليه. (المترجم).

1. الأرثوذكسية Orthodoxy كلمة مركبة من لفظتين يونانيتين «أرثوس»، وهي صفة لما هو قويم وسليم و«ذكسا» وهي اسم يدل على الرأي والمعتقد والفكر. فيكون معنى الكلمة اليونانية المركبة «أرثوذكسية» هو المعتقد القويم أو الرأي القويم. وتطلق اصطلاحاً على جماعة كبيرة من المسيحيين الذين يقولون=

ألف وبضع عشرة ألفاً. ويسكنون في مجموعات مغلقة في جبل لبنان، وحوران، وجبال الأنصارية، وبالإضافة إلى ذلك ينتشرون في سوريةكلها، ولاسيما في المدن. والملكيون هم الأحفاد القدماء لسكان سوريةقبل الإسلام والمهاجرين اليونانيين، مع قلة قليلة من العرب المهتدين قبل عهود غير بعيدة. وتعني تسميتهم «الملكيين» الإمبراطوريين بالعربية: أتباع الإمبراطور البيزنطي. ويقيم بطركهم في استانبول، وقد بقيت الكنيسة كلها تحت التأثير اليوناني. ووجدت هنا في أعوام ما قبل الحرب، وكذلك في فلسطين تأثيرات روسية قوية وروبلات، السوريون الذين كانوا يبحثون دوماً عن حماةٍ أثرياء، دخلوا طوعاً تحت رعاية القيصر الأبيض، الذي لعب دوراً متعاظما أكثر فأكثر في الشرق الأدنى، منافساً فرنسا في مجالات كثيرة؛ الجمعية الروسية ـ الفلسطينية التي عملت بالتبشير وبالسياسة جزئيّاً، تصرفت بموارد مالية ضخمة في هذه المنطقة «وخلال أعوامٍ قصيرة نشأ في القدس حيٌّ روسيٌّ ضخم مع سلسلة من المؤسسات والمدارس، هي اليوم مشغولة على الأغلب بمكاتب الحكومة الفلسطينية». وقد استأصلت الحرب من ساحة المنافسات الدولية المتنافسين الأكثر ضعفاً: روسيا وألمانيا، تاركة التنافس للمنتصرين في نصف النهائيات.

وبالإضافة إلى الأرثوذكس ـ الملكيين هناك طائفة الكاثوليك اليونانيين المتحدين بالفاتيكان وهم يعدون في لبنان حوالى تسعين ألفاً، ويسكنون عموماً في المدن، ومقرّ بطركيتهم دمشق أحياناً

=إنهم حافظوا على المعتقد الصحيح كما حددته المجامع المسكونية (المجمع المسكوني مؤتمر يُدعى إليه أساقفة العالم كله للتداول في شؤون الكنيسة)، تمييزاً لهم من الذين عُدّوا هراطقة. (المترجم)

وأحياناً الإسكندرية ، ومن الصفات الفارقة لهذه المنطقة عموماً التي يمكن بحق تسميتها مهد الأديان صفة الانقسامات حتى في المذهب الواحد ، فلدينا إذن الأرمن ـ الأرثوذوكس المسمون بالغريغوريين الذين يعدون حوالى ثلاثمئة وخمسة آلاف ويسكنون في المناطق ، وإلى جانبهم حوالى عشرون ألفاً من الأرمن ـ الكاثوليك ومقر بطركيتهم مدينة استانبول، «وهم مثل الأرمن الكاثوليك في بولونيا يقيمون شعائرهم باللغة الأرمينية». أما إقامة الشعائر باللغة السريانية فهي لدى اليعاقبة، أي السريان الأرثودوكس الذين يسكنون في الشمال أيضاً ، وعددهم حوالى خمسة عشر ألفاً ، «ورئيس طائفتهم هو البطرك في مدينة الموصل» ، ويضاف إليهم جميعاً السريان الذين اتحدوا مع الفاتيكان في القرن السابع عشر ويعيشون في ضواحي دمشق وحلب، وتعدّ طائفتهم حوالى عشرة آلاف وبطركهم يسمى بطرك أنطاكية بالرغم من إقامته الدائمة في حلب أو بيروت. وهناك أيضا أتباع المذهب الكلداني «الكلدان ـ الأرثودوكس» أي النسطوريون وهم مجموعة صغيرة تسكن في شمال سورية وأعداهم أكبر في كردستان، وبين النهرين» ، والنسطوريون ـ الكاثوليك «منذ القرن السادس عشر» ويعيشون على ضفاف الفرات.

وإذا كان أحدنا يظن أن عالم الإسلام يقدم وحدة لا انقسام فيها على نقيض الفسيفساء الطائفية والمذهبية في عالم المسيحية فهو على خطأ كبير.

فنحن هنا أوّلاً قبل كل شيء أمام الطائفتين الكبيرتين: السنة وهم الذين يعتنقون المذهب المعتمد في دولة العثمانيين السابقة ، وهناك الشيعة الذين يعتمدون الطريقة الفارسية في فهم الإسلام، فكأنهم

مسلمون «بروتستانت»[1] . وتدلّ الإحصاءات الرسمية أنّ عدد السنة يصل إلى مليون ونصف، ويعيشون في كلّ سورية، وتحديداً في الشمال والشرق. وهم أكثرية في المدن الساحلية ما عدا بيروت المسيحية. أمّا الشيعة المسمون هنا بالمتاولة فيعدّون حوالى مئة ألف، وهم يعيشون في سهل البقاع وعلى الشاطئ حول صيدا وصور.

وتنتمي بعض الجماعات القبلية ـ الدينية إلى الإسلام رسميّاً، وهم يمارسون ظاهريّاً الشعائر الإسلامية، لكنهم حقيقة يمارسون عبادات قديمة هي خليط من بقايا أديان مختلفة اعتقد بها الناس منذ قرون في سورية. وأشهر هذه الجماعات من الناحية التاريخية هم الدروز الذين تضمّ عقيدتهم بجانب العناصر الإسلامية و المسيحية عناصر وثنية مثل تأليه القادة الدينين، وإيماناً بالتقمص، وانتظار عودة الخليفة الحاكم الذي سيقود المؤمنين إلى السماء، والتفسير الرمزي للنصوص المقدسة وهذه هي بعض السمات المميزة لهذه الديانة القديمة التي سمحت لأتباع هذه العقيدة بالاحتفاظ باستقلالهم القبلي والسياسي خلال قرون طويلة. وتشير الإحصاءات إلى أنّ عددهم يصل إلى خمسة وثمانين ألفاً، و بعد هزيمة السنوات الأخيرة بالإضافة إلى ثورة جبل الدروز أضحوا أقل من ذلك حتماً. سكن الدروز مع الموارنة في جبل لبنان، كما تزعموا المعارك من أجل استقلال الجبل بدعم أوروبي، وعندما تبدلت الأوضاع السياسية تسبب الدروز في المجازر الدموية ضدّ المارونيين عام 1860م، وبعد التدخل الدبلوماسي الفرنسي والعسكري اضطروا للانسحاب نحو الجنوب والشرق إلى حرمون وحوران.

وإذا كانت القبائل الدرزية المحاربة معروفةً عموماً لدى الأوربيين من

1ـ ظلت الكتابات الأوروبية فترة طويلة تقابل بين الشيعة المتحررين فكرياً، والسنة الأصوليين المنغلقين فكرياً. (المترجم)

أعمالهم البطولية في حياة فخر الدين المدافع عن استقلال لبنان في القرن السابع عشر؛ أومن الحوادث الأخيرة في جبل الدروز، فإنّ قبائل الأنصارية[1] الأكثر عدداً، الذين يسكنون سلسلة الجبال ابتداء من شمال لبنان، يعدون مجهولين أو معروفين بالاسم فقط. ويعدون حوالى ثلاثمئة وخمسين ألفاً، وهم مزارعون فقراء، قلما يهبطون إلى المدن، ويحافظون على عقائدهم الدينية الخاصة التي لا يتيحون الاطّلاع عليها إلاّ للرجال القادرين على صونها، وقد تكونت عقيدتهم بتأثيرات نسطورية «كلدانية» - فارسية. كما ساعدتهم الجبال الفقيرة البخيلة على المحافظة على استقلالية حقيقية، أمّا شيوخ الأنصارية فكانوا يدفعون الضرائب خلال فترة طويلة لباشا عكّار، ثم بدأت أخيراً منذ منتصف القرن الماضي ملاحقات ومذابح الجبليين الرافضين حكم العثمانيين. وتنقسم هذه الطائفة أيضاً إلى عدد من الفرق، نذكر منهم الحيدرية Haidaris، الشمالية Szamalis، القلعجية Kalazis، والغيبية Ghaibis.[2]

ويسكن الإسماعيليون أيضاً جبال الأنصارية، ويعتنقون عقيدة أقدم من عقائد الأنصارية، مصدرها فارسيّ، ويعيش رئيسهم الأكبر في مدينة «بومباي» حيث يقيم أكثر أتباعه أيضاً. وهم في سورية حوالى خمسة وعشرين ألفاً تقريباً.

وما زال اليزيديون[3] يعيشون في جبل سمعان إلى الشمال من حلب،

---

1. (الأنصارية والنصيرية) هي تسمية العلويين القديمة وهم مسلمون على المذهب الجعفري، إماميون اثنا عشريون كما يؤكد شيوخهم. (المترجم).
2. لم نعثر عن شيء يذكر فيما بين أيدينا من مراجع عن هذه الفرق. والحيدرية ليست من فرقهم كما يذهب أكثر المؤرخين، أما ما تذكره هذه الكتب فهي عشائرهم ومنها: الحدادين، والمطاورة، والخياطين والكلبية، والدراوزة، والمهالبة، والعمامرة... (المترجم).
3 - اليزيدية أو الايزدية: هي مزيج من ديانات قديمة كالصابئية والزاردشتية والعقائد=

"عبدة الشيطان" المؤمنون بعقيدة ثنوية عن العالم الذي يحكمه الخير والشرّ. وكانوا سابقاً كثرةً قللتها المجازر والحملات التي شنتها السلطات التركية عليهم، فهم الآن حوالى عشرة آلاف نسمة. ولا نعرف الكثير عن عقيدتهم، يؤمنون بالتقمص، ويقصون الحكايات الغريبة عن خلق العالم، وعن آدم الذي كان لديه ثديا امرأة يرضع منهما أبناءه.

أمّا اليهود هنا فقلةٌ، ويعيشون حصراً في المدن الكبيرة، وتدلّ الإحصاءات أن عددهم خمسة وثلاثون ألفاً. ويقول المثل القديم: إنّ الأرمني يخدع ثلاثة يهود، واليوناني ثلاثة أرمن، ولهذا فإنّ اليهود ليس لديهم ما يفعلونه في سورية، لاسيّما أن السوريين الأصلاء لهم المحل الأوّلُ في التنافس الجاري هنا، وأنشطة الوكالة الصهيونية المحصورة في الحدود السياسية للانتداب على فلسطين لا تستطيع التأثير على هذه العلاقات ، أمّا المزارعون اليهود فلا وجود لهم في سورية.

لكن هذا ليس كلّ شيء. فإلى جانب العوامل العقيدية تشارك في اللعبة عوامل أخرى: القبليّة، والتقليدية، والاجتماعية، واللغوية. فلدينا بين الكاثوليك السوريون الأصليون والفرنسيون والألمان والطليان، ولدينا بين البروتستانت إضافة إلى أهل المنطقة الانكليز والأمريكيون والألمان. والسكان المسلمون أيضاً مختلفون فغالبيتهم عرب سوريون، لكن يشكل الأتراك في الشمال في منطقة الاسكندرون غالبية

=الإسلامية والمسيحية، يعتقدون بإله واحد، تعدد الزوجات مباح لديهم وبدون حدأقصى، ويعتقدون بتناسخ الأرواح، وتعود هذه الديانة في أصولها إلى الزرادشتية التي انتشرت ما بين بلاد فارس إلى بلاد الشام، وهناك دراسات كثيرة قام بها رحالة أوروبيون ألقت الكثير من الضوء على اليزيدية. ويعدّ معبد لالش من أقدم وأقدس وأكبر المراكز الدينية لدى الايزديين ويعتبر حجهم الأساسي، ويقع شمال مدينة الموصل ويبعد عنها حوالي (58) كم. (المترجم)

سكان السنجق، وهم موزعون أيضاً في أغلب المدن السورية، ويسكن الأكراد في الشمال أيضاً وفي دمشق ويعملون في الرعي والنهب، وهناك الشراكسة[1] الذين هُجّروا من القوقاز بعد الحروب التركية - الروسية عام 1878م، وهم يعيشون حول دمشق وحمص وحلب ويعملون في الزراعة والسطو، وعلى ضفاف الفرات تعيش القبائل التركمانية على الطريقة البدوية وهم أكثر مسالمة وليناً من غيرهم، وفي بعض المدن الكبيرة إيرانيون يعتاشون من التجارة، وستجد الغجر المرتحلين دوماً في كلّ مكان يتعيّشون من أي شيء، أومن السرقة على الأغلب.

وبالإضافة إلى هذا كله لدينا اختلافات اجتماعية، طبقية ووراثية، فلدينا طبقة ملاك الأراضي الأغنياء، والباشاوات الأتراك والعرب، والفلاحون الفقراء، والجبليون اللبنانيون والأنصارية، والتجار الأغنياء، ومتوسطو الحال من سكان المدن، وعمال الأسواق والمطاحن، والرعاة الجبليون، ورعيان الصحراء الفقراء، وأنماط متنوعة إلى أبعد الحدود.

أمّا الصحراء التي هي في مخيلتنا مرادفة للبيئة المتماثلة إلى أقصى

---

1 ـ الشركس شعب قوقازي يعيش منذ فجر التاريخ في شمال غرب القوقاز، وهو مؤلف من ثلاث مجموعات (متفرعة من أصل واحد) متقاربة لغوياً و عرقياً وهي: الأبخاز (الأباظة)، والقبرطاي، والأديغة. في يوم 1864/5/21 أعلن الجنرال ميشيل كراتدوك الحاكم العسكري للقفقاس انهيار المقاومة المسلحة في القفقاس وانتهاء الحرب الروسية للقفقاس التي استمرت ما يزيد عن سبعين سنة. وتم إبعاد أكثر من 1,5 مليون شركسي أي ما يقارب 80٪ من سكان القفقاس في ذلك الوقت، ومعظم المهجّرين هلكوا نتيجة الجوع والبرد والمرض وتفرقوا في أصقاع العالم كله،وهم يعيشون اليوم متفرقين ومشتتين في أكثر من 40 دولة في العالم، أما في وطنهم الأم فلم يبق منهم سوى القليل. (المترجم)

حدّ، فهي أيضاً تقدم تنوعاً كبيراً، من حيث مظهرها الجغرافي وسكانها، والبدو فيها متنوعون بشدة.

ويمكن أن نميّز هنا بداية، أنماطاً أساسية من البدو وذلك بحسب درجة ترحالهم، فالمعروف أن البدو هم رعاة يبدّلون أماكن إقامتهم دوماً، لكنّ هذه العملية محكومة بالعوامل الاقتصادية: يبحثون في فترة الأمطار عن المراعي البعيدة، أما في فترات الجفاف فيقتربون من المناطق المأهولة. وتقطع بعض القبائل في ترحالها مئات الكيلومترات، وينصبون خيامهم المصنوعة من وبر الإبل بين صحراء شبه الجزيرة العربية وأطراف الصحراء السورية، وتترحّل قبائل أخرى ضمن مناطق محددة من الصحراء، وهي في النهاية قبائل مستقرة إلى حدّ ما. وكل قبيلة تدافع عن حقّها في منطقة محددة، ومن هنا تأتي الخلافات المستمرة والحروب التي لا تنتهي. إنّ فروسية الصحراء الرومانسية هي في حقيقتها غارات على المراعي أو دفاع عنها! وتدلنا خارطة الصحراء على مناطق مختلف القبائل واتجاهات رحلاتها، إذ يمكن هنا تحديد التغيّرات والتطورات التاريخية. فالصحراء أيضاً لها تاريخها، فكما يمكننا أن نكتب تاريخ الدول يمكننا كذلك أن نكتب تاريخ قبائل الرعاة.

وهذه هي أهمّ القبائل التي تعيش على مئات الكيلومترات في هذه الصحراء: «شمّر» التي تعدّ ثلاثة آلاف خيمة تعيش في بلاد الرافدين وجزئياً شرق أراضي الانتداب الفرنسي. «الحديدين» ثلاثة آلاف خيمة ويعيشون بين الخط الحديدي الحجازي شرق حمص وحماة إلى الفرات. «الموالي» وهم قبيلة مقاتلة ويعدّون ألفي خيمة بين العاصي وتدمر، «بنو خالد» حوالى ثمانمئة خيمة، «الفواعرة» وهم أغنياء بقطعان الماشية حوالى خمسمئة خيمة بين حمص وتدمر. ومن أكبر القبائل الأكثر شهرة قبيلة «عنزة» التي تتفرع إلى عدد من العشائر منها «الفدعان» وكان أميرهم وشيخهم قبل مئة سنة فاتسواف

جيفوسكي «فارس»[1] ميسكيفيتش، الملقب بتاج الفخر وعبد النيشان، وقبيلتا «الخرصة» و«الأسبعة» ويعدون معاً ثمانمئة خيمة ويعيشون في منطقة حلب، «الرولة» و«ولد علي» و«الحسنة» حوالى ستة آلاف خيمة في منطقة دمشق، وأخيراً «العمارات» الذين ارتحلوا قبل فترة قريبة من العراق، وضربوا خيامهم إلى الشرق من تدمر ويعدّون ثلاثة آلاف خيمة. وثمّة أيضاً مجموعات من القبائل الرحل الصغيرة تقيم دوماً في منطقة محددة، وتغير أماكن سكناها بحسب فصول السنة «تماماً كرعاة الجبال عندنا الذين يرعون ماشيتهم في الأعالي ربيعاً ثم يعودون إلى ديارهم خريفاً»، وهي تشكل دويلات صغيرة: البقارة، الجبور، النعيم، وتقدم المجموعات البدوية الساكنة على أطراف الصحراء تشكيلات أخرى إذ بدأت تبني أكواخاً، متحولة إلى الزراعة مثل :عرب الفضل، وكلّ هذه الجماعات تبقى فيما بينها في حالة حرب، أو تقوم بعقد الأحلاف مع غيرها؛ ففي فترة الاضطرابات في دمشق وثورة الدروز، قامت بعض القبائل بالتحالف مع حكومة الجمهورية الفرنسية، وبعضها الآخر أعلنت الحرب عليها.

هل ثمة عاملٌ شامل ما في كلّ هذا التنوع والاختلاف الديني والاجتماعي، وتنوع الناس، وألوان بشرتهم وملابسهم، ومذاهبهم، والتسميات والطموحات، يمكن أن يواجه عوامل الاختلاف، ويساعد على جمع هذه المتناقضات في وحدة واحدة يمكن أن تسمى مع مرور الوقت بالأمّة؟

نعم بالتأكيد: اللغةُ. فسوريةهي عربية لغوياً. تسمع هنا خليط لغات متعددة، المسيحيون السوريون ولاسيما أهل المدن، هم ثنائيو اللغة، يتحدثون العربية والفرنسية، وكثيراً ما تسمع هنا اللغة الانكليزية،

---

1. إشارة إلى قصيدة (Farys الفارس) للشاعر البولوني آدم ميسكيفيتش الذي استخدم هذا اللقب في وصف جيفوسكي. (المترجم).

أما سنجق الاسكندرون فهو تركي اللغة، وللأكراد لغتهم الخاصة، ولا تعدم هنا أيضا أوابد اللغات كما في بعض قرى جبل لبنان الذين ما زالوا يتحدثون اللغة الآرامية، التي كان سكان سوريةوفلسطين كلهم يتحدثون بها في عهد المسيح. وما عدا ذلك فإنّ سوريةعربية وستبقى كذلك دون أدنى شكٍ، ومع ارتفاع سوية التعليم سيكون للغة السوريين القومية تأثير متعاظم ولا سيما أن تأثير العامل الديني سيتضاءل بوضوحٍ مع الزمن، فالأدب العربي بالنسبة للمسيحيين السوريين هو أدبهم والثقافة العربية هي ثقافتهم على الرغم من أنّ قيمها مختلفة عن القيم التي تمنحها لهم المسيحية الغربية. وأذكرُ جيّداً كيف اهتزّ طرباً أحد الذين كانوا يجلسون بجانبي على مائدة دعوة غداء عند سماعه الألحان العربية التي رافقت غناء أشعار الحب المفعمة بحزن وحنين الصحارى، مع أنه كان رجل دين ماروني وقوراً ومتعلماً، وكان الأمر بالنسبة إليه: La plus sublimè poèsie "الشعر الأكثر سمواً". وهكذا تتكون عواطف عربية تتعلق بذكريات التراث وبلغة الحديث اليومي - أو أيضاً كما يريد البعض - بلغة الخصم الذي هو على الرغم من كل شيء أكثر قرباً من الصديق أو الحامي البعيد. وربما مع مرور الوقت سنتحدث عن عاطفة القومية العربية في سورية.

وهكذا تتضح قوة القومية العربية التي بدأت تتشكل وتأخذ سماتها الواضحة يوماً بعد يوم لتأخذ دورها في الصراع لامتلاك روح سوريةإلى جانب الكاثوليكية الفرنسية والبروتستانتية الأنكلو - أمريكية المستندة إلى حماية القوى العظمى والعوامل الدينية - الاقتصادية. ويمكن التذكير هنا أن الحركة القومية في أوروبا القرن التاسع عشر كانت متعلقة بدقة وقوة بإحياء اللغة والآداب القومية، والتعليم باللغة القومية. لننتظر إذن كي نرى هل سيسلك تطور الوقائع في المشرق الإسلامي الطريق نفسها، وهل ستستطيع كل هذه المجموعات الاجتماعية

المتعارضة في المعتقدات والعادات والتوجهات والمصالح أن تتحول مع الزمن لتكون وحدة قومية ترتفع فوق تناقضاتهم جميعاً، وذلك من خلال انتمائهم إلى لغتهم الواحدة «per il dolce suon della sua lingua».

إنّ الحرب الأوروبية قربتنا من كل هذه المشكلات، لكن لم تحلها. والصيغة الوحيدة التي أوجدتها حكمة أوروبا لمعالجة المسألة السورية«وكذلك المسألة الفلسطينية التي تشبهها من وجوه كثيرة» هي انتداب عصبة الأمم، والكلّ يفهم أنّ هذا أمرٌ مؤقّت. يطيل إذن من جديد أمد المؤقّت المستمرّ في سوريةمنذ أربعة آلاف عام مضت.

الحرب والانتداب

في أيّ بلدٍ نحن بالتحديد؟

البعض يقول في سوريا، وآخرون ممن هم على دراية بالأوضاع يصححون: نحن في دولة لبنان الكبير Grand liban [1]، لبنان الصغير[2] غير موجود. ترفرف على الأبنية في بيروت الأعلام الفرنسية، أو علم لبنان الكبير بألوانه الثلاثة وشجرة الأرز الخضراء. لكن يكفي أن يسافر المرء بالسيارة نحو الشمال أو الشرق ليكون في دول أخرى، كي يرى أعلاماً وأزياء مختلفةً لقوات الشرطة «الجندرمة»، وأهم من هذا وذاك، ثمّة أمر يحبه السياح ويفرَح له هواة جامعي الطُرف، ففي كل بلد هنا طوابع بريدية مختلفة. إنك يا أيها الزائر! إن أردت أن ترسل يميناً وشمالاً البطاقات التذكارية ستشتري طوابع في بيروت، ثمّ يتبين لك أنه لابدّ أن تلصق في دمشق طوابع أخرى، وفي قلعة الحصن أيضاً طوابع مختلفة، أما طوابع بعلبك فلست أدري حقاً؛ أسورية هي أم

---

1. بعد احتلال فرنسا المدن السوريةالداخلية أصدر غورو القرار رقم 318 بتحديد دولة لبنان الكبير التي ضمّت بيروت، حاصبيا، راشيا، بعلبك، طرابلس، صيدا، صور، وبمساحة عشرة آلاف كيلو متر مربع، وفي 23 مايو 1926 أعلن المفوض السامي الفرنسي، هنري دو جوفنيل، دستور لبنان الكبير. (المترجم)
2. يقصد متصرفية جبل لبنان التي تم انشاؤها بموجب اتفاق الحكومة العثمانية مع الدول الأربع الكبرى آنذاك (بريطانيا – فرنسا – روسيا – إيطاليا) بعد (حوادث الستين) في القرن التاسع عشر، وإصدارهم بياناً بعنوان (اتفاقية متصرفية جبل لبنان) ضمت منطقة بيروت وقسماً صغيراً من جبل لبنان، وأعطتها خصوصية، ووجهت الأمر إلى السلطنة العثمانية بأن تعين على هذه المتصرفية أحد رعاياها. (المترجم)

لبنانية؟ فإلى الشرق من دولة لبنان الكبير توجد إذن دولة سورية، وإلى زمن قريب كونفيدرالية الدول السوريا: دولة حلب[1]، ودولة دمشق[2]، وإلى الشمال على الساحل تقع état des Alaouites[3] "دولة العلويين" التي تقر بفضل وجودها مع رعاياها لنتائج الحرب العالمية، وإلى الشمال أكثر يوجد سنجق الاسكندرون[4] المستقل أيضاً، الذي يدار بالطريقة التركية، وإلى الجنوب في جبل حوران هناك دولة الدروز état du Djebal Druze[5] "دولة جبل الدروز".

من الذي يحكم هنا؟ حكام الدول، والمكاتب، وهيئات التمثيل، والمشرفون أو الضباط الفرنسيون، والحاكم الفعلي على مجموعة الدول كلها التي يضمها الاسم الجغرافي سورية، هو المندوب السامي للجمهورية الفرنسية الذي يحكم الكل من بيروت. إذن هل تتبع سوريةفرنسا؟ على الأقل هذه الدول لها حكم ذاتي، وليس لفرنسا حق امتلاك أو ضم الأراضي السورية، فهي ليست قطعة من فرنسا، وهي ليست أيضاً مستعمرة فرنسية، لفرنسا هنا سلطة عامة فقط ولفترة

1ـ فصل غورو حلب عن دمشق وجعلها حكومة مستقلة في 16 أيلول 1920. (المترجم)

2ـ في مطلع تشرين الثاني 1920 أصدر المفوض السامي قراراً بتحديد دولة دمشق التي ضمت أقضية دمشق(ما عدا الأقضية التي ضمت إلى دولة لبنان الكبير) وحمص وحماة و حوران باستثناء قضاء مصياف الذي ألحق بمقاطعة العلويين. (المترجم)

3ـ أصدر غورو القرار رقم 319 بفصل مقاطعة العلويين عن دمشق وإنشاء دائرة إدارية مستقلة فيها اعتباراً من أول أيلول 1920. (المترجم).

4ـ لم يكن تعبير (سنجق اسكندرون) موجوداً في فترة الحكم العثماني، بل كانت أقضية تتبع جميعها ولاية حلب، وقد أحدث غورو (سنجق اسكندرون) للمرة الأولى في تاريخ سوريةفي إطار تنظيم المنطقة الغربية. (المترجم)

5 جرت مفاوضات بين سليم الأطرش والجنرال الفرنسي كولييه في دمشق انتهت بتاريخ 14 آذار 1920 باتفاق لإنشاء حكومة وطنية مستقلة في جبل العرب. (المترجم)

محدودة، إلى الفترة التي تصل فيه هذه الدول التي لم تعرف الاستقلال من قبل إلى سن الرشد، أما السلطة التي منحت فرنسا حق الرعاية فهي "عصبة الأمم" التي تتسلم منها كل سنة تقارير حول تقدم نشاطات الرعاية. فالقاصر إذن ثري وشموس، وعلى الراعي المنتدب واجب تعليمه استخدام أساليب الصداقة وحقوق استخدام القوة.

هذا الوضع الفريد إلى حدود بعيدة، والمعقد جداً وغير المريح وذو الآفاق المستقبلية غير الواضحة، هو في الحقيقة ميراث الحرب، ومحاولة استخدام الأفكار الإدارية الليبرالية في منطقة كانت إلى هذا الوقت محكومة بالقوة والإرادة الفردية.

كانت سوريا قبل الحرب جزءاً أساسياً من الدولة التركية، التي أضحت كما هو معروف تحت إدارة فردية بحتة، ولاسيما في المناطق التي لم يسكنها الأتراك. والعديد من الحجاج الذين قصدوا القدس، كانت لهم غير مّرة إمكانية تجريب وقع استقلالية النظم الإدارية الشرقية على جلودهم بأنفسهم، إنّ أجزاء من البلاد كانت في الواقع محكومة نظريّاً فقط، فعلى سبيل المثال هؤلاء الدروز لم يكن ممكناً مطلقاً أن يتم إجبارهم على الطاعة، أمّا لبنان فكان لديه بقوة الاتفاقيات الدولية حكماً ذاتياً مؤكداً ومضموناً بوساطة الدول العظمى الأوروبية بهدف حماية المسيحيين. وكان المسيحيون اللبنانيون يتوجهون بعواطفهم نحو الغرب، وفي المقام الأوّل نحو فرنسا، الحامية التقليدية للمسيحيين في الدولة العثمانية، ولنتذكر هنا أن حملة نابليون الثالث العسكرية على سواحل لبنان والجبل قد تسببت في حرية كبيرة، كانت تلك أزمنة كان فيها القنصل العام الفرنسي في بيروت يتدخل لدى السلطات التركية لحل مشكلات المسيحيين السوريين، وكان أهمّ عاملٍ سياسي مؤثر. وازدهرت إلى حدٍّ كبير في

هذه المنطقة الواقعة في مجال تأثيرات الدول العظمى السياسية الأنشطة التبشيرية، الفرنسية، والايطالية، والألمانية، والانكليزية، والأمريكية، والروسية، ومعها نمت مصالح وتأثيرات تلك الدول. انفجرت الحرب، فتعرضت الأوضاع في سورية إلى تغييرات مفاجئة بسبب قطع تركيا علاقاتها مع أوروبا. فمع بداية أيلول سنة 1914 أعلنت تركيا إلغاء الامتيازات الأجنبية والمعاهدات مع الدول الأوربية، التي كان للأوروبيين بمفعولها حقوقاً تمييزية خاصة خارجة عن نطاق القوانين في الدولة، وكانوا يخضعون فقط لسلطاتهم القنصلية. هذا القرار الذي أكدت فيه الحكومة التركية سلطتها التامة المستقلة على كلّ أراضي الدولة، غير مقيدة بأيّة حقوق تمييزية، أثّر سلباً بتمامه على الساحل السوري. ووسع ميل السوريين المتعاظم نحو فرنسا في زمن الحرب بآمال النصر والتحرر من السلطات التركية تيارَ معاداة المسيحية غير المسوغ، ومعاداة الوطنية السورية؛ أضحى البلد كله الذي حرم من رعاية القناصل الأجنبية متروكاً لرحمة أو ظلم الإدارة التركية المدنية أو العسكرية. ومع نهاية تشرين الأوّل دخلت تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا والنمسا، وفي الوقت نفسه ألغي الحكم الذاتي في لبنان، وقدّم آخر حكّامه الأرمني البابوي أوهانوس بيك كوجومجيان استقالته، وتمّ تعيين المتصرف الجديد دون موافقة الدول العظمى الستة ببساطة لأنّ تركيا وجدت نفسها في حالة حرب مع أكثرها.

بدأت سنوات الانتقال الصعبة، وملاحقات وتصفية مؤيدي فرنسا والوطنيين السوريين، وتهجير الشخصيات المؤثرة « نقل البطريرك الماروني إلى الأناضول »، والمداهمات الأمنية، وبدأت فترة مجاعة طويلة، حيث قطع الحصار البحري حمولات السفن، وصَعبت

السلطات وصول إمدادات المواد الغذائية إلى داخل البلد. وغادر سكان جبل لبنان قراهم جماعاتٍ قاصدين المدن الساحلية وبيروت في المقام الأوّل، وبدأ مرض التيفوس يفتك بهم هنا. وطردت الإرساليات التي كانت تمدّ السكان بالمساعدات قبل الحرب، أو أضحت محدودة النشاط بفعل التدخلات؛ وقاد الأمريكيون عمليات المساعدة خلال فترة محدودة فقط، قبل دخول الولايات المتحدة الحرب ضدّ ألمانيا، مما تسبب أيضاً في دفعهم إلى خارج المنطقة.

دخل الألمان المؤسسات التي أخلاها الفرنسيون والانجليز وعملوا بعيداً عن العمليات الحربية منهجياً بشكل مخطط على السيطرة على سوريةاقتصادياً وثقافياً. فقد كان الألمان كثرة في سوريةحتى قبل الحرب، بسبب قيامهم بأعمال المراحل الأخيرة من إنشاء الخطّ الحديدي : برلين - بغداد، فعاش العديد منهم وبخاصة مهندسو السكك الحديدية والجسور «على الفرات» في حلب والاسكندرونة التي خطط لها أن تشكل ميناءً رئيسياً. وجاء من بعدهم آخرون، فبنيت المدارس والمشافي، واتسعت مساحات التأثير. ووفرّت الحرب ظروفاً رائعة، فتمّ استبعاد المنافسين كلهم بضربة واحدة، والحصول على دعمٍ غير محدود من السلطات؛ ويجب أن نذكر هنا أنّ الجبهة التركية الجنوبية كانت تحت قيادة ألمانية. وهكذا وضعت الخطط الكبيرة للسيطرة على سورية؛ وأريد من الخطّ الحديدي برلين - بغداد أن يكون طريق السيطرة، وخُطط لشمال سوريا الذي تذكّر طبيعته بميتلجريرج الألمانية أن يكون مستعمرة ألمانية، وافتتحت في حلب مدرسة زراعية تركية - ألمانية، وجامعة في بيروت بمدرسين ألمان، كما تحولت الاسكندرونة إلى ميناء وقاعدة للأسطول الحربي الألماني.

لكن لم يبق من كل أحلام العظمة سوى هذه المقابر الحربية ومجلدات الكتاب الضخم Der turkischen Deutsch Krunalschutzkommandos أما ما تبقى من ميراث الألمان فذهب للفرنسيين في حلب وللانكليز في بغداد.

خلال الفترة التي تنفّذ فيها الألمان براحةٍ تامة في سورية، وضع الحلفاء خططاً لتفتيت تركيا، وتمّ الاعتراف لروسيا بحقها في القسطنطينية، بشرط إعلانها ميناء حرّاً، واعترف بحق انكلترا وفرنسا في آسيا الصغرى، وطالبت روسيا فيما بعد بما وراء القوقاز: بأرمينيا وكردستان، كمناطق حماية عسكرية لحدودها، ووضعت انكلترا يدها على مابين النهرين التي خطط لها أن توصل بخط حديدي مع حيفا، وبذلك فُتحت الطريق باتجاه الشرق بعيداً، واعترف لفرنسا بحقها في سوريةوفلسطين كمنطقة حماية خالدة للمؤثرات الفرنسية. ورسمت الاتفاقية الفرنسية الانكليزية Sykes_ accord Picot "اتفاقية سايكس ـ بيكو" المسماة باسم الدبلوماسيين سايكس وبيكو بالتفصيل حدود سيطرة الفرنسيين والانكليز.

وبينما كانت الخطط توضع على المكاتب، كانت الدماء تسيل على كلّ الجبهات مقررة حظوظ قابلية تنفيذها، والجبهة السورية الفلسطينية أيضاً لم تكن خامدة، فجرّد الجيش التركي ـ الألماني حملة مع بداية 1915 هدفت إلى مهاجمة مصر واحتلال قناة السويس، مهدداً بهذه الطريقة عظمة انكلترا الدولية في أكثر المناطق حساسية، لكن كما الحملة الأولى لم تثمر المحاولة اللاحقة للاستيلاء على القناة شيئاً. ومع مرور الوقت بدأت الجيوش الانكليزية المسماة قوات الحملة المصرية Egyptian Expeditionary Force بإمرة الجنرال آللنبي مسيرة بطيئة لكن منهجية ومظفرة، وسقطت في

عام 1917 على التوالي بئر السبع وغزة ثمّ يافا، وفي الحادي عشر من كانون الأوّل دخل الانكليز مدينة القدس، وامتدت الجبهة إلى الشمال من يافا إلى أريحا، وكان قائد القوى التركية - الألمانية الجنرال فالكنهاين، وجاء من بعده ليمان فون ساندرس.

إنّ احتلال القدس كان نصراً انكليزياً دون أدنى شك، شارك الفرنسيون هنا بدرجة بسيطة جدّاً، كان الأسطول الفرنسي يسيطر طيلة الحرب على الساحل، ويحتل جزيرة أرواد الصغيرة مقابل طرابلس، ومن هنا أيضاً أديرت العمليات السياسية على لبنان أيضاً، ووجدت بالإضافة إلى ذلك وحدة صغيرة مؤلفة من فرقتين تحت أمرة آللنبي: فرقة الرماة الألبيين، وفرقة المشاة الراجلة، وتحملان اسم dètachement Francais de Palestine et de Syrie "المفرزة الفرنسية لفلسطين وسورية"، ومع بداية عام 1918 أضيف إليها Lègion d Orient "فيلق الشرق" الذي ضمّ فرق المتطوعين المارونيين، والأرمن، وغيرهم، الذين جندوا في قبرص وبورسعيد، وتعدّ قوتهم ما يقرب من سبعة آلاف بندقية لم تكن لها قيمة حربية كبيرة.

وكان لتدخل شريف مكة الحسين بن علي أثر كبير في العملية السياسية والوقائع اللاحقة، الذي أعلن عام 1916 نفسه ملكاً على الحجاز وشارك في عمليات الحلفاء، لم يكن جيش الشريف على الرغم من المساعدة الانكليزية والفرنسية ذا خطرٍ كبير، الجيش النظامي قدّر له أن يعدّ أربعة آلاف مقاتل منهم ستمئة جنرال وألفا ضابط، والبدو الذين صاحبوا الجيش لم تكن لهم قيمة عسكرية. وكان الأمير فيصل بن الحسين قائدَ هذا الجيش، وهو سياسيٌّ طموح وذو خبرة لكنه أداة في يد الانكليز، والهدف من العملية برمتها خلق حركة قومية عربية يمكن لها أن تقود إلى توحيد البلدان العربية والمستعربة تحت تاج الملك حسين وتحت وصاية انكلترا.

في النصف الثاني من عام 1918 تبدأ مرحلة حاسمة في الحرب، وأيضاً على الجبهة السورية. وفي منتصف حزيران اخترق الجنرال آللنبي الجبهة التركية ـ الألمانية على الرغم من محاولات الحفاظ على خط طبريا، ولاحقاً بعد دخوله إلى وادي البقاع كانت الهزيمة كاملة، وبعد مضي شهر لم يعد للأتراك وجود في سوريا. في الأوّل من تشرين الأوّل دخل الحلفاء إلى دمشق وفي 12 تشرين الثاني نزل البحارة الفرنسيون إلى مدينة طرابلس.

كان معروفاً أنّ هذا البلد لن يحكم بعد الآن من قبل الأتراك أو الألمان، ولكن أحداً لم يتوقع كيف ستجري الأمور بشكل قاطع، هل الانكليز أم الفرنسيون أم العرب من سيضع يده على سوريا، وهل ستكون سوريا بلداً مستقلاً؟ وتحت تأثيرات أية دولة؟ فلذلك بدأت محادثات تمهيدية دبلوماسية، ونشبت مواجهات صراع المصالح أو حقائق "الأمر الواقع".

إدارة المنطقة كلها التي انتزعت من تركيا أضحت بيد المنتصر، في أثناء تلك الفترة كانت General Head Quarter "القيادة العامة" للّورد آللنبي هي الحاكمة في سوريةوفلسطين خلال عام كامل، مما هيّأ لأخذ زمام الأمور على الطريقة الانكليزية، فتمّ تقسيم المنطقة كلها إلى ثلاث دوائر كبرى، وضعت تحت السيطرة الانكليزية والفرنسية والعربية «قوات الشريف»» وكلها كانت خاضعة بدورها للجنرال آللنبي الذي كان يمثل السلطة الأعلى «سلطة الحلفاء»؛ الدائرة الجنوبية وتضم سنجق القدس، نابلس، وعكّا تحت سلطة Sir A. Money السير آ. مونيه، والدائرة الشمالية مع لبنان وطرابلس والاسكندرون كلف بها اللواء de Pièpape دو بياباب، أما الشرق مع دمشق فأعطيت لحكومة ضابط من قوات الشريف هو الجنرال علي

رضا باشا[1]، وهكذا أضحى من الواضح أن المنطقة عدا جبل لبنان والمنطقة الانكليزية والفرنسية أي دمشق مع الصحراء السوريةستكون موضوع صراع، فمع كسب انكلترا حق العرب في سوريا الشرقية اتبعت سياسة واضحة ضدّ فرنسا، بتغطية خارجية فقط من خلال التصريحات حول الطبيعة المؤقتة للحكومة العسكرية وما إلى ذلك[2]، أما قوات الشريف فقد اغتنمت الفرصة وبدأ رجالها يتصرفون و كأنهم في بيوتهم، طامحين إلى ضم سورية إلى مملكة الحجاز، وكان لابن الشريف حسين الأمير فيصل دور هام في هذه الأحداث، إذ كان مناوراً فذّاً ودبلوماسيّاً مثّل والده في القيادة العامة لقوات الحلفاء، وضابطاً في قوات الحلفاء، ومستشار آللنبي، وبعد ذلك مبعوث الحجاز إلى مؤتمر السلام، وكان السوريون المسلمون بعواطفهم مع مشروعه القومي العربي، فضباط الثورة في قوات الشريف استطاعوا أن يوقظوا ببراعة الروح القومية العربية، وتحدثوا عن استقلال سوريا. أما الوضع الاقتصادي فقد كان مزدهراً، وظهرت بضائع كثيرة في الأسواق، وبدأ البدو الذين اغتنوا في الحرب يرتادون الأسواق من أجل البضائع، وقد ترك جنود الاحتلال العسكري الكثير من النقود في البلد، وكان إنفاقهم بالعملة

1ـ علي رضا الركابي: ولد في دمشق 1877، ودرس في المدرسة الحربية في الأستانة، انتسب إلى جمعية العربية الفتاة، والعهد السريتين، عين حاكماً لدمشق عام 1918ثمّ رئيساً للوزارة، التحق بإمارة شرق الأردن عام 1922، وتولى رئاسة الوزارة فيها مرتين ثم عاد إلى دمشق وتوفي فيها عام 1942. (المترجم).

2 ـ في 20 آذار 1919 بحث الأربعة الكبار (الولايات المتحدة الأمريكية، وبريطانيا وفرنسا، وايطاليا) موضوع سورية فأكد الوفد الفرنسي تمسكه بها كلها، بينما احتج الوفد الانكليزي بأنّ احتلال فرنسا لسوريا مخالف لنص اتفاق سايكس بيكو، وحاول البريطانيون إبراز أهمية الثورة العربية للحلفاء. (المترجم).

المصرية القوية، وأصبحت دمشق مركز الدائرة التي وضعت تحت نفوذ قوات الشريف، حيث مقرّ مجلس الدولة ودار القضاء، ورئاسة الوزراء، وقد سُعِد السوريون الطموحون بكل هذا النفوذ والمؤسسات، وبعد عودة الأمير من باريس، حيث أثار الكثير من الإعجاب في شوارعها، بدأ مباشرة بوتائر عالية جهوده كي تنال سوريا استقلالها الكامل كدولة عربية يكون هو حاكمها. وأعلن المؤتمر السوري[1] الذي تمّ انتخابه على عجل من أعضاء سُنّة فقط في نهاية حزيران 1919 أنّه هو الممثل الشرعي لسوريةكلها. واقترح أن تتحوّل سوريةإلى مملكة وراثية تحت الوصاية البريطانية، أو الأمريكية، كما أعلن رفضه اقتطاع فلسطين ولبنان. دعا اللورد آللنبي معترضاً إلى اجتماع عندما تأكد أن إرادة المنتدَبين قد ذهبت إلى حدود بعيدة، لكن بعد فترة قصيرة في أيلول 1919 رُفع الاحتلال العسكري وأصبح رجال الشريف حسين مستقلين فعلاً، وحكموا خلال عام كامل بإرادتهم المستقلة المناطق الشرقية في سوريا، قد تصرفوا بموارد كبيرة لتوحيد الآمال من أجل استقلال سوريا ضدّ فرنسة، أمّا فرنسا بدورها فقد خسرت بطريقة ما الكثير من هيبتها، كان الساحل كله بل لبنان كله ينتظر الجيوش الفرنسية كمخلصين، لكن عوضاً عن هؤلاء الأبطال المثاليين ظهرت الجيوش الانكليزية، وقوات الشريف، وقوّة فرنسية ضئيلة، بينها من جديد Legion d'Orient "فيلق الشرق" القديم الذي انقسم إلى فرقتين مستقلتين فيما بعد: فرقة سورية،

1 ـ عقد المؤتمر السوري جلسته الأولى يوم (7 حزيران 1919) في مقر النادي العربي بدمشق بحضور 67 عضواً وانتخب السيّد (هاشم الأناسي) مندوب حمص رئيساً له وكانت الغاية منه تمثيل البلاد أمام لجنة كينغ ـ كرين الأمريكية وعرض أماني الأمة، ثمّ سن الدستور الذي سيكون دليل عمل الأمّة في حاضرها ومستقبلها. (المترجم).

وأخرى أرمنية لم تلق سوى تعاطفاً وثقةً ضحلتين، فعلى سبيل المثال اللواء الأرمني المؤلف من محاربين وعناصر مشبوهة لم يستطع المكوث في بيروت، ونقل إلى الاسكندرون حيث شكلت منه حامية للحفاظ على الأمن؛ وهذه الحامية باسم حماية المظلومين هاجمت الحرملك كي تحرر الأرمنيات المسجونات هناك. وفي أمكنة أخرى انفجرت مشاجرات دامية بين المسيحيين من جنود لواء الشرق والمشاة الأفارقة المسلمين الذين كانوا يخدمون أيضاً في المدن السورية، وصعّب النقص في الجيوش الفرنسية العاملة في المدن حفظ النظام في البلد المهدد بإرهاب الفرق المتطوعة، كما ساهم عملاء فيصل السريون من طرفهم في إشاعة الفوضى.

في الثامن من آذار سنة 1920 أعلن المؤتمر السوري استقلال سوريةكاملة مع فلسطين مملكةً دستورية. وأعلن فيصل الأوّل ملكاً. لم تعترف السلطات الفرنسية والانكليزية بهذا الإعلان. وحذّرت من تدخل موظفي فيصل في مؤسسات احتلال فلسطين ولبنان. سكان لبنان الموالين للتوجه الفرنسي، والمسيحيون غير الميالين إلى الحكومة الإسلامية في دمشق، أعلنوا بعد فترة قصيرة احتجاجهم على اغتصاب فيصل للعرش. وفي بداية نيسان أعلن فيصل الدستور الملكي؛ المواد التي تحدثت عن الموانئ والأسطول دلت بوضوح أنّ طموحات الملك تصل إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط. وبحسب خطط السوريين القوميين كان للدولة أن تضمّ المناطق من جبال طوروس إلى سيناء بما في ذلك كل الساحل البحري وكامل الصحراء في الشرق.

لكن الواقع أن مصير سوريا كان قد تقرر نهائياً في حلبة السياسة الدولية؛ اكتسبت فرنسا حق "الانتداب" على سورية. وألغى المندوب السامي الفرنسي في سوريا الجنرال غورو المملكة السورية،

وفي الرابع و العشرين من نيسان بدأت الحملة الفرنسية وانتهت بعد يوم باحتلال دمشق. هرب الملك إلى الشرق كي يصبح بعد سنتين لاحقتين ملك العراق بحماية بريطانية. وانحل المؤتمر السوري.

الانتداب هو مفهوم، أو مصطلح جديد كلياً، تلخصه المادة الثانية والعشرون من نظام عصبة الأمم. إنه شيء يشبه التعويذة السرية التي يجب أن تُوجد الوئام بين الذئاب الجائعة والحملان الممزقة دون المساس بالمبادئ العامة لحق تقرير المصير وما إلى ذلك. وإذا استخدمنا لغة أكثر تحديداً: فيه إشباع المخططات الامبريالية للدول الكبرى المنتصرة دون مظاهر الضم، فهي تعطي فرنسا أو انكلترا هذه المناطق أو تلك التي تم اكتسابها من تركيا أو ألمانيا مع سلسلة كاملة من الاستثناءات المحددة عموماً ذات المضمون النظري. للدولة المنتدبة حق وواجب إدارة البلد الذي لا يصبح مع ذلك جزءاً من ممتلكاتها، ومقابل ذلك تتعهد بتقديم تقريرٍ سنوي للجنة الخاصة في عصبة الأمم عن أنشطتها الوصائية.

يتضمن نظام عصبة الأمم ثلاثة أنماط من الانتداب التي تختلف فيما بينها بمدى درجة استخدام السلطة الانتدابية. الانتداب «A» ويستخدم في مناطق الإمبراطورية العثمانية قديماً. فهذه المناطق يعترف بكونها مستقلة، ويجب أن تكون سلطة الانتداب فيها محدودة على تقديم المساعدات للسلطات المحلية، وذلك إلى حين وصول القاصر إلى سن الرشد، أي إلى النضج السياسي. الانتداب «B» ويتعلق بغالبية مستعمرات ألمانية الإفريقية والممتلكات الألمانية في المحيط الهادئ. الانتداب «C» ويضم المستعمرات الجنوبية الغربية في أفريقيا. لكن نحن هنا أمام مصطلح جديد في الواقع، لأنّ أياً من مدى السلطة أو فترة الانتداب ليسا محددين هنا. وهكذا فإنّ نمط الانتداب «A» المستخدم في سوريا وفلسطين ليس إلا شكلاً معيناً فقط من أشكال

الإدارة الكولينيالية غير المناسبة. وهذا ما يؤكده بالتوافق الموظفون الفرنسيون. فهذه الرعاية القانونية التي توقعتها عصبة الأمم أضحت في الممارسة العملية إدارة فعلية. فدور العوامل المحلية في فلسطين التي يحكمها الانكليز في أدنى مستوياتها تماماً. أما في سورية الفرنسية فإنّ استقلال الدول هي في الحقيقة مطلب متحقق جزئياً بصعوبة فقط، وليس لها فوائد تذكر. وعلى الرغم من العهود المقدسة للمعاهدة بأنّ هذه الدول مستقلة وأنّ انتداب الدول العظمى أمر مؤقت فإنّ أحداً لا يشك في أن فلسطين باقية في اليد الانكليزية، وكذلك إنّ فرنسيي سوريةلن ينسحبوا طوعاً عن الدولة المستقلة. فمن المعروف في النهاية أنّ رشد الأمم ما هي سوى فكرة صعبة التحديد جداً.

واجهت فرنسا عند فرض سلطتها الانتدابية في سوريةمشكلات صعبة، فانكلترا التي اكتسبت حق الانتداب والرعاية على فلسطين وشرق الأردن، أوجدت لنفسها مكاناً في بلد تم احتلاله بالقوة العسكرية، واتّبعت سياسة حكيمة متعاطفة مع العرب، وحصلت من جهة أخرى على دعم تام من العامل اليهودي المؤثر والدينامي الذي تم له ضمان إمكانية إقامته وطناً قومياً.

وبدأت دولة الانتداب بنيات حسنة، منتقلة بهدوء من الاحتلال العسكري إلى حكومات عسكرية مدنية. أما فرنسا التي استلمت إدارة مؤقتة سنة 1918 في قسم من الساحل، فكانت أمامها مهمة كبيرة: احتلال كل منطقة الانتداب عسكرياً، وإلغاء مملكة فيصل السورية، واستمالة الجماعات والكتل السياسية المتنوعة، وإرساء إدارة تأخذ بالحسبان الجماعات الانفصالية الكثيرة ذات الطموحات البعيد، ومكافحة التوجهات المبالغ بها لآمال السكان المحليين الموالين لفرنسا، الذين شعروا أنهم منتصرون في الحرب، وأرادوا الاستفادة من ثمرات هذا النصر.

يجب الاعتراف أن فرنسا قد أظهرت إخلاصاً كاملاً في تنفيذ الانتداب. فتم الاعتراف باستقلال المنطقة السورية، واحترام إرادة السكان في تقرير مصيرهم، وتمّ إحداث عدّة وحدات حكومية مستقلة، كي لا يتمّ إسكان الجماعات غير المتجانسة أو المتعادية في تنظيم واحد. كان موقف السكان من السلطات الفرنسية موقفاً غير مرحب، أو في أحسن الأحوال لا مبالياً. ومرت الأمور بشكل سهل جدّاً مع لبنان، الذي كان له منذ قرون توجهاً فرنسيّاً. لكن هنا أيضاً كان السكان قد اعتادوا على الأغلب على تدخل القنصل لدى السلطات التركية وليس على طاعة السلطات التي قاموا هم بانتخابها شكلياً. وفي الشرق كان الأمر أسوأ كثيراً بين السكان المسلمين. المؤمنون بالعقيدة الإسلامية نظروا بعدم ارتياح إلى مكاسب المسيحيين، وإلى توسيع لبنان الكبير، وواجه تشكل الوعي القومي العربي، الذي استيقظ إلى حدود كبيرة بجهود الأمير فيصل، تدخل الأوربيين بعدائية. وكبرّت الصعوبات الاقتصادية حالة اللايقين والاستياء؛ وسنوات فرنسا ما بعد الحرب الصعبة كان لها أيضاً أن تنعكس على سورية، التي كانت لديها دوماً حس مقارنة نفسها بفلسطين المجاورة التي ازدهرت بنجاح تحت الحكم الانكليزي. فالعملة المصرية التي كانت مستخدمة في سوريا منذ أزمنة الاحتلال والتي استبدل الفرنك المتضخم بها وما رافق ذلك من عقابيل تدهور النقد المعروفة هيّأت الأرضية الدائمة لكره الحكومات الفرنسية. إنّ حكام البلاد الجدد أتوا في الحقيقة بأفضل النوايا، راغبين بمنح سوريةأفضل الظروف وإعطاء السكان المحليين أوسع مشاركة في حياة الدولة، لكن السوريين الذين تربوا على أفكار اجتماعية مختلفة تماماً لم يعطوا هذه المكاسب الديمقراطية، والبرلمانية،

والاستقلالية أهمية كبيرة. العامل السياسي الوحيد في هذا البلد هم جماعات الوجهاء وشيوخ القبائل الذين كانت قوانين الانتخابات متعددة الصفات شيئاً غير مفهوم تماماً بالنسبة إليهم.

وبالنتيجة إذن أفضت الجهود التنظيمية للحكومات الكبيرة الانتدابية، أي جهود مندوبي الجهورية الساميين الجنرال غورو والجنرال وايغان رسمياً، إلى ترتيب العلاقات على النحو التالي:

الشواطئ الجنوبية، مع طرابلس وبيروت، وكل لبنان «الجبل» مع سهل البقاع الخصيب شغلتها دولة Grand Liban "لبنان الكبير". إنّ غلبة المسيحيين وميل اللبنانيين التقليدي نحو فرنسا سهّلا إقامة تلك الدولة التي هي الدعامة الرئيسية للحكومات الفرنسية في المشرق. ومع ذلك كانت حالات سوء التفاهم كثيرة هنا، لاسيما أن الآمال التي رُعيت خلال القرون كانت كبيرة وغير واقعية إلى حدّ كبير. أما الآن فيترتب دفع الضرائب، وهي كبيرة جداً مقابل ضرورة إزالة إهمال السنوات الطويلة والاستثمارات الكبيرة، ومن الضروري أيضاً التلاؤم مع أشكال الحياة الجديدة. والعائلات البطريركية التي احتفظت بالتقاليد الإقطاعية اللبنانية غير البعيدة، لم تستطع فهم النظام الجديد. ومن هنا الكراهية والخلافات والمواجهات الدائمة مع ممثلي الحكومة.

شكل الشاطئ كله إلى الشمال من لبنان الكبير حتى سنجق الاسكندرون مع سلسلة جبال الأنصارية الكبيرة دولة العلويين، التي كانت منطقة حكم ذاتي ضمن الفيدرالية السوريةالقصيرة الأجل. واليوم هي مستقلة، لها حاكم خاص بها وطوابع بريدية خاصة. أُعطي سكان الجبال الأنصاريون أو النصيريون الأوفياء لتقاليدهم القديمة وعباداتهم الخاصة المبغوضون بنظر المسلمين والمسيحيين اسم العلويين رسميّاً، وهم بدورهم سمّوا بهذا الاسم الدولة الجديدة التي هي نتاج

نمطي لسياسة الأمر الواقع؛ إذ لم يُرغب بتوسيع لبنان الكبير كي لا يقلل من غلبة المسيحيين، ولم يُرغب أيضا في ضمّ العلويين إلى سورية المسلمة. إذن تم إحداث شيء غير مهم، محايد، لا يستطيع الاستقلال بنفسه قطعاً، محكوم بالضباط أو الموظفين الفرنسيين. عاصمة دولة العلويين هي اللاذقية الساحلية، على الأغلب لاوديسيا القديمة «أو يليدوتشينيا في بولونية القرون الوسطى».

وإلى الشرق في المنطقة ذات الأغلبية المسلمة ـ دون شك ـ تبدلت الحدود والعلاقات الدولية بسهولة كبيرة. كان من الصعب توفيق الشمال مع الجنوب، حلب مع دمشق. وشُكلت دولتان مباشرة، دولة حلب ودولة دمشق اللتان دمجتا بعد ذلك في "فيدرالية الدول السورية" مع المنطقة العلوية. كل دولة من هذه الدول كان لها حاكم وحكومة. وفوق ذلك عين أيضاً مدراء فيدراليون إلى جانب المندوب السامي، ووزراء شكليون مشاركون، أما المجلس الاتحادي فضمّ الممثلين المنتخبين الذي كان يجتمع دورياً مرة في دمشق ومرة في حلب. ويمكن التخيل أن هذه الماكينة الإدارية بكاملها لم تقم بوظائفها بشكل نافذ جدّاً، لاسيما أن حلب العقدة المركزية لتجارة الساحل مع العراق وبلاد الرافدين نظرت باستياء إلى دمشق الأكثر محافظة، التي كانت في الواقع واحة كبيرة في الصحراء السورية. ومع مرور الوقت ألغيت الفيدرالية، واستقلت دولة العلويين، ووحدت المنطقة الشرقية مع الصحراء في وحدة متكاملة، سميت ببساطة سوريا؛ وعاصمة هذه الدولة هي دمشق.

والأمر المفهوم ببساطة أن بدو الصحراء يمكن أن ينضووا نظرياً فقط تحت نظام حكومي ما. فبالمقدار نفسه الذي تنضوي فيها الصحراء جغرافياً في سوريا، فإنّ سكانها البدو ينضوون مباشرة تحت إمرة المندوب السامي. ومهمة الحكومات الانتدابية هي طبعاً كفُّ الرعاة عن عاداتهم النهّابة، وتوجيههم نحو الأعمال الرعوية

والزراعية التي ينجحون فيها فقط في أوقات هدوء الصحراء. الموظفون الإداريون هنا هم شيوخ القبائل؛ السلطة الوحيدة التي يعرف البدو طاعتها: هؤلاء الشيوخ لديهم حالياً مجال نشاط متحرك ويتكاثرون كالفطر من وراء ظهر سلطات الانتداب. بيروقراطية غير واثقة، وإدارة منقوصة.

ليس هذا كل شيء، فلدينا أيضاً حوران، قمة جبلية بركانية، ترتفع حوالى ألفي متر فوق سطح البحر وواحة مسكونة بالمحاربين الدروز المستقلين. وقد شُكّلت هنا إمارة أيضاً مع مستشارية فرنسية، ثمّ الدولة المستقلة التي كانت من أولى نشاطاتها إعلان حرب دامية لا هوادة فيها ضدّ المحتل. وعن هذا الأمر سنتحدث لاحقاً.

وبالإضافة إلى هذه المصاعب الداخلية: توفيقات مستمرة للمواقف، ورسم لحدود الدول، والأزمات الحكومية كانت أيضاً أشياء أخرى داخلية. فحدود سوريا الشمالية كانت ما تزال مفتوحة، الاحتلال الفرنسي ضم مباشرة كيليكية « التي عدها جورج لويد حكيم ويلز معادلةً لسيليزيا عند صياغة اتهاماته ضد الامبريالية البولونية»[1] التي تم الانسحاب منها تدريجياً. معاهدة سيفر أعطت تركيا كيليكية الغربية مانحة فرنسا "انتداباً اقتصادياً" بقي في النهاية حبراً على ورق. أمّا الاتفاقية الفرنسية - التركية في أنقرة في نهاية 1921 فقد وسعت الحدود لمصلحة تركيا، تاركة لها كلّ كيليكية ومقداراً كبيراً من المناطق الشرقية في محيط أورفة. الأرمن الذين كانوا يسكنون بجماعات كبيرة في كيليكية، حاولوا إنشاء دولة أرمنية تحت الحماية الفرنسية، لكنهم هاجروا بعد ذلك لخوفهم المسوّغ من الانتقامات الدموية بمجموعات كبيرة إلى سوريا، مسببين من جديد

---

1. جورج لويد 1863-1944 سياسي انكليزي ورئيس حزب الأحرار، رئيس الوزراء 1916-1922 لعب دوراً سياسياً بارزاً في مؤتمر الصلح بفرساي. (المترجم)

تعقيد الأوضاع الداخلية. بقي فقط سنجق الاسكندرون مع كون غالبية سكانه أتراكاً تحت الانتداب الفرنسي وميناء مهماً يخدم حلب مباشرة وعبرَ حلب العراقَ وبلاد الرافدين. هذه المنطقة لم تضم إلى سوريا ولا إلى دولة العلويين، وشكلت منها وحدة مستقلة تحت اسم سنجق الاسكندرون ذاتي الحكم.

لا يجب الافتراض أن هذا النظام المعقد جداً هو نهائي! وعلى كل حال فإن أساتذة القانون الدولي سيكون لديهم عمل غير سهل لإدراج سورية في نظام مفاهيم الانتداب ومجموعات الدول المحددة به تقليدياً، لكن غير الدقيقة رسمياً.

عاصمة كل هذا المركب الغريب هي بيروت: مدينة تتألف من كل هذه العناصر المختلفة يمكن أن تكون بجرأة عاصمة الدولة الفسيفسائية. نتحدث هنا بلغة شعبية، لكن غير دقيقة: لسنا هنا أمام دولة سورية، لكن أمام مجموعة دول لم يتم توحيدها رسمياً. أما بيروت فهي عاصمة واحدةٍ منها، المسماة دولة لبنان الكبير. وهي فوق ذلك مقر المندوب السامي الذي هو في الحقيقة حاكم سوريا الأكبر، لكنه رسمياً يحمل لقباً متواضعاً طويلاً إلى حدّ ما:

Haut Commissaire de la République Française auprès Etats de Syrie, du Grand Liban, des Alaouites et du Djebel_ Druze.

"المفوض الأعلى للجمهورية الفرنسية لدى دول سوريا ولبنان الكبير والعلويين وجبل الدروز"

آه يا إلهي! لو أنّ المندوب السامي لجمهورية بولونيا في المدينة الحرة جداينسك كان لديه جزءٌ ولو بسيط من هذه السلطة.

الشواطئ الفينيقية

مهما يكن من شك، فالمؤكد أنّي تخيلت الشواطئ الفينيقية بشكل مختلف تماماً، هي جميلة كساحل، يتمّ الوصول إليها بطريق رائعة، تنحدر بشدة لتصل تقريباً إلى شاطئ البحر تماماً متجاوزة صفاً من الألسنة الصخرية الداخلة بحدة إلى البحر، ثم بعد ذلك تسير على شواطئ مستوية؛ البحر الأبيض المتوسط هو الأجمل بين البحار، وحائط جبل لبنان القريب المتدرج بمنحدراته السهلة، يشكل خلفية اللوحة الرائعة؛ وفي مقدمة المنظر المروج وبيارات البرتقال، وإلى الأعلى أشجار الزيتون والصنوبر، وبينها هنا وهناك البيوت المارونية بأحجارها الوردية ذات الأسقف المسطحة والنوافذ القوطية. هنا الشمس والخضرة، البحر والجبل، والنسيم العليل من البحر. الريفيرا.

لكن من الصعب أن نتفهم، أن الفينيقيين قد عاشوا في الريفيرا وأنه هنا على هذا الشاطئ اللازوردي كان بالإمكان أن يحدث شيء مهم حقيقةً. تعلمنا حول الفينيقيين في المدرسة وفي بعض سنوات الطفولة المبكرة؛ وحشوا في ذاكرتنا بعض الأسماء والحوادث من مصر، وأشور، وبابل، وأخيراً فينيقيا، في مخيلتنا كانت تلك أزمنة العمالقة البعيدة، غريبة وغير مفهومة. ثم بعدهم اليونانيون فقط بدوا لنا أناساً حقيقيين، يمكن أن نقيم معهم علاقة ما حقيقية وعاطفية. كان الفينيقيون في مخيلتي الطفوليّة شعباً غامضاً من العمالقة، كثيري التنقل، حكماء وأصحاب مشاريع، يتجمعون في الموانئ الكبيرة، ثم يتحركون لفتح البلدان البعيدة، عندما يضيق بهم المكان على شاطئهم المحلي.

في تلك الأزمنة تقريباً، عندما توجب علي أن أستظهر أسماء عدة ملوك فينيقيين، كنت في هامبورغ بشكل عابر في يوم ماطر عبوس، وأبرزت الحكايات المدرسية المسبوكة بقوة مقنعةٍ قاطعةٍ عن عظمة وثراء صور وصيدا أمام عينيّ منظر الميناء الهامبورغي الهائل، والتي زادت قوة السلطة التعليمية من ضخامته في مخيلتي عندما كنت تلميذاً. مرّ ربع قرن منذ ذلك الوقت؛ تجولت بين أطلال بيبلوس المقدسة، وتناولت الغداء في بيارة البرتقال لدى يوسف بيك في صيدا، وعبرتُ صور بسرعة، وعلى الرغم من شهرة اللون القرمزي، فإن ما بقي هي مدن الصيد المنسية، المسماة اليوم بجبيل، وصيدا وصور، ذات الموانئ الضحلة، وبضع العشرات من المنازل الفقيرة وأدوات تقليدية هزيلة. ومع ذلك دوماً، عندما تمرّ فينيقيا في خاطري فإنني أربط بها التصورات المدرسية الساذجة. وفي النهاية فإنّ التأمل الواعي يذكرني بالأشياء التي شوهدت مؤخراً وتحضني على نقل تصورات الماضي إلى وقائعها الحقيقية. نعم من الصعب التحكم في تصورات الطفولة داخل النفس، كم من الصعب أيضاً تصديق الأمر، أنّ الاسكندر العظيم قد حاصر شهوراً كاملة بوتسك Puck[1] متوسطيةً ما، دافع عنها صيادو أسماك ساميين.

حسناً، يجب تعلّم تلطيف مبالغات المرويات التاريخية بطريقة أوفنباخ وسنكون عندها تقريباً أقرب إلى الحقيقة.

نقطع في عدّة مراحل الساحل الفينيقي كله لنصل الحدود الشمالية قرب النهر الكبير المسمى قديماً Eleuteros اليتيروس، الواصل جنوباً إلى الكرمل. فينيقيا كلها، هي في الحقيقة حزام

1- بوتسك مدينة ساحلية بولونية صغيرة في محافظة جداينسك. يريد المؤلف أن يقول مدينة ساحلية متوسطية بحجم مدينة بوتسك (المترجم).

الشاطئ الضيّق والطويل هذا؛ وخلفه تماماً لبنان المرتفع والصعب المرتقى، المنتصب حائطاً بموازاة الشاطئ على مساحة مئة كيلومتراً. عرض ذلك الساحل ليس كبيراً، لا يتجاوز خمسين كيلومتراً، وكثيراً ما يضيق إلى بضعة عشر كيلومتراً، وهنا وهناك أحزمة جبلية تصل البحر بمنحدراتها الصخرية الحادة، مشكلة عقباتٍ أمام المواصلات البرية، وملاجئ مناسبة للموانئ الصغيرة. حزام الشاطئ الضيق هذا، لا يمكن أن يطعم قدراً كبيراً من السكان؛ ثمّة في الشمال فقط أراضٍ زراعية أكثر. فالأمر المفهوم أنّ سكان مثل هذا البلد كان عليهم أن يتوجهوا نحو البحر ويصبحوا وسطاء تجاريين بين البلدان، التي توجد بعيداً خلف البحار، وتلك التي يتمّ الوصول إليها بصعوبة عبر السلاسل الجبلية والصحارى. إنّ تجاوز جبل لبنان ليس أمراً سهلاً حتى في أيامنا هذه، مع وجود الخطّ الحديدي وطرق السيارات التي تصل إلى الممرات التي تشكل ما يشبه البوابة إلى وادي البقاع الخصيب ودمشق، والأكثر انخفاضاً من بينها تصل بارتفاعها إلى ما يقرب 1600م فوق سطح البحر. كان لبنان كله قديماً مملوءاً بأشجار الأرز السامقة، التي لم يبق منها اليوم سوى مزق متحفيّة، محاطة بعناية فائقة، وتشكل هدفاً للرحلات السياحيّة. أما ما وراء ذلك فيبدو أنه لم يتغير كثيراً من آلاف السنين، ربما كان النخيل أكثر، وفي المحصلة كان الأمر كما هو اليوم، أشجار دلب، وتين، وزيتون، وكرمة. المصريون الذين حكموا سوريا خلال قرون طويلة، فتنوا بالبلد المختلف جداً عن وادي النيل الداكن الزرقة ـ الأخضر الرتيب الممل. وسحروا بالبساتين الممتلئة بالثمار، والنبيذ الذي يسيل كالماء من المعاصر. والحبوب التي توافرت أكثر من الرمال قرب البحر. لم تتوافر فقط بيارات البرتقال آنذاك، التي هي اليوم السمة

الأكثر تمييزاً للبيئة الساحلية. عالم الحيوان بدا مختلفاً قليلاً أيضاً، كانت النمور ما تزال هنا، وفي الأنهار كانت التماسيح الصغيرة رعبَ السكان؛ وفي الغابات دببة كثيرة، وذئابٌ وضباع، هي نادرة اليوم، في حين أن الخيول والحمير لم تكن معروفة.

لو أنّ المدن الفينيقية قامت فقط بدور الوساطة التجارية بين الغرب والشرق، بين منخفض البحر الأبيض المتوسط الثري وبلدان عمق آسيا الأسطورية، لكانت بالتأكيد الريفيرا المباركة لمالكي السفن والمضارين الأغنياء المعرضة في أحيان قليلة فقط إلى غزو الجار الطامع. مكّن موقع الساحل الجغرافي التجارة في مستويات عالية، وأرسى أساس عظمة الفينيقيين البحرية، لكنّ الموقع نفسه من جهة ثانية حتمّ مصير البلد البائس. قطعة الشاطئ البحري تلك كانت دوماً، ولم تزل إلى حدٍّ كبير أيضاً إلى اليوم، الطريق الأسهل التي تربط آسيا الصغرى بفلسطين ومصر، وكانت هذه الطريق الساحلية الوحيدة مدّة طويلة، لأنه مباشرة إلى الشرق وقفت المنحدرات الجبلية العملاقة عائقاً، ومن بعدها الصحراء الواسعة الخطرة، الممتدة حتّى الفرات. فكلّ من أراد العبور من الشمال إلى الجنوب أو أيضاً من فلسطين يريد الوصول إلى جبال طوروس توجّب عليه أن يشقّ طريقاً قرب البحر. ومن انتزع هذه الطريق امتلك أيضاً فينيقيا كلها. وهذه الطريق في النهاية لم تكن ممهدة جداً، بالتأكيد نسافر اليوم على طريق للسيارات مريحة، لكن من الواضح جداً أنه كان يجب التغلب على صعوبات جمّة، لاسيّما في الأماكن الصخرية الكثيرة، حيث الألسنة الجبلية الداخلة عميقاً في البحر مشكّلة عائقاً أمام الطريق. والمنعطفات المفاجئة الخطرة على المنحدرات هي شواهد على تلك الصعوبات، وحطام السيارات المتناثرة هنا وهناك في المهاوي تحت

المنعطفات، التي تبدو من الأعلى كألعاب الأطفال، هي علامات تحذير للسائقين. الطرقات القديمة سلكت الأعالي، متجاوزة الجروف الصخرية العنيفة للشاطئ، والتي ما نزال نراها بوضوح على سبيل المثال في رأس الكلب، مغلقة الطريق فوق بيروت بجرف صخريّ ضخم وبنهر كبير إلى حدّ ما هو نهر الكلب. تماماً قرب الشاطئ البحري تُرى طريق حديثة إلى طرابلس، قرب النهر الذي يجري بحيوية في وادٍ صخري، بين النباتات المدارية الغزيرة يقوم مقهىً ما، وعدة بيوت، مزارع صغيرة متراكبة، هذا واحد من مناطق النزهة لسكان بيروت. نترجل ونتسلق منحدراً شاهقاً إلى الأعلى خلال مصاطب معشبة بين الصخور، وبعد لحظات نصل إلى ألواح حجرية شكّلت قديماً درجاً إلى الطريق القديمة، وإلى الأعلى قليلاً أيضاً نشاهد لوحات منقوشة على الجدران العمودية، ممجدة مسيرة الجيوش المظفرة، لدينا كتابات هيروغليفية، ولدينا أيضا كتابات مسمارية أكثر، وفي النهاية في الأدنى قليلاً كتابات يونانية ولاتينية. فهذه لوحة مستطيلة، عليها رمسيس الثاني والآلهة أمنون؛ وبعدها قليلاً آشوري ما بلحية رائعة مجعدة، وعمامة فارسية فخمة، يعلن شهرته بعلامات الكتابة المسمارية، أكبر الظن لغزوه مصر، وبعد ذلك شخصيات أخرى وكتابات أخرى، ممحوة إلى حدّ ما، قد نبتت عليها الأعشاب. ماض مجيد؛ آلاف السنوات.

لا نفهم هذا الماضي، نحن غرباء عنه، ومع ذلك نحن أمام سحره الآسر ودلالات هذه الكتابات الهيروغليفية والمسمارية التي هي أكثر حيوية من تميقات الكتب المدرسية، بل أيضا من الترتيب الجنائزي للمجموعات المتحفية، حتى وإن كانت مشروحة بروعة. ليكافئنا الرب على الشروح! ففي النهاية يكفيني الكتيب الإرشادي عند الحاجة.

ننحدر نحو الأسفل، نحو السيارة، المنتظرة بصبر على قارعة الطريق الحديثة. نرى هنا أيضاً لوحةً، ذات طبيعة مشابهة لتلك، إلاّ أنها متأخرة عنها ثلاثة آلاف سنة، فمن جديد قائد ما منتصر سيطر على الممر، يعلن مجده للمارين. فهذه لوحةٌ فرنسية تعلن مجداً سهلاً للحوادث غير البعيدة، التي تم نسيانها تماماً:

1860 – 1861. Napoléon III
Empereur des Frasais
Armée française
General de Beaufort de Hautpoul
Commandant
en chef

" نابليون الثالث 1861.1860

إمبراطور الفرنسيين

الجيش الفرنسي

الجنرال بوفور دو هوتبول

القائد العام"

وعدة أسماء أخرى، وبعدها سلسلة من الأفواج:

5e de ligne

"الكتيبة الخامسة"

....

13 de ligne

"الكتيبة الثالثة عشر"

هذا هو النصب التذكاري لذكرى التدخل الفرنسي لمصلحة المارونيين وليس بعيداً عنه ثمّة لوحة بكتابة انكليزية، نصبت قبل عدّة أعوام، هذا اللورد آللنبي، القائد الانكليزي الأعلى British Expeditionary Fors "لقوات الانتشار البريطانية" فيما وراء البحار

"الفارس الصليبي الأخير"، يضع اسمه ويحيطه بالأرقام الرومانية لوحدات جيشه.

الكتابات المتنوعة كثيرة هنا، إلاّ أنه لا وجود للفينيقية، وعلى الرغم من ذلك فمن المعلومات القليلة التي خرجنا بها من المدرسة، عرفنا أنّ الفينيقيين هم أوّل من اخترع الأبجدية. لكن هذا هو المصير المعتاد للبلدان التي تقع في مهب الرياح، فإنّ أهلها ينزاحون إلى الخلفية الأبعد، والفائزون المنتصرون يعلنون نصرهم عالياً.

تعود علاقات فينيقيا بمصر إلى أزمنة بعيدة جدّاً، الطريق التجارية والعسكرية على طول الشاطئ ربطت بقوة بين هذين البلدين. كثيراً ما يجري الحديث عن التأثيرات الآسيوية في ثقافة مصر القديمة؛ وعبرت خلال فينيقيا أيضاً الأقوام الآسيوية، وفي عدادهم الحثيون، لغزو مصر. وعندما انقلبت حظوظ التاريخ، احتلت الجيوش المصرية الشواطئ الفينيقية في أثناء مطاردتها الآسيويين المنسحبين. وخلال ما يقارب الألف الثانية قبل المسيح كانت فينيقيا مُلكاً لمصر. كشفت الحفريات الأثرية في تل العمارنة قرب النيل الأعلى عن أرشيف مسماري هناك يعود إلى المئة الرابعة عشرة، يتعلق بالقضايا الفينيقية، مكتوب باللغة البابلية، التي كانت اللغة الدبلوماسية للشرق آنذاك، وعلى هذا الأساس تحققت إمكانية التصديق إلى حدّ ما بالاقتصاد المصري على الأراضي الفينيقية. تم الاحتفاظ هنا بالاستقلال المحلي؛ فكل مدينة فينيقية، بملكها أو أميرها في المقدمة، لم تكن مستقلة بأمرها، بل مرتبطة بالحكام المصريين المقيمين، الذين كانت وظيفتهم حلّ الخلافات الداخلية، كي يحافظوا على الطاعة في البلد كله. بعدها في حدود الأعوام 1000- 500 ق.م لدينا فترة استقلال: تخلصت المدن من الرعاية المصرية وشكلّت سلسلة من الجمهوريات

المستقلة، كل واحدة منها اتّبعت بنفسها تجارتها وسياستها الخاصة. في هذه الفترة الزمنية تتقدم إلى الواجهة مدينة صور. وتنتهي هذه الفترة بالغزو الآشوري، دولة عظيمة كانت تبحث عن معبر إلى البحر، فوجدته في السيطرة على الموانئ الفينيقية الثرية. وأتى البابليون خلف الآشوريين، وبعدهم الفرس، تبرز صيدا إلى الواجهة آنذاك. ثمّ تلت مسيرة الاسكندر الكبير المظفرة، الذي استسلمت له المدن الفينيقية ماعدا صور، التي تم احتلالها متأخرة بعد حصارها عدّة أشهر وردم مينائها. ثمّ يبدأ الصراع بين السلوقيين والبطالمة على ميراث الاسكندر، والفوضى، والحروب الأهلية، وحكومات المستبدين القصيرة، وغزوات الرعاة نتيجة ذلك. وفي عام 64 يحتل بومبيوس الشواطئ الفينيقية، ويضمها إلى المناطق السورية، وتتأكد هنا تأثيرات ثقافية هلينستية ورومانية ذات أهمية، مشكلة تنويعات ثريّة من اتصالها بالعناصر الآسيوية. في الأزمنة الأولى للمسيحية تشكل الشواطئ الفينيقية مركزاً ضخماً للتبادل الفكري، وتحتدم هنا نقاشات فلسفية ودينية، وتبرز مجموعة رائعة من الأسماء. وكانت صور آنذاك مركزاً ثقافياً وفنيّاً رئيساً.

يا لعبث الأقدار! صور اليوم عشّ صيادين فقير، ميناء ضائع بين الصخور يبرز من مياه ضحلة.

كانت صور آنذاك أيضاً مركزاً للتوسع الفينيقي على طول كامل شاطئ البحر الأبيض المتوسط. فالفينيقيون استعمروا قبرص، وصقليه، وليتسيا، ورودوس، وكريت. وهناك حيث لم يستطيعوا السيطرة بقوة، أسسوا مكاتب تجارية، كما في مصر. وصلوا إلى صقلية، وسردينية، بل حتى إلى اسبانيا، واستتبعوا مرسيليا وقرطاج.

لم ينتج مجتمع التجار المغامرين ثقافة خاصة مستقلة. جال التجار

الفينيقيون في بلادٍ كثيرة، وشقت جيوش غربية كثيرة طريقها بالقوة عبر بلادهم. لهذا كان لابدّ على ثقافة مواطني العالم القديم هؤلاء أن تكون غير متجانسة، ونابعة من مصادر متنوعة، وطبقاً لتنفجية مُحدثِي النعمة كانت فاخرة ومؤثرة، لكنها مزوقة ظاهرياً، وليست صادرة بالفعل عن شخصية محددة، وأسلوب تفكير محلّي. نشاهد آثار الفنون الفينيقية في المتاحف، ولدينا اليوم مجموعة جميلة إلى حدٍّ ما في المتحف الحديث في بيروت. ونشاهد في اللوفر كثيراً منها. لكنّ كل ذلك يبدو معروفاً لدينا من مكان ما؛ فهنا موضوعات مصرية، وأيضا إغريقية، وإغريقية- رومانية، الموضوعات المستقلة لها علاقة فقط بالأوليمب الفينيقي الآسيوي. تتمدد في صالات اللوفر الضخمة، التي تضمُّ التاريخ الآسيوي القديم، جنباً إلى جنب المومياءات الفينيقية- المصرية، ونواويس الإنسان الشبيه بالقرد المنحوتة بالأساليب المصرية، ومدافن بالأساليب الإغريقية، ثمّ من جديد يتنصب هنا أسدٌ ما مدافنيٌّ ضخم، ربما يكون حثيّاً؟ وفي متحف التاريخ الآسيوي القديم في استانبول، حيث تحفظ كل اللقى الأثرية السوريةالجديدة، يقبع واحد من أجمل النواويس الإغريقية، مرمر وردي، مغطىً بنقوش ذات جمال كلاسي، يسمى شعبياً بناووس الإسكندر. لكنه حقاً قبرٌ فينيقي.

لم يبقَ من عظمة المدن الفينيقية التجارية القديمة شيء. نسافر على طول الشاطئ، ننظر إلى البحر، وإلى شريط الحقول الضيق، وإلى منحدرات لبنان الضخمة، المدرّجة بجهد كبير في أجزائها الدنيا لجعل زراعتها ممكنة- والحقُّ أنّه من الصعب التصديق أنّ هذه هي فينيقيا! هنا في مكان ما تقريباً كان على يونس، الذي تحرر من سجنه في بطن الحوت أن يقفز إلى الشاطئ. ويشير الأدلاء اللطفاء بدقة إلى

المكـان، حيـث وقـع ذلـك الحـدث السعيد. مـن السهل حقّـاً الإيمـان بمغامرة يونس «غادر الحوت سابحاً، ومات يونس» أكثر من حقيقة وجود أكثر من عشرين مدينة ثرية هنا، تقوم بتجارة عالمية مُستعمِرة بلداناً بعيدة، مملوءة بالمعابد والقصور، التي يتجمع فيها الفنانون من أنحاء العالم، والفلاسفة الذين يتمشون في ظلال الموانئ الصغيرة، ويجرون المناقشات حول فناء هذا العالم وخلود القيم المثالية. لا شيء نهائياً يذكّر ظاهرياً بالماضي البعيد، في المدن الصغيرة التي حملت في الماضي أسماء عظيمة، يظهر سورٌ دفاعي ما قديم، أو خرائب كنيسة صليبية، لكن لا أثر أبداً للأزمنة الأبعد. فقط مدافن مخبوءة عميقاً في الأرض تحرس الأسرار من آلاف السنوات. لابدّ إذن من التنقيب.

ندين للحفريات عن كلّ ما نعرفه تقريباً عن فينيقيا. فمنذ سبعين عاماً بدأت الحفريات في سوريا، أرضٌ ممتنة للآثاريين! اكتشِف قبرُ أحد ملوك صيدا القديمة في منتصف القرن الماضي عن طريق الصدفة قرب صيدا، وهو موجود اليوم في اللوفر، ثم بعد فترة قصيرة مع التدخل العسكري الفرنسي في السواحل السوريةعام 1860 بدأت "البعثة الفينيقية" Mission de Phenice المشهورة أعمالها بإدارة أرنست رينان، الذي قام بعد حصوله على منحة مالية كبيرة ومساعدة السلطات العسكرية بأبحاث منهجية في أربعة محطات « مناطق طرطوس، بيبلوس، صيدا، صور». كان للبعثة قبل أي شيء آخر هدفٌ متحفي؛ حاولوا اكتشاف أكثر عدد ممكن من اللقى، لذلك تمّت الحفريات بتعجل، مهملين «الستراتيجرافيا» "طبقات الأرض"، وعلى الأغلب لم تُعط الفخاريات انتباهاً كبيراً. وفي الوقت نفسه تم جمع الآثار الموجودة على السطح والمحفوظة غالباً في الحدائق، ولاسيما الكتابات الحجرية. تحتل اليوم لُقى البعثة الفينيقية عدّة

صالات في اللوفر؛ مدافنيات فقط على الأغلب. في عام 1887 عثر قرب صيدا على بئر مدافنية ضخمة، ضمت في جوفها سبعة عشر ناووساً، وبينها قبر الملك المصري طابنيت "والد إشمونصّر"، وذلك الناووس الإغريقي الرائع المسمى اصطلاحاً ناووس الإسكندر. وتلك الآثار موجودة اليوم في استانبول في متحف تاريخ الشرق القديم، لأنّ الحكومة التركية انتبهت آنذاك إلى أهمية التنقيبات الأثرية وبدأت بجمع مجموعاتها الخاصة بإدارة حمدي بك النشيط. واستمرت التنقيبات لاحقاً مع اكتشاف أشياء جديدة دوماً. التنقيبات التي توقفت في زمن الحرب، فُعّلت من جديد وعلى سوية أكبر كثيراً تحت رعاية الجيش الفرنسي والإدارة العامة، ومدراء إدارة التاريخ القديم، سريعاً Chamonart شامونار، وبعده Virolleaud فيرولو أجريا سلسلة من التنقيبات وجمعا المواد في المتحف الفينيقي المنشأ حديثاً في بيروت، وContenau كونتنو عاد إلى صيدا حيث بدأ الحفر قبل الحرب، وMontet مونتيه ينقب في بيبلوس.

هذه الأبحاث ليست شائقة، فكي تقوم بالأعمال المرهقة تحت الشمس الحارقة، خلال شهور عديدة وسنوات، لا بدّ لك من امتلاك الحماس، وطموح العثور على شيء ما، يكون في المحصلة ذا علاقة حميمة بالعالم المعاد تشكيله من المدافن. نتخيل عادة مثل ذلك العالم الأثري الذي يعمل في العراء كمكتشف كنوز سعيد، فعصا الحاوي السحرية تكتشف مرة بعد أخرى ثروات جديدة. في الحقيقة مثل هذا العالم الذي يعمل بمعونة عشرات العمال على سبيل المثال في بيبلوس، يذكرنا بغرابة بالمهندس الذي يدير أعمال حفريات نقل الغاز، أو مياه الصرف الصحي؛ حفريات بأعماق مختلفة، توسّع الاتجاهات المختلفة لحقل التنقيبات، وسكك حديدية للنقل، وعمل الحفّار المرهق قليل

الأجر، الذي يبعثر التربة السوداء الجافة بفوضى. تقع بيبلوس على منحدر الشاطئ البحري الحاد، هنا في الماضي كانت الأمكنة الفينيقية الرائعة، اليوم لا نرى سوى خرائب القلعة القوطية الصليبية المهملة، المحاطة بخضرة الغابات، تمت مباشرة تلك الحفريات الفينيقية في المنطقة الواقعة بين القلعة والجرف المنحدر نحو البحر. إنّ المرء الذي يتمشى فوق هذه الحجارة المبعثرة، ويهبط في الأخاديد، ويدور حول الصخور الضخمة، لابدّ أن يمتلك مظهراً غبياً! هذه هي بيبلوس الرائعة، أرض المعجزات السرية، وهذه هي الينابيع التاريخية: الستراتيجرافيا« طبقات الأرض» التي تم إظهارها بالتنقيبات ! هذا الذي كان هنا قبل قرون انقضى هكذا دون عودة، بل إنّ مقابر ذلك الماضي لا توقظ اليوم أية ذكريات؛ وفي مكان شاعر المقابر العاطفي حلَّ الآثاري ـ المهندس، وطبقاً لقواعد الفن ينقب هذه المساكن الجنائزية المنسية، كي يستطيع أن يعيد تشكيل المساقط الأفقية للأبنية التي ارتفعت في زمن ما على شاطئ البحر. البحر وحده فقط بأعماقه ذات الزرقة الداكنة المنبسط أمام أقدام الشاطئ الصخري المنحدر هو الذي بقي من فينيقيا القديمة.

إلى هذا البحر نظر رينان، عندما نسج بأفكاره مشاريع الأعمال الضخمة، وأبدع في مخيلته رؤى الماضي الرائعة. أمر غريب ـ ربما تبدو هرطقة بالنسبة المؤرخين أنّ شخصية رينان هي بالنسبة إلينا هنا على الشاطئ الفينيقي القديم أكثر قرباً وعظمة من الملك طابنيت وابنه إشمونصّر! هنا في غزير المدينة القريبة والهادئة ذات الموقع الجميل، قضى رينان أسعد لحظات حياته؛ وفي إعجابه المبدع أنتج هنا عمله "حياة يسوع" Vie de Jésus المشهور، الذي كان رؤية فنية، ضمت قطع الحفريات ومقاطع التراث في لوحة ضخمة. من الصعب أن نجد في

كل إبداعات البليغ الرائع، الغنية بالفقرات الغنائية السامية صفحات أجمل من تلك التي خصت ذكريات إقامته في غزير. أرنست رينان والأخت هنريكا رفيقته الوفية وراعيته خلال سنين طويلة، أمضيا أياماً طويلة في غزير، يتجولان في الأمسيات على شاطئ البحر، مستسلمين لروعة هدير الأمواج، وألق النجوم، والأفكار، في مثل تلك الليالي المضيئة، العابرة في رؤى العوالم الأخرى، تخلقت صياغات متجددة عظيمة للماضي، وحدّت افتتان ذينك الأخين، وهما يعيشان أجمل أيام حياتهما. ربيب البلدة البريتونية، طالب معهد اللاهوت الثائر من Saint Sulpice سان سولبيس الباريسي، الذي احتفظ مع ذلك بتوجه ديني، عاش هنا، على هذه الأرض العجيبة لحظات التعمق العظيمة في معجزات التاريخ القديم. Henriette هنرييت التي كانت تكبره بضع عشرة سنة، مربيةُ الأطفال لدى عائلة زامويسكي من مدينة كليمانصوف قرب لوبلين[1] البعيدة، التي توهجت حياتها الحزينة والمتوحدة بحب الأخ، فعاشت سعادة غامرة متعاونة مع الأخ المحبوب، مشاركة في انتصاراته وأفراحه، متنفسة سحر الليالي الجنوبية. كان هذا أيضاً انتصارها، إذا تحت تأثيرها هي تماماً تخلّى أرنست الفتى عن ثياب الرهبنة واتجه نحو دراسات تاريخ الشرق القديم. فالسعادة إذن ملأت قلب المدرِّسة ذات الخمسين عاماً، التي عاشت أفضل سنواتها في بيت غريب في غابات الصنوبر الحزينة في بولونيا الباردة.

" كان ذلك عامها الوحيد دون دموع وسعادتها الوحيدة في عمرها كله" كتب رينان في مذكراته التي خص بها ذكرى Ma soeur Henriette "الأخت هنرييت":

---

1 ـ كليمانصوف ولوبلين مدينتان بولونيتان. (المترجم).

" لم تتركني لحظة، في أكثر قمم لبنان وعورة، وفي الصحراء على ضفاف نهر الأردن، مشت معي خطوة بخطوة. رأت كل شيء رأيته، ولو أنني متُّ لاستطاعت أن تحكي عن رحلتنا كلها مثلي تماماً."

لم تعد هنريكا أبداً إلى فرنسا، كان نصيبها الموت السعيد لأناس التاريخ القديم. ومن الحمى الشديدة المعدية التي أسقطت الأخوين دون رحمة فاقدين وعيهما في فترة إقامتهما في عمشيت القرية اللبنانية في شمال طرابلس، في ضيافة آل طوبيا العائلة المارونية، استيقظ رينان بعد موت الأخت، التي دفنت في المقابر العائلية لآل طوبيا. ومَن مِن السياح لديه وقت زائد يحجُّ إلى ذلك القبر، ونحن أيضاً كنا هناك. يتمّ السفر طويلاً إلى حدٍّ ما بالسيارة من طرابلس، بداية على طول الشاطئ البحري الأخضر، وبعدها بالانعطاف نحو الشرق بطرق ملتوية خلال الأراضي الحمراء المدرَّجة بجهد كبير للوصول إلى القمة التي تقف عليها كنيسة مارونية صغيرة كأنها مقصوصة من لوحة قديمة، وبالقرب منها تماماً مقابر آل طوبيا، وليس بعيداً كثيراً بضع عشرة بيتاً. مكعّب المرمر الداكن المرئيّ من خلال سور الجدار المرتفع الذي يحيط بالقبر و الذي يشكل ما يشبه بيتاً مربعاً سقفه من أغصان شجرة خضراء مورفة قد نبتت فوق قبر هنرييت رينان. من الباحة التي ينتصب عليها القبر يمتدُّ منظر شاسع لمنحدرات سلسلة جبل لبنان الهابطة بالمدرجات نحو المروج الخضراء، وللشواطئ الصخرية للبحر اللازوردي. هذا هو القبر الفينيقي الوحيد الذي يربطنا بالماضي البعيد لهذه الأرض، ويوقظ عاطفة حية، وهو أمر أكثر من ناووس حجري ذي علاقة اصطلاحية مع اسم لديه عندنا قيمة صوتية فقط.

لم يوافق رينان على نقل رفات الأخت إلى فرنسا، إلى واحدة من تلك المقابر الحزينة، التي كانت هنرييت تخافها جداً. " أريد أن تكون في وقت ما قربي. يكتب في مذكراته. لكن من يمكن أن يقول في أي مكان من العالم سأضع جنبي؟ لتنتظرني إذن تحت نخيل عمشيت، في أرض المعجزات التاريخية، قرب بيبلوس العظيمة".

من يدري في أيّ بقعة من العالم سأضع جنبي؟ قبر أرنست رينان موجود في مقبرة مونتمار في باريس، في مجمع حجارة ضخم، مزدحم بالمقابر المستطيلة الضيقة، يقع بين أبنية سكنية مرتفعة، وفوق المقبرة جسر معلق تصبّ فيه حركة وسائط نقل مدينة كبيرة عنيفة ومضطربة. ويرتاح تماماً قرية آري شيفر، ومقابله دوما الابن، وأبعد قليلاً هنري مورجر، وإلى زمن قريب سووفاتسكي. وأبعد لكن في باريس، في صالات اللوفر المعتمة في الطابق الأرضي، يرتاح ناووس ملك صيدا اشمونصّر وعدد آخر من النواويس التي جلبتها Mission Ernest Renan "بعثة أرنست رينان".

في الحقيقة، كل الأمور سواء، فيما يتعلق أين يدفن المرء، ولكن الموتى فقط هم الذين يتفقون مع حزن هذه الحقيقة العميق. إذن رينان أيضاً لم يعد يشتاق إلى أرض المعجزات التاريخية التي كانت غالية على قلبه في أثناء حياته وإلى بيبلوس الرائعة وظلال نخيل عمشيت.

جبال الأنصارية ولبنان

نحن حالياً في بلد مسيحي على الأغلب. الساحل كله والجبال مأهولة في أكثريتها الغالبة بالسكان المسيحيين على اختلاف مذاهبهم، ويغلب الإسلام في الحقيقة في المدن الساحلية، باستثناء بيروت. لكن في القرى وعلى الساحل الفينيقي، وفي الجبال ثمة كنائس أكثر كثيراً من المساجد «وهذا هو المظهر الخارجي المميز الوحيد في طبيعة المنطقة، لأنه لا توجد اختلافات أخرى يمكن للعين أن تميّزها». بل أكثر من ذلك، ليس من الصعب أن ندرك أنّ هؤلاء السكان المسيحيين هم أصلاء مستقرون هنا منذ قرون، ومحافظون أوفياء على تقاليدهم الموروثة، التي تعود على الأغلب إلى أزمنة بعيدة منسية. ليس للإسلام هنا مثل هذه التقاليد العريقة! فهذه الآثار المعمارية المنسوبة إلى الثقافة الإسلامية، التي نراها هنا، هي حديثة العهد نسبياً. فإن نحن صادفنا في مكان ما أسوار مسجد قديم، فهي غالباً أسوار كنيسة صليبية قديمة، غيرها المنتصرون خارجياً فقط، مشيدين عليها مآذن مزوّاةٍ مرتفعة، كما على سبيل المثال في الجامع الكبير في بيروت. في حين أنّ الذكريات المسيحية هنا كثيرة! لدينا هنا تقاليد عهود الرسل، ولدينا طقوس الكنائس المسيحية الشرقية الكثيرة، ولدينا أبنية صليبية عديدة، تحصينية وكنسية. وفي الأمكنة على الشاطئ حيث ترى فقط خرائب ناتئة فوق الأبنية الطينية الواطئة، هناك بالتأكيد، وأحياناً تحت التسميات العربية،

تبرز أمام أعيننا آثار نشاط فرسان ورهبانيات أوروبة الغربية العسكري والثقافي. فنحن في المحصلة ضمن حدود مملكة القدس القديمة: عشق وطموح كل العالم المسيحي كان قد توجه إلى هذه الأرض.

ضمت المملكة فلسطينَ الحالية وسوريا الجنوبية؛ العاصمة كانت القدس بالطبع، والدولة كلها كانت مقسمة إلى إقطاعات. وكانت عدة موانئ بحرية تصل أوروبا بقواعدها المشرقية المتقدمة؛ فوصلت السفن المحملة بالفرسان والتجار الايطاليين من البندقية، وجنوا، وبيزا إلى عسقلان، ويافا وحيفا، وصور، وعكا، وصيدا، وبيروت. كانت حدود المملكة مغلقة بالصحراء العربية من الجنوب. وحمى خطُّ الدفاع الذي شكلته الحصون الصليبيين من هجمات الرعاة. كما شكلت جبال لبنان المرتفعة حصناً ممتازاً أمام هجمات دول المسلمين في المشرق، وأبعد إلى الشمال في جبال الأنصارية الأقلّ مناعة، منع نظام القلاع في إمارة طرابلس عبور الغرباء.

كلّ من يسافر من الجنوب كي يصل إلى الجبال في شمال طرابلس، عليه أن يلاحظ مباشرة الفرق العظيم في المنظر الطبيعي؛ فإلى هذه اللحظة كان لديه من الجهة اليمنى سلسلة جبال لبنان الضخمة ذات الخضرة الرمادية، وفي العمق زرقة داكنة مغطاة بطبقات الثلج، وبعدها كلما تقدّم نحو الشمال، يرى منحدرات أقل حدّة وخضرة أكثر فأكثر. تنتهي القمم العالية، وتبدأ التكويرات والجبال ذات القمم المنبسطة التي تشبه بطبيعتها منطقة الزاكوبانا. أعلى القمم اللبنانية يصل ارتفاعه إلى ثلاثة آلاف متر، وعند أخفض المضائق هي أكثر ارتفاعاً أيضاً، مما يجعل المواصلات صعبة جداً هنا. وفي جبال الأنصارية التي تبدأ مباشرة على ضفة نهر الكبير الحدودي يمكن تسيير القوافل دون صعوبة، ورعي الماشية، والسفر دون حذر الطريق، ودون مجاهدة اختلاف الارتفاعات. بل إنّ الذي

يملك أيسر تعليم عسكري كالسائح المسالم يفهم دون صعوبة أن تلك المرتفعات المتماوجة بين الساحل الشمالي السوري ووادي العاصي لا ريب كانت منذ أقدم العصور أهم بوابة استطلاعية حددت مصير سورية. الغزاة الزاحفون إلى هنا من شاطئ البحر كانوا يأتون من وراء البحر للسيطرة على العاصي والصحراء، كما مرّت من هنا الهجمات الآتية من واحات الصحراء على مواقع العالم الغربي المتقدمة. وهنا أيضاً كان لابدّ من وجود أهم المراكز الدفاعية، فهؤلاء الذين أحكموا سيطرتهم بقوة السلاح على الجبال، سيطروا بالطريقة نفسها على الشاطئ البحري وامتلكوا ضفاف العاصي. وكان على هذه المواقع في صراع الصليبيين مع الإسلام أن تقوم بالدور الحاسم، فاستخدمت كمراكز استناد عمليّاتية من أجل الهجوم، كما حمت أيضاً الشواطئ، والأمر المعروف على كل حال، أنه بعد سقوط القدس بما يقرب من مئة سنة استمرت الدولة المسيحية في شمال سوريةتحت حماية القلاع الهائلة.

نستخدم التعبير «هائل» في الحديث الشفوي كما في الكتابة عموماً؛ لكن كم من الأشياء ذات الحجوم المتفاوتة نقوّمها اصطلاحاً بصفات الضخمة والرائعة. ونحتاج بعد ذلك أحياناً إلى مصطلح لتحديد ذلك الذي هو «هائل»، فيمكن أن نضيف على الصفة أيضاً عبارات مثل: بشكل غير متوقع، بشكل لا يصدق. من الصعب التوقع حقيقةً بعد مشاهدة كل هذه الأبنية الصليبية في فلسطين وعلى الشواطئ السوريةأنه فجأة هنا بين الجبال الجرد التي تهيّأ لنا أنها منسية تماماً، وأمام أعيننا التي اعتادت النظر إلى صنائع اليد الإنسانية بمقاييس متفاوتة تماماً، تبرز قلعة هائلة، تتوج باتساع القمة المرتفعة، وتسيطر بوضوح على مساحة واسعة عريضة، من الصعب التصديق أنّ تخيلاتنا

الصبيانية للحملات الصليبية كأعظم حروب العالم هي في الحقيقة صحيحة أكثر من النقل المتأخر لتصورات الفتوة المبكرة الثرية وإعادة صياغتها ورقياً محددة بحذر بارد.

حسنٌ، لدينا أمامنا حصن صليبي هائلٌ، آسرٌ بقوة عمارته وحجمه: Krak des Chevaliers "حصن الفرسان"، والمسمى بالعربية أيضاً قلعة الحصن. نسافر من طرابلس عدّة ساعات، مباشرة على طول الشاطئ البحري، بعدها ننعطف نحو الجبال يساراً، نتسلق بالسيارة طريقاً ضيقة جداً تلتوي في منعطفات حادة، ترتفع ثم تهوي، تحتنا حقول مزهرة، وفوقنا منحدرات جبلية مغطاة بالعشب اليابس، وأمامنا منظر واسع يمتدّ نحو سلسلة الجبال التي تبتعد أكثر فأكثر. نادراً ما نصادف مساكن فقيرة، أو عدّة خيام وقطعان ماعز. وفجأة بعد تجاوزنا بسلام منعطفاً ما نصل إلى وادٍ عريض مخضر محاط من جهاته بالهضاب، على واحدة من الهضاب تاجٌ من أسوار يبدو أصفر تقريباً في الشمس: قلعة الحصن.

ذلك المنظر، الهائل وغير المرتقب، معروف لدينا جيّداً. فهذا رسم سلسلة ما لفرسان قروسطيين، وهنا كواليس وخلفيات أوبرا ما فاغنرية، وهنا تصوراتنا من عهد الطفولة التي عصف بها العقل ولطفتها الخبرات، والتي تعود فجأة بعد السنين حيّة هكذا كما كانت في الماضي. ذلك الوعي، أنّ الحقيقة التي تظهر هكذا، أمر مبهرٌ للنفس.

مازلنا بعدُ بعيدين، لكننا نرى أنّ الحصن ضخم إلى حدودٍ غير اعتيادية، ننحدر إلى الأسفل، ونسير وقتاً طويلاً في الوادي وأمام أعيننا دوماً الأسوار العملاقة، بعدها نبدأ بتسلق الجبل، الهضبة التي بدت من البعد غير كبيرة هي واسعة جداً؛ والحصن يصبح أكبر فأكبر. نصل أخيراً إلى قرية متناثرة، تختبئ بيوتها الحجرية بين الأشجار

المزهرة؛ هنا لابد من النزول من العربة، والمشي متسلقين سفح الجبل الشديد المنحدر. الحصن الرائع يقف أمامنا بهيبته الكاملة؛ إنه محافظ على مظهره بشكل جيد ويوحي من الخارج أنه شيء كامل، حصين، وغير قابل للتملك. يلف الفيلم إلى الأمام: على الشرفات أشكال بشرية عديدة، كثيرة الحركة، وصغيرة، تراقب من الأعلى الواصلين الجدد. إذن الحصن حيٌّ، وأسرار الداخل مثيرة.

في سور الكتل الحجرية الضخمة الداكنة، الذي يرتفع أمامنا، يبرز نتوءُ البوابة العريض، إذن نقترب أكثر نحو الجبل وندخل في جوف العملاق. على المدخل ترحب بنا كتابة عربية بخطوط مزخرفة فوق الباب، وهي تعلن للعالم على الأغلب، أنه: بسم الله الرحمن الرحيم قد تمّ الأمر بتجديد هذه القلعة المباركة في أيام حكم السلطان الملك الظاهر بيبرس، الحكيم العادل، الفارس المجاهد، التقي حامي الحدود، المنتصر، عماد الدين والدنيا.[1] هذه نهاية القرن الثالث عشر، ومن لحظة احتلال الإسلام القلعة سقطت آخر المعاقل الصليبية في سورية، وفقد الحصن مسوغات وجوده العسكرية. وكأنّ الكتابة التي تمجد انتصار بيبرس هي نهاية تاريخ عهود الحصن العظيمة. فعظمته كانت مرتبطة بالحملات الصليبية. أما المنتصرون فلم يُحدثوا تغييرات كثيرة في مظهر الحصن، الذي ظلّ بكامله بناءً عسكرياً صليبياً من القرن الثالث عشر.

تاريخ القلعة ليس طويلاً، يستمر تقريباً قرنين، لأن الحصن في وضعه الحالي لم يخدم المسيحية إلا ما يقرب من عدة عشرات من

---

1. الترجمة التي يقدمها بيسترون للوحة التذكارية باللغة البولونية قريبة جداً من واقع النقش المحفوظ إلى أيامنا وهو: (بسم الله الرحمن الرحيم أمر بتجديد هذا الحصن المبارك في عهد مولانا السلطان الملك الظاهر بيبرس العالم العادل المجاهد المظفر ركن الدنيا والدين أبو الفتح بيبرس نصير أمير المؤمنين وذلك نهار الثلاثاء 25 شعبان الموافق 669 هـ(1271م). (المترجم).

السنين، فقبل وصول الجيوش الصليبية إلى سوريا كان من المفترض أن تكون هنا قلعة غير ضخمة، أسكن فيها أمير عربي من حمص[1] حاميةً عسكرية كردية، كان عليها حماية الطريق إلى طرابلس، ولهذا يحمل الحصن إلى يومنا هذا اسم حصن الأكراد. يبني الصليبيون هنا تحصينات كبيرة في النصف الأوّل من القرن الثاني عشر، وفي عام 1142 تسلم القلعة إلى رهبانية فرسان القديس يوحنا الذين يقومون بتوسعة بنائها إلى حدود تجعلها حصناً من الطراز الأوّل. تصدّ القلعة بنجاح هجوماً عنيفاً يشنه صلاح الدين سنة 1188. والزلازل المتعاقبة طوال النصف الثاني من ذلك القرن تهدم التحصينات؛ مسببة تغييرات مستمرة وإصلاحات. بعد الزلازل الجديدة في بداية القرن التالي يتم اتخاذ القرار أن يبنى حصن عظيم يستطيع الصمود أمام الهزات الأرضية؛ فكان هذا العملاق الحجري الذي ننظر إليه اليوم بإعجاب. لابدّ أنها كانت إدارة غير مسبوقة تلك التي استطاعت أن تتغلب في الجبال الجرد على الصعوبات التقنية غير المحدودة. سيد الرهبانية الكبير كان يعيش في Castro Cratie كاسترو كارتيه سنة 1215. كانت تلك في النهاية أزمنة صعبة والقلعة الضخمة لم تخدم فقط مجد الرهبانية، فمنذ عام 1187 كانت القدس قد سقطت بأيدي المسلمين، والهجمات على الصليبيين الطليان المتضائلين تجددت مرة بعد مرة بقوة متعاظمة.

كانت القلاع كثيرة، خطّ الدفاع الضخم كان يحرس أملاك الصليبيين. فإلى الشمال أكثر ترتفع إلى اليوم الأطلال الضخمة لأكبر حصن هو «المرقب» الذي تمّ تشييده في القرن الثاني عشر وهناك أيضاً طرطوس، وChastel _ Blanc "القلعة البيضاء" قلعة صافيتا، والتحصينات الساحلية في Arches "آرك"، وChastel Rouge قلعة يحمر

---

1 ـ هو أمير حمص شبل الدولة نصر بن مرداس (المترجم)

«القلعة الحمراء»، وقلعة jammur[1]، وColee "كوليه"، وMoinastre "موئيناستر"، وإلى جانبها مجموعة قلاع صغيرة ذات أهمية محلية، مثل القليعات التي تجاوزناها في طريقنا، وكل كنيسة أو دير كانت أيضاً بشكل طبيعي حصناً صغيراً. وهذه القلاع كانت بحماية الرهبانيات؛ قلعة المرقب وقلعة الحصن كانتا بيد رهبانية فرسان يوحنا، وحما فرسان الداوية«الهيكل»[2] طرطوس، أمّا الصليبيون الألمان فحموا Mont fort مونت فورت "القمة العالية" المندثرة والتي لا وجود لها في أيامنا. قلاع فرسان يوحنا شابهت في عمارتها أبنية الغرب؛ شيدت في قمم الجبال، وأحيطت بأسوار مزدوجة وزودت بالأبراج بأسلوب كاركاسون Carcasone أو كوسيه Coucy، أمّا فرسان الهيكل فكانوا تحت تأثير التقاليد البيزنطية، وبذلك الرومانية بشكل غير مباشر. من كل تلك القلاع قلعة الحصن على الأغلب لم تكن الأكبر، لكنها تعدّ مع ذلك الأكثر منعةً، والأكثر جمالاً. وهي الأفضل من حيث المحافظة على عمارتها.

ندخل في باطن الدهليز المغطى بسقف مقوس عريض، يصل بين البوابة الخارجية ووسط القلعة. هذا الرواق الذي تدخل منه كتائب الفرسان إلى باحة الحصن، يذكرنا بصالة السوكنيتسا الكراكوفية[3] من الدخل، لكنها أكثر طولاً، وتمتد صاعدة بحدة

---

1. قلعة يحمر jammur هي نفسها قلعة Chastel Rouge أما Colee وMoinastre فلم أهتد إليهما.

2. فرسان الهيكل: رهبانية أسسها سنة 1118 الفرسان الفرنسيون في فلسطين، انتقلت إلى قبرص، وبعدها إلى فرنسا وقد جمعوا ثروات كبيرة. اتهمهم فيلب الرابع ملك فرنسا بالهرطقة وصادر أموالهم، والبابا كليمانس الخامس أمر بحل الرهبانية.(المترجم).

3 ـ السوكنيتسا: سوق تجارية مسقوفة، تقع في وسط ساحة المدنية القديمة في كراكوف، كانت مخصصة لتجارة الأقمشة (sukna) بنيت في القرن الرابع=

نحو الأعلى. نقف في باحة ليست كبيرة جداً، أمامنا كاتدرائية الحصن، التي حولت إلى مسجد. في العمق صالة بنوافذ قوطية رائعة، هي اليوم إسطبل، وفي الماضي صالة اجتماعات الرهبان الملحقة بالكاتدرائية. وأمامنا مباشرة بدا سوار الأسوار الداخلية، صخب في كل مكان، قرية بتمامها تعشش اليوم في القلعة، محتلة قاعات القلعة، مقسمة الصالات الكبيرة إلى مساكن صغيرة، وبانية منازل طينية ملاصقة للجدران. الأطفال يلعبون بين الحجارة، والنسوة يعتنين بالأعمال المنزلية، يطبخن، ويشوين الفطائر في أفران طينية صغيرة مستديرة، ويخيطن. الرجال أكثر فضولاً، يتفحصون القادمين. وقرب الناس الحيوانات. فهنا يقف حمار بصبرٍ، وهنا ماعز يتقافز على كتل الأدراج الحجرية ، وفي كلّ مكان دجاج كثير، علف وروث، وخلف النوافذ القوطية لصالة اجتماع الرهبان تشاهد الخيول في ظلمة الإسطبل. نصعد إلى الأسوار، ونلف الحصن كله، ونعبر خلال الصالات الضخمة والأزقة الضيقة، ونتعمشق أخيراً على الأسطح المغطاة بالحشائش، وإلى الأبراج.

المنظر آسرٌ من الحصن، يشرف البناء الضخم على مساحات الهضاب الخضر الواسعة، في مقدمة المنظر جبل الكفرون وفي العمق وراءه شريط لازوردي ضيق: البحر الأبيض المتوسط، ومن الجانب الآخر سلسلة جبال لبنان الداكنة، وبعدها أيضاً سلسلة جبال لبنان الشرقية المزرّقة في البعد، وفي الأدنى البقاع المضي المتلألئ، la Buqueè كما يقول الفرنسيون، وCelesyri سليسيريا[1] الكلاسيكية. وأبعد على اليسار

=عشر، وبعد حريق أصابها سنة 1555 أعيد بناؤها بالأسلوب الريناسانسي، وقد أضيفت إليها أبنية في الفترات اللاحقة غيرت من مظهرها الأولي. تذكر زائرها بسوق الحميدية في دمشق(المترجم).

1ـ أي سوريا الجنوبية، وهذا التحديد الجغرافي يعود إلى زمن الرومان. (المترجم)

بحيرة حمص المرئية بصعوبة، وبعد ذلك سلسلة جبال الأنصارية المتناثرة باتساع والواصلة حتى البحر. وتبدو قلعة الحصن مركزاً مرتفعاً لهذا الموطن الأخضر الممتد من البحر حتى وادي العاصي. لابدّ أن أصحاب هذه القلعة كان عليهم أن ينظروا إلى موطنهم بفخر واعتزاز.

نحيط أيضاً بالقلعة كلها من قمّة البرج، التي كان من الصعب علينا إلى هذه اللحظة أن نتخيل عظمتها. نشاهد إذن قبل كل شيء النظام الدفاعي المزدوج، القلعة نفسها محاطة بسور مرتفع مؤلف من كتل حجرية ضخمة، ويخيل إلينا أن السور الأساسي يبرز من الطوابق الدنيا للهرم، وكان عليه أن يقوم بوظيفة مدافعة الأعداء، وكذلك بالحماية أيضاً من الهزات الأرضية، التي هدمت الأساسات السابقة الضعيفة عدّة مرات. ويقوم السور الثاني في الأسفل مفصولاً بخندق مائي عريض، وهو ضخم أيضاً، ينحدر إلى الأسفل بطبقات متعددة عامودياً على خاصرة الجبل. ذاك الدهليز ذو السقف المقوس الذي دخلنا منه إلى القلعة كان حقاً الممر الدفاعي المسقوف الذي يصل بين سلسلة الأسوار الخارجية والداخلية. وفي القلعة الداخلية لدينا أيضاً تفاوت في المستويات: ففي الأدنى توجد الأبنية الكنسية، وقاعة اجتماعات الرهبان، وفي الأعلى مساكن الحامية العسكرية المحصنة بثلاثة أبراج كبيرة. كان هذا مدينة كاملة. حماية مثل هذه القلعة القوية تطلبت جيشاً كبيراً، وفي حال الحرب كان سكان الجوار يحتمون تحت رعاية الفرسان. وإلى اليوم إنّ الحصن مدينة حقيقية. الحصن كله مأهول، في كل مكان أناس كثر، يعشعشون في الصالات والأبراج أو في أبنية طينية أضيفت مثل أعشاش السنونو إلى البناء. هؤلاء الناس بعضهم يقوم بزراعة الحقول الممتدة أمام القلعة، وآخرون لا يخرجون أبداً من القلعة، ويعتاشون، كما هو الأمر في

الشرق، من أيٍّ شيء: من تجارة بسيطة، أومن صنعة بدائية، أو في النهاية من الماشية التي ترعى الأعشاب بين الأسوار. يجب أن تكون هنا عدة آلاف من فرسان تلك الحامية الرائعة؛ قبل الحرب سكن هنا القائم مقام نفسه، لأنّ قلعة الحصن كانت مقرّاً للسلطات المحلية. هنا عدّة دكاكين، ويمكن شراء تبغ جيّد وطوابع تحمل عبارة Etat des Alaouites "دولة العلويين"، لابدّ من أن نتذكر أننا لم نعد في دولة لبنان الكبير ولا في سورية. يسكن هنا على الأغلب الناس الأكثر فقراً، وإنّ هؤلاء الناس لم يختاروا السكن في القلعة حباً بتراث الفرسان، ولا من أجل المنظر الرائع، لكن من أجل ذلك السقف فوق الرأس، الذي كان جاهزاً. ومع ذلك يُصادف عدد ضئيل من المتأنقين في ملابس أوروبية وطرابيش مكوية مملّسة. وهؤلاء هم قشدة هذا المجتمع: موظفون محليون. على سطح بناء قديم ما ترتفع مئذنة، ومؤذن هرمٌ ذو مئة عام ربما، يعلن بصوت ضعيف لكنه رخيم وجميل اللحن أنّ وقت صلاة الظهر قد دخل.

يبدو غريباً مثل هذا العالم الشرقي الصغير للفقراء على خلفية عظمة وتراث القلعة المسيحية. جماعات النمل الصغيرة المضطربة سيطرت على خوذة الفارس المرمية بعد المعركة بين الحقول!

تراث الماضي العظيم أخذه أناس صغار، من الصعب العثور على مفارقة أعظم من مفارقات التاريخ الساخر! في يوم ما قبل قرون تقاتلت هنا زهرة فرسان أوروبا الغربية مع قمم الثقافة العربية الإسلامية؛ الناس الذين استطاعوا بناء هذه القلعة لم يكونوا عاديين، وكذلك الذين هزموهم يجب أن يكونوا عظماء حقاً. اليوم على كلّ هذه البقعة، من البحر إلى وادي العاصي يعيش أناس فقراء بسطاء، يحيون على الهامش، منسيون، لا يودون الغرباء، تصعب ملاءمتهم ثقافياً،

هذه هي أكثر مناطق سوريا إهمالاً. وسكان قلعة الحصن - يمكن أن نقول - يشكلون فيما بينهم ما يشبه طبقة أرستقراطية مدينية، منظمة إلى حدٍّ ما، لها إلى حدٍّ ما تواصل مع عالم المدرسة والجامع اللّذين لا يمتان إلى الأنصارية بصلة. فالباقي مزارعون صغار، ورعيان نصف بدائيون، يحتفظون بتقاليدهم الدينية القديمة جداً، وينتمون إلى الإسلام ظاهرياً. الرهبانيات المسيحية تقوم هنا بنشاط تبشيري. المنطقة هنا غير مضيافة! رفيق رحلتنا الأب رينه، يسوعي من بيروت يحدثنا عن تفاصيل عمل البعثة التي يشارك فيها منذ سنوات.

أولئك الذين قبل ثمانمئة سنة أتوا إلى هنا في صفوف عسكرية وأنشأوا القلاع الضخمة يأتون اليوم مبشرين. الأب رينه هو أيضاً عضو الرهبانية التي لا تحمل حقاً أسلحة، لكنها دون شك رهبانية مقاتلة تماماً مثل أية رهبانية أخرى تقوم بأنشطة التبشير.

من المفيد الاستماع إلى مثل هذا الفارس الصليبي المعاصر!

أو. رينه O.Renè فرنسيٌّ وعاشق آثار، وهو أستاذ في جامعة القديس يوسف اليسوعية في بيروت، يعمل في فرصة الإجازات في البعثة، على الأغلب لدى الأنصارية، حيث تجري الأعمال بصعوبة وتصميم، دون نجاحات كبيرة. أعمال الإجازات مميزة! بالنسبة إلينا نحن الذين غالباً ما نتذمر من الانقطاعات الطويلة بين العطلات الجامعية، يبدو لنا غريباً، أن يقضي أحدهم عطلته في عمل أصعب كثيراً من أعمال التدريس اليومية. لكن العام الدراسي يبقى على الأقل لصديقنا البيروتي لأعمال الأبحاث العلمية. ونفكر: المكتبة الجامعية مهيأة بشكل ممتاز، والرهبانية تؤمن ربما كل التسهيلات. ولكن يتبين لنا أننا نتخيل أن حياة الرهبانية سهلة جداً. يعتني أو.رينه بالأركيولوجيا في أوقات الفراغ القليلة خارج الدروس الجامعية، لأنّ

الرهبانية جعلته يختص بمحاضرات القانون الإسلامي باللغة العربية، ولهذا عليه أن يمنح أفضل ساعات نهاره لهذا الموضوع. البعثة الآثارية هي بالنسبة إليه حدث استثنائي، سلطات الرهبانية أعطته الإذن بالانضمام إلى قافلة البعثة، إذن أخيراً يمكن أن يتفرغ بضع عشرة يوماً لأعماله المفضلة. يتحدث أورينه بسعادة عن مسيرة رحلتنا التالية، وعن إمكانية وصولنا إلى تدمر، وعلى الأخص إقامتنا في القدس التي لم تكن لديه إلى الآن إمكانية معرفتها. وكيف ذلك؟ المقيم الدائم في بيروت منذ أكثر من عشر سنوات، الراهب، ودارس آثار العهد القديم لم تكن لديه إمكانية السفر إلى القدس؟ إنّ هذا من أحر أمنياتي - يقول اليسوعي - لأسباب عاطفية كما للأسباب العلمية، لكن لا وقت في الرهبانية! عندما تكون المحاضرات لا وقت للسفر؛ وعندما لا تكون المحاضرات هناك وقت للسفر في البعثة التبشيرية، لا نسافر لأسباب شخصية. والسفر إلى القدس بالنسبة للرهبانية قضية شخصية، ربما الآن بمناسبة المؤتمر أتمكن من الحج إلى القدس. بهدوء يتحدث ذلك الإنسان الذي تنظم حياته كلّها السلطة الرهبانية.

يا للأب رينه الفقير! سافرنا معاً إلى تدمر، لكن بعدها كان على رفيقنا اللطيف الودود أن يعود إلى بيروت، مدعواً بأمر الرهبانية لإلقاء محاضراته بالعربية أو للمشاركة في البعثة التبشيرية إلى الأنصارية - ولم يتجاوز الحدود الفلسطينية، ولم يرَ الأماكن المقدسة في القدس.كان ثمة شيء عظيم في هذا الإنسان، في بساطته وامتثاله اللامشروط لإرادة رؤسائه، ودفعه دون ظلٍّ احتجاج باهتماماته الشخصية وآماله إلى المقام الثاني. لست معجباً عموماً بالرهبانيات، وعلى الأخص بالرهبانية اليسوعية تحديداً والمعروفة لدينا داخل بولونيا جيداً بأنشطتها الموقظة لمشاعر العرفان. لكن من الصعب الإنكار أنه مع ذلك في هذا النظام

الفـولاذي وفي هـذا الاستـسلام الكامـل للفـرد لأوامـر رؤسـائه وفي التضحية بالطموحات الشخصية والآمال من أجل نشاطات الرهبانية تكـون التـضحية الكـبيرة، و Servitude et grandeur militaire "عبودية وعظمة عسكرية".

نتـذكر هنـا الـشيخ الفريـد دي فينيـه Alfred de Vigny[1] الـذي يمجـد الإنسـان المؤمن والجنـدي كـأنقى وأسمـى مخلـوقين في عصرنا قائلاً:

“ Sans ambition,sans vanitè, sans luxe, toujours esclave et toujours fire et content de la servitude.”

"دون طمـوح، ودون زهـو، ودون تـرف، مـستعبد دائمـاً، وفخـور وسـعيد بعبوديته دائماً."

ولمـاذا الـشرق فقـط كـان عليـه أن يكـون وطـن الـصليبيين؟ هـؤلاء النـاس أنفـسهم، تحـت هـذه الأزيـاء الكنـسية السود نفسها أحـدثوا في بلدنا نمطاً تدينياً من أجل الزينة، من أجل الشكل الخارجي، من أجل الاسـتعراض الاجتمـاعي أو الـسياسـي. وعـودوا العامـة علـى جمـود الـورع الظاهري العقيم، وعلى السعادة السهلة، وأيضاً على الكسل الأسـهل. يمكن فهم خدمة الرب بأشكال كثيرة.

الـصليبيون الأوائـل كـان علـيهم أن يكـونـوا تمامـاً مثـل هـؤلاء العبيـد العظام. فكم من الورع والانصياع الأعمى للأوامر كان لازماً كـي تبنـى هذه القلعة الرائعة وسـط الجبـال المنعزلـة. لابـدّ أنّ الـذين خلفوهم كـانوا فخـورين بهـذا الإنجـاز، ولا بـد أن الإعجـاب بـالنفس قـد مـلأهـم عنـدما نظروا من أبراج الحـصن إلى سلسلة الجبـال العريضة، وإلى البحـر ووادي العاصي، عندما شعروا بسطوتهم القاطعـة القوية علـى كـل هـذا الـوطن.

---

1. الفريد دي فينيه Alfred de Vigny :شاعر فرنسي وكاتب مسرحيات وروائـي، ولد في سنة 1797وتوفي سنة 1863. (المترجم).

هذا العُجب أمكن أن يكون سبباً للانحلال الذي جاء بعده السقوط. متجولين هكذا بين أسوار القلعة نشاهد على واحدة من الدعائم كتابة مميزة:

Sit tibi copia
Sit sapientia
Formaque detur
Inguinat omnia
Si comitetur[1]

حتى وإن توافر الثراء، والحكمة والنظام، فإنّ الزهو وحده يدنس كلّ شيء! من الواضح أنه كان ثمة زهوٌ كبير في الرهبانية، مادام أحد السادة أو القادة أمر بنقش مثل هذه الأمثال على الجدار لتحذير أخوّة الفرسان.

في الحقيقة إنّ الدولة المسيحية على شواطئ الشرق التي دافعت عن حدودها تضحيات لا تحصى من الحملات الصليبية قد ناءت تحت ثقل هذا الزهوّ، والمصالح الشخصية، وظروف الحياة الاقتصادية الصعبة عقدت أيضاً الوضع، الذي لم يستطع الفكر التنظيمي السيطرة عليه. مملكة القدس لم يكن لديها نظام سياسي واضح، كانت دولة إقطاعية ضمّت عدداً من الممالك الصغيرة، التي كان لرجال الدين فيها ولرهبانيات الفرسان الدور الأكبر، وعلى الأقل إنّ رجالنا البابويين أسسوا دويلات عظيمة ضمن الدولة الضعيفة. أمّا الملوك أنفسهم الذين عاشوا في القدس بين جبال فلسطين الجرد، فعاشوا في الفاقة؛ بولدوين الأوّل نجا مرتين من Mariage de raison "زواج العقل" والكثرة الكاثرة من الصليبيين بعد احتلال القدس عادت إلى

---

1. لو أعطيت الخير الكثير (الوفرة) ، والحكمة ، والجمال ، فإن الغرور وحده كفيل بإفسادها .

مواطنها الأصلية، غير عابئة بحمايتها؛ وبقية الأوروبيين عاشوا في خوف دائم من الهجمات والخيانات؛ وإعمار البلاد كان ضعيفاً جداً، إذ إنّ السكان اللاتين لم يكونوا كافين حتى للدفاع عن القلاع.

بين السكان الأصليين الأكثر عدداً، بعيداً عن الوطن، متعبين من الحرب، بدأ بعض المنتصرين يقعون تحت سحر الغريب، والثقافة الأصيلة المثيرة للاهتمام، ويتّبعون العادات الشرقية، ويتحدثون اللغة العربية؛ في البداية كانت هذه الأمور استثنائية، لكن بعد مرور الوقت ضعفت المثاليات الصليبية، وبدأ الأوربيون يصبحون شرقيين أكثر فأكثر. يكتب فوشيه دو شارتر Foucher de Chartres أحد المؤرخين الفرنسيين في حولياته: "فهؤلاء هم جماعتنا الأوروبيون قد تحولوا إلى جليليين، أو فلسطينيين، فهذا لديه بيت وعائلة وكأنه مواطن محلي، وآخرون لديهم زوجات سوريات، أو أرمنيات، وآخرون حتى سراسينية متنصرة." حدثت الزيجات المختلطة أكثر فأكثر وقربت الصليبيين من المارونيين المحليين، وأكثر فأكثر كان ثمة فتيان أغرار؛ فهكذا كانوا يسمون الصليبيين ذوي الدماء Poulains المختلطة، لكن أيضاً أضحت جبهات الدفاع أكثر وأكثر ضعفاً.

يؤكد المارونيون السوريون ذوي الميول الغربية الواضحة بفخر مأثوراتهم عن أصلهم الفرنسي. تُروى الأساطير عن القديس مارون وأنه ابن كارول الأكبر، مع أنّ هذا الأخير عاش بعدّة مئات من السنين بعد محدث الانشقاق التوحيدي، في فترة الحروب الصليبية كان للمارونيين حظُ المشاركة في صفوف المقاتلين، وأمنوا الأدلاّء، لأنه بعد سقوط القدس سنة 1187 هاجر الملك الأخير Guyde Lusignan[1]

1 ـ ملك القدس بين سنتي 1192ـ1186 وملك قبرص في الأعوام 1192ـ 1194. (المترجم).

غيد لوسينيان إلى قبرص، وتبعته جماعات مارونية كثيرة، واستقرت في تجمعات كثيفة في الجزيرة الخضراء، غير راغبين في الخضوع لحكم صلاح الدين. وفي لبنان حيث ثبت الصليبيون طويلاً كان التكافل مع المارونيين هو الأقوى. وإلى اليوم في المناطق الأكثر منعة قريباً من أشجار الأرز القليلة المحاطة برعاية شديدة، كأوابد من العصور الغابرة، لم تزل أوابد أخرى تحيا: ذوو سحنة شقراء، ضخام، حديدو البصر، يبدون وكأنهم أحفاد الفرسان الجرمانيين. أعداد كبيرة من العائلات المارونية الوجيهة، ينسبون أنفسهم إلى سلالات غربية عريقة؛ فعائلة «الأمير» تدعي نسباً إلى أمير صليبي ما، ودا ريان إلى الكونت دي أورينت d' Orient، وقرقماس يعيدون أصولهم إلى بريتانيا، وأكثر من ذلك آل فرنجية وكرم وطربيه... ويمكن أن نذكر أنه قد تمّ الاحتفاظ لسنوات طويلة بالروايات التي تذهب إلى أنّ الدروز الذين سكنوا في لبنان بكثرة إلى منتصف القرن التاسع عشر «واليوم موجودون بأكثريتهم في جبل حوران» هم أحفاد الصليبيين، الذين بقوا تحت قيادة الكونت Dreux "درو" في الجبال، وبذلك يفسرون فروسيتهم وروعة خيالهم.

دون شك ثمة هنا شيء من الدماء الأوربية ـ ومن الصعب الافتراض أنّ إقامة الفرسان الصليبيين هنا عدّة مئات من السنين يمكن أن تمرّ في براءة تامة ـ لكن المارونيون هم في المحصلة ساميون نمطيون جداً، ويمكن أن تعود أنسابهم أبعد كثيراً إلى ما قبل الحملات الصليبية، ويمكن عدّهم أحفاداً أصلاء للمسيحيين السوريين الأوائل الذين وجدوا أنفسهم خلال قرون طويلة وعصور التاريخ المتقلبة بين أقربائهم العرب نسباً ولغة وثقافةً. واستطاعوا المحافظة على إيمانهم بدينهم وطموحاتهم التحررية. نسافر عبر لبنان مرات كثيرة في اتجاهات

متعددة. نعبر قرى مارونية كثيرة، ونتوقف هنا وهناك. من الصعب اليوم أن نميّز بالعين المجردة مع أية مجموعة بشرية نتعامل، فالمسيحيون كلهم على اختلاف مذاهبهم، والمسلمون، وحتّى الدروز يبدون لنا متشابهين. الرجال بطرابيشهم، وقاماتهم المعتدلة، ووجوههم المستديرة على الأغلب، وشعرهم الأسود، والنساء في ملابسهن الداكنة الطويلة السابغة، وملامحهن التوراتية - هذه هي الملامح النمطية؛ ولفترة طويلة مضت كانت كل جماعة لها أزياؤها الخاصة المستقلة، لكنها لا يمكن أن تصادف اليوم إلاّ نادراً. هؤلاء الناس يعيشون في مساكن مضيئة، مبنية من الحجر، ذات واجهات تذكر جزئيّاً بالأسلوب الروماني وجزئيّاً بالأقواس والموضوعات الزخرفية القوطية «والأوضح أيضاً تأثيرات العمارة الصليبية»، والأسقُف الطينية المستوية المميزة، التي يُحافظ عليها بحرص شديد باستخدام «المحادل» الحجرية التي تقبع على الأسطح مثل مدافع مفكوكة. في القرى أمام المنازل باحاتٌ صغيرة يُحرص على نظافتها وحدائق، ومدرّجات على المنحدرات تتمّ زراعتها، وأحياناً بأشجار الزيتون؛ التي تمنح طابعاً مميّزاً لطبيعة البلاد الفقيرة والحزينة إلى حدّ ما. وذات المناظر الواسعة والساحرة، ولاسيّما في الأمسيات، عند غروب الشمس في البحر. على طول الطرق الكبيرة للسيارات، وفي المدن الصغيرة علامات تأوربٍ واضح أو لنقل أيضاً تحوُّل لبنان إلى عالم التجارية. فبجانب أكشاك البسطات، والدكاكين المحلية، تُشاهد هنا بشكل متكاثر يافطات وإعلانات تجارية، وبضائع أوروبية، ومحطات الوقود، وتنكات البنزين التي تستخدمها المارونيات اليوم بدلاً من الجرار الطينية العالية الخالدة لجلب الماء من الينابيع. ويستغرب أكثرُ من حاجٍ بالتأكيد أنه قبل مدّة ليست ببعيدة كان

السفر يتم عبر وديان لبنان إلى بعلبك، كي تُسلك طريقٌ قديمة جداً بعدها خلال دمشق للوصول إلى بحيرة طبريا، أما اليوم ففي عدة ساعات يعبر الحاج السلسلة الجبلية، متجاوزاً في طريقه مضخات البنزين الحمراء، والبيوت الفقيرة المبنية من تنكات البنزين، والنسوة في ملابسهن الداكنة الطويلة وعلى رؤوسهنَّ التنكات الزرق، وإعلانات عديدة لشركة Preu Michelin "ميشلان". حقاً، إنّ الثقافة تسير اليوم بالسيّارة، وأدلاؤها هنا هم السائقون المحليون، الذين يقودون بمهارة رائعة، بل أيضاً بتهوّرٍ رائع «رأينا في طريقنا في أثناء سفرنا لعدّة أسابيع على الطريق عدداً من السيارات المحطمة بعنف، وتابوتاً مغطىً بعلم الصليب الأحمر للأراضي المقدسة كان لرفيق بعثتنا الأب Orfali أورفلي الفرنسيسكاني الناصري مولداً، ومدير إعادة إنشاء وترميم الكنيس اليسوعي في كفر نعوم، الذي دهسه سائق ما على الطريق الممهدة قرب القدس».

في طريقنا عندما ننظر إلى القرى الجبلية الهادئة، التي يبدو كل شيء فيها متصلاً بتراث القرون البعيدة، وإلى الكنائس والأديرة المتناثرة بكثافة في كلّ لبنان، وإلى السكان الممتلئين شرفاً ونبلاً وأصالة، ومن الجهة الثانية عندما نكون أمام مثل هذه المدن المليئة بالسيارات والتأورب الظاهري فإننا نستوعب بسهولة كبيرة أنه تجري في أزمنتنا تحولات أساسية في النظام الاجتماعي والفكري للمارونيين. الرحالة والحجاج والمؤلفون السوريون الذين يصفون لبنان رافعين عالياً القيمة الأخلاقية لمسيحيي الشرق الأدنى ينشرون أمامنا لوحات زاهية للقرى الهادئة السعيدة، والناس الأتقياء، المؤمنين بالسلطات الكنسية والعائلية، الذين يسعدون بالقليل، وبالظروف المتواضعة، لكن التي تسدّ متطلبات البقاء. والرهبانِ أصحاب النخوة المضيافين، ذوي

الفضائل الإنجيلية، المتفرغين لخدمة الرب والوطن. أما روايات أيامنا فهي على الأغلب سلبية، والصحافة السوريةالمعاصرة ترسم بألوان حزينة وضع لبنان الحالي.

العوامل الفاعلة كانت هنا كثيرة، فطوال الفترة التي كان فيها لبنان منيعاً، كانت السلطات الحكومية مسيطرة شكلياً على الجبال، وكان سكّانها يستطيعون العيش بهدوء محتفظين بعاداتهم التقليدية وأفكارهم؛ كانت القرى المارونية آنذاك محكومة بنظام أبوي - ديني « بطريركي - ثيوقراطي»، وكلُّ شيء كان يجري بشكلٍ اعتيادي، ولم تمتدّ نظرة أحدهم إلى أبعد من الحدود القريبة؛ إلاّ راهب ما متعلم ربما يسافر خارجاً للدراسة إلى روما أو أيضاً إلى فرنسا. ومع مرور الوقت بدأت الحركات الاجتماعية ضدّ السادة الإقطاعيين، وبالارتباط بهذا ظهرت الميول الرافضة وحركات العنف على خلفية العداوات القبلية والدينية، التي تغذيها العوامل الدولية بمهارة. أدّت هذه الحركات إلى إعادة صياغة المفاهيم الاجتماعية- السياسية، وفي الوقت نفسه شيئاً فشيئاً إلى تأثيرات اقتصادية نقدية أقوى، وجُرُّ لبنان إلى شواطئ المصالح الاقتصادية أدى إلى تغيير الأفكار والعلاقات الاقتصادية. الهجرة الواسعة إلى المدن الساحلية، وخصوصاً إلى بيروت، والهجرة المتعاظمة أكثر فأكثر على الأقل في العقود الأخيرة إلى أمريكا، وانهيار لبنان اقتصادياً زمن الحرب، بسبب محاصرة الشواطئ السورية، وملاحقات الحكومة التركية، وضرورة التلاؤم مع الظروف الجديدة لما بعد الحرب، وأخذ المبادرة للمشاركة بفاعلية أكبر في الحياة العامة. وأخيراً التحوّل المرتقب أو الذي قد تمّ فعلاً في مجال فكرة الهوية الوطنية عند اللبنانيين - هذه هي العوامل التي تشكّل الأجيال المارونية المعاصرة. رؤية معقّدة،

صعبة بالإحاطة، بل هي أكبر صعوبة إن تعلّق الأمر بتوقع تلك الإمكانيات التي سيظهرها المستقبل. التحولات الاجتماعية المتعاقبة والمهمة جدّاً هي في النهاية ظواهر مفهومة تماماً بسبب التطوّر الاقتصادي والنزاعات العسكرية؛ لكننا هنا أمام شيء أكبر، وبالتحديد أمام تشكّل الأيديولوجية السياسية الخاصة، القبلية أو القومية أو الوطنية. إذن وبالنتيجة صراع التوجهات ؛ والنزعات الايجابية أو السلبية، وبكلمة واحدة أزمة الأفكار.

المارونيون الذين كانوا يعيشون في مجتمعات محكومة بطريركياً والذين كان واجبهم الوحيد الانصياع لإرادة المسنين، ومعرفتهم الوحيدة العلوم الكنسية؛ لم تكن لديهم ببساطة إمكانية امتلاك أيديولوجية سياسية محددة. والرابط الأساسي الذي جمعهم معاً وميّزهم عن تنوّعات الجيران المسلمين والمسيحيين كان الدين، وبالتحديد الطقوس الدينية قبل أيّ شيء آخر. وفي مجال الحكم الذاتي لجبل لبنان كان مطلبهم الوحيد عدم تدخل الدولة في القضايا المارونية.

المشاعر الدينية كما التوجهات الاستقلالية قربتهم من أوروبا، ومنذ فترة الاتحاد بالكنيسة البابوية أضحت هذه العلاقة ذات أهمية في المجال العقيدي. أما حصول فرنسا على حق حماية المسيحيين في المشرق بموجب معاهدة فرنسيس الأوّل مع سليمان سنة 1535 حول حماية المسيحيين في الشرق، فقد كانت واقعة أساسية بالغت في عواطف لبنان الميالة إلى فرنسا لقرون طويلة. وفي النهاية كانت الأرضية مهيّأة بتراث الصليبيين الذي استيقظ في فترة الاضطهاد الديني. هكذا إذن نشأت أسطورة عن الدولة المسيحية العظيمة في الغرب، التي ترعى مسيحيي الشرق، والتي علقت عليها آمال النصر والمجد في المستقبل.

في الواقع إنّ فرنسا قامت بحماية الموارنيين بفاعلية كبيرة. فقدمت الممثليات القنصلية نفسها أمام السلطات التركية كراعية لمصالح المسيحيين الشرقيين. وللأهمية الكبيرة التي حازها القناصلة في المشرق إلى السنوات الأخيرة قبل الحرب، كانت التدخلات عادة فعالة، وعلى كلّ حال شكّلت عائقاً مهماً أمام جور الإدارة التركية. فأنشأت في بداية القرن السابع عشر بالإضافة إلى القنصليتين في طرابلس وصيدا القنصلية الجديدة في بيروت التي كانت تزدهر بنجاح، وأسندت إلى عائلة الخازن من شيوخ المارونيين. وهكذا كان للمارونيين ممثلين من بني جلدتهم يحمون مصالحهم و طموحاتهم. والملوك والوزراء الفرنسيون كانوا يراسلون البطاركة وآل الخازن؛ فالحماة لم يكونوا أقوياء فقط بل عطوفين أيضاً.

في تلك الأزمنة أيضاً مع بداية القرن السابع عشر حدث تقارب أوروبا مع مسيحية الشرق، مما فعّل المخططات السياسية لقيام دولة مسيحية في المشرق. ومن بين الأمراء اللبنانيين احتلّ المقدمة " أمير الجبال العظيم" الدرزي فخر الدين الذي أنشأ دولة مستقلة «1634.1598» ضمّت جبل لبنان و الشواطئ البحرية، وأقام علاقات تجارية وسياسية قوية مع الغرب. ومن أعماله إعادة بناء وتوسعة بيروت، وتكثير سكانها، التي ما زالت حية في ذاكرة هذه المدينة التي كانت المكان المفضل لإقامة الأمير أفكاره العمرانية الكبيرة. «وماتزال تثير إعجابنا المساحات الهائلة التي أمر بزراعة أشجار الصنوبر فيها لتكون موانع اصطناعية فاعلة ضدّ زحف الرمال.وغير ذلك من أعمال»، وبالإضافة إلى بيروت الجديدة وسّع أضخم ميناء في ذلك الوقت في صيدا، وحدّث تحصيناته، وأضاف إليه خانات عظيمة. وأدار تجارة نشيطة مع الغرب. ومنذ ذلك الوقت سكنت عائلات أوربية

كثيرة في المدن الساحلية، وأخذوا العادات الشرقية، وهؤلاء هم في أيامنا أجداد المشرقيين، غير الودودين غالباً، الشطّارِ، طمّاعي القرش، ذوي الأصول الهجينة. فخر الدين نفسه بعد توسيعه أملاكه، سافر إلى أوروبا كي يبحث عن دعم في بلاط الميديشيين[1]، وبعد عودته أخذ يغرف أفكاره الإدارية من النماذج الحكومية التوسكانية. ويدعم ازدهار الأدب والفن. وتستقبل أوروبا الأخبار عن الحاكم المسيحي في المشرق بفرح، وتعلّق عليه آمالاً بعيدة. لكن الذي ظهر بعد ذلك هو أنّ السلطنة كانت أكثر قوّة؛ وقضت على انجازات دولة الأمير، وقطعت رأسه الذي سقط في القسطنطينية بأمر السلطان.

اتّبع فخر الدين سياسة مسيحية، مستوعباً أنه باستناده فقط على دول أوروبا المسيحية يمكن له أن يحتفظ بسلطته. لم يكن هو نفسه مسيحيّاً، بل مؤمناً بعقيدة الدروز. وبالإضافة إلى التقارب السياسي جرى في أيام الأمير المفعم بالحيوية توثيق العلاقات الثقافية، في الحقيقة جر الاتحاد بالكنيسة البابوية ابتداء من القرن الخامس عشر المارونيين إلى مجال التأثيرات الغربية. لكن العلاقة الحيّة تحددت بعد ذلك من تاريخ تأسيس البابا جريجور الثالث عشر للسيمنار الشرقي في روما سنة 1584، الذي خصّص في المقام الأوّل للكنائس البابوية في المشرق. الرهبان المارونيون الشباب بدءوا هنا يقومون بأبحاثهم اللاهوتية، ويعملون بعد ذلك على تقدم سريع للدراسات الفيلولوجية «اللغوية» الاستشراقية. ومع بداية القرن السابع عشر نرى العلماء القساوسة المارونيين في فرنسا يشرفون على الدراسات الاستشراقية. أحدهم واسمه غابرييل سيونيتا كان يحاضر في قسم اللغات الشرقية

---

1 ـ الميديشيون: هم حكام فلورنسا منذ عام 1469، واشتهر عنهم أنهم كانوا يرعون الآداب والفنون. (المترجم)

في الكلية الملكية Collège Royal وهي اليوم« الكلية الفرنسية Collège de France». وأتى وراء العلماء أيضاً جامعو التبرعات الذين جالوا في أوروبا كلها يجمعون الصدقات للأوقاف الدينية، ووصلوا إلى بولونيا، يروون للمؤمنين الفضوليين الأخبارَ حول حياة المسيحيين تحت حكم السلاطين. كان جامعو الأموال أولئك ذوي مشارب مختلفة، لكنهم على كلّ حال شكّلوا أيضاً وسائط اتصال. فهذا مارتشين ماتوشيفيتش Marcin Matusiewicz آمر القلعة الليتواني يروي في منصف القرن الثامن عشر كيف أنّ " مسيحياً من قساوسة المارونيين كان يجمع الصدقات من كلّ البلدان الأوربية كي يحرر عائلته، ووالديه، وأبناءه من الأسر الذي فرضه عليهم باشا القاهرة الجديد. وهذا ما يقوم به بشكل أخرق كلّ الباشاوات الجدد لجشعهم وكرههم للمسيحيين. في الحقيقة كانوا كثيرين هؤلاء القساوسة المارونيون من جبال لبنان، لكنّ هذا كان حقيقياً؛ فقد كان لديه كتاب من الأمير ميكواي شيروتكا كان قد أعطاه لجدّه الأكبر ... وأيضاً الهتمان الليتواني الأكبر والأمير قائد الجيوش الليتوانية بعد عدّهما هذا الكتاب وثيقة صحيحة أنعما عليه بعطفهما الكريم". عجباً وهل وصل العلماء المارونيون إلى بولونيا؟! نعرف على كلّ حال أنّ المستشرق الماروني الكبير القس عريضة الذي قضى عدّة أعوام في فيينا قد رعى فاتسواف جيفوسكي الأمير تاج الفخر لاحقاً، وعلمّه أصول العربية وأثار فيه الفنتازيا الشرقية.

وفي الوقت نفسه بعد سقوط فخر الدين فإنّ الحياة في لبنان مضت في سكينة، لكن بصعوبات؛ السلطات التركية حكمت الجبال من الخارج إلى حدٍّ كبير. وهكذا فإنّ المارونيين والدروز عاشوا في الواقع حالة استقلال ، لكنهم كانوا مجبورين أيضاً أحياناً على تحمل

مضايقات الحكومة؛ الملطفة جزئيّاً بتدخلات القناصل. ثمّ مع نهاية القرن الثامن عشر يظهر من جديد تماماً بعد مئتي سنة من فخرالدين أمير درزيٌّ ذكي ومقتدر، يمدّ بشير[1] سلطته على لبنان كلّها والساحل أميراً عظيماً جديداً للجبال، ويحافظ عليها خلال خمسين سنة. وفي المحصلة ضمن ظروف سعيدة حيناً ومتبدلة : كان على بشير أن يترك سلطته أربع مرات كي يعود إليها بعد ذلك من جديد في اللحظات الملائمة.رحّبت أوروبا من جديد بأمير الجبال الجديد باعتراف كامل، ورأت فيه من يكمل خطط فخرالدين؛ والمقاتل حامي العقيدة. القس إجناتسي هوفينسكي الذي عاش فترة ما في لبنان سنة 1839 في أثناء رحلته إلى القدس، قام بزيارة الحاكم المسنّ، ومدحه متأثراً بمظهره:" الطيبة والسكينة التي تملأ ملامحه النبيلة"، وركّز على ورعه وإيمانه الحماسي. في الحقيقة كان الأمير بشير حاكماً اعتيادياً شرقيّ النمط. وصل إلى السلطة بعد قتله أقرباءه بوحشية. وكان يحكم بدماثة ووحشيّة، ومكر ومداهنة، لا يعرف الارتياب إلى نفسه طريقاً فيما يتعلق بتصرفاته. كان على الأغلب معمّداً، لكن بحسب الظروف السياسية كان يعلن أنه مسيحيّ مرة، ومرّة أخرى أنه مسلم أو درزي، ومن أجل التأكيد كان لديه في قصره في بيت الدين دور عبادة ورجال دين من كل هذه الأديان. حاكم بهذه الصفات استمر بفضل المكائد والدبلوماسية، جالباً على نفسه سخط الأسياد الاقطاعين الكثر، وجالباً عداوة المجموعات القبلية التي تعايشت إلى هذا الوقت بسلام. في فترة الحرب الطويلة بين تركيا ومصر محمد علي[2] التي دارت رحاها في الدرجة الأولى على الشواطئ=

---

1 ـ بشير الشهابي: أمير لبناني تولى الحكم سنة 1789، حالف محمد علي باشا ضدّ الاتراك1831، بنا قصراً فخماً في بيت الدين واجتمعت إليه طائفة من الأدباء والساسة والإداريين، نفاه الانكليز إلى مالطة 1840 فتركيا. (المترجم)

2 ـ محمد علي (1769ـ1849) باشا مصر الذي وصل إلى الحكم بعد حملة=

السوريةكان للأمير الداهية إمكانية لا بأس بها لتأكيد سطوته. وفي عام 1840 انتهت سلطة الأمير التقدمي التي استمرت نصف قرن، ونفي إلى القسطنطينية بطلب من انكلترا، حيث أنهى حياته المغامرة بعد عشرة أعوام.

كان الميراث بعد الأمير محزناً: فوضى، صراعات داخلية مستمرة، وغزوات، اضطرابات دموية بين الجماعات القبلية المتنوعة. وليس بشيراً وحده صاحب الذنب هنا، بل هناك أيضاً أسباب أبعد، لكنها أيضاً مهمة بشكلٍ ما. إلى هذا الوقت كان لبنان موضوع تعاطف أوروبا. وكان، يمكن أن نقول، موقعاً عمليّاتياً أساسياً مثاليّاً، أرادت أوروبا الانطلاق منه في صراعها مع الشرق الإسلامي. وأصبح لبنان مع الوقت المنطقة التي بدأت تتقاطع فيها مصالح الدول العظمى المهتمة أكثر فأكثر بمصير الإمبراطورية العثمانية الضخمة. إنّ قيام الدولة المصرية الموحدة والقويّة التابعة اسميّاً فقط للسلطنة، وحملة إبراهيم باشا على رأس الجيوش المصرية ضدّ تركيا، فعّلت كثيراً هذه الاهتمامات، التي عبرت نفسها في تدخل القوى العظمى الفعلي في السياسة الداخلية في سورية. ظهرت في لبنان شخصيّات مفعمة بالحيوية مثل الليدي ستنهوب المشهورة، التي قامت بنشاطات سياسية قويّة، ومثل ابن جلدتنا Maksymiljan RyŁŁo مكسيميليان ريوو الذي اضطلع بدور مهم في ثورة المارونيين ضدّ الجيوش المصرية، والقناصلة والتجار والمبشرون، الذين لم يعودوا يظهرون فقط كممثلين لأوروبا المسيحية، بل في أحيان كثيرة بدور الوكلاء السياسيين، إنّ الإحاطة بوضع لبنان في النصف الأوّل من القرن

=نابليون، واستمرت أسرته في حكم مصر إلى أواخر النصف الثاني من القرن العشرين. (المترجم)

الماضـي «التاسـع عـشر» ليـست إذن سـهلة؛ فتركيـا ومـصر، والأمـير بشير، والأحوال المتغيرة لكلّ جماعـة مـن جماعـات الـسكان، وأخـيراً الخلفيـة العامـة للسياسات الأوربيـة فيمـا يتعلق بالمسألة الـشرقية. كلّ تلك العوامل الأسـاسية، تعقد إلى حدود بعيدة طبيعة العلاقـات الحاليـة. ومع ذلك ليس صعباً ملاحظة أنّه على كلّ خلفية هـذه اللوحـة المشوشة ترتـسم الظـلال الكـبيرة للتنـافس الفرنـسي ـ الانكليـزي . إنـه الـصراع علـى سـورية، ومـصر، والطريـق إلى الـسودان، وفـارس، والهنـد ذو الراهنيّة اليوم كما في أيام حملة نـابليون المصرية، مثل أبـو قـير، مثل لبنـان، مثـل الفاشـودا، أو قنـاة الـسويس، وأخـيراً مثـل الانتـداب "A" لعصبة الأمم ـ هذه هي فقط مراحل هذا الصراع الذي يجري علـى هـذه الجبهة الضخمة منذ عدّة مئات من السنين.

كـان أحـد عقابيـل تنـافس الـدول العظمـى الـسياسي في منطقـة لبنـان تعميق الخلافات والكراهية بين السكان الـدروز والمـارونيين، المـارونيون ذو الميول العاطفية الفرنسية واجهوا بشكل متعاظم الـدروز الـذين كـانوا أداة طيّعة بيد الدولة التركية والانكليز بشكل غير مباشـر؛ ولم يكـن العامل الاجتماعي محايداً في معارضة المُلاك الإقطاعيين الدروز أيضاً. في العامين 1844- 1845 وقعت اضطرابات كبيرة بين الـدروز و المـارونيين، لكـن بعـد بـضع عـشرة سـنة تحولـت الأمـر مجـزرة كـبيرة، سـببت نتـائج بعيـدة أثـرت في وضـع الـسكان وإعـادة انتـشارهم، واسـتتبعت تـدخّلاً عـسكريّاً خارجيـا قويـاً وأوصـلت بالنتيجـة إلى وضـع جديـد، يـؤمّن لمسيحيين اللبنـانيين حكمـاً ذاتيـاً نـسبياً تحـت حمايـة سـتّ دول أوروبيـة عظمى.

بدأ ذلك كلّه ظاهرياً مصادفة إلى حدٍّ بعيـد عنـد نهايـة أيـار 1860. تطورت مشاجرة اعتيادية في بيت مرّي القرية اللبنانيـة فـوق بيروت، إلى

المعركـة الـتي شـاركت فيهـا الوحـدات التركيـة إلى طـرف الـدروز، وتعالـت الـصيحات لـذبح المـسيحيين. القنـصل العـام الفرنـسي القـس دي بنتيفوجليو de Bentivoglio لم يستطع التدخل لدى السلطات التركية لإنهاء المواجهة، توسعت المعركة إلى لبنان كلّه، أصبح يوسـف كـرم قائـداً للثـوار المـارونيين. كـان المـارونيون أكثـر عـدداً، لكـنّ الـدروز بزّوهم في الشجاعة الحربية، وقوّة تنظيمهم وجودة إدارتهم للأمور. بعـد احتلال زحلة المعقل الماروني الرئيسي بالحيلة، وصلت إلى الطريق نحـو دمـشق الوحـدات الدرزيـة - التركيـة وعـبر لبنـان الـشرقي إلى غوطـة دمشق. هـاجم بعض سـكان دمـشق المتعـصبون الـذين كـانوا يكـرهـون المسيحيين مع القادمين أحياء المسيحيين التي دمرت ونهبت. فقط تدخُّل عبد القادر القائد الجزائري المشهور الـذي كـان يعـيش في دمـشق بعـد استسلامه للفرنسيين، الـذي بـدأ في حمايـة المـسيحيين علـى رأس بـضع مئـات مـن العـرب، اسـتطاع أن ينهـي المجـزرة الـتي أثـارت الـرأي العـام الأوربـي. قـدّرت الإحـصاءات نتـاج المذبحـة بـاثنين وعـشرين ألـف قتيـل مـسيحي، نـصفهم سـقط في دمـشق، تـدمير 360 قريـة، تهـديم 560 كنيسة، 28 مدرسة، 48 ديراً، وكلُّ هذا خلال شهرين.

لم تـستطع فرنـسا النظـر مكتوفـة اليـدين إلى ذلـك الـذي حـدث في سورية، كـان الأمر يتعلق بالتأكيد بحمايـة المـصالح في الـشرق وبهيبـة الإمبراطورية. ولهذا أرسل نابليون الثالث إلى سوريةقوّة احتلالية مؤلفة مـن 12 ألـف بندقيـة، كـان عليهـا أن تبقـى في سوريةنـصف سـنة حتّـى يعـود الوئـام بحـسب مضمون الاتفاقيـة الدبلوماسـية، وبحـسب كلمـات الاتفاقيـة " لمساعدة الجيـوش الـسلطانية في الانتقـام مـن إهانـة البـشرية". لم يـستطع الجنـرال de Beaufort de Hautpoul دي بوفـور دو هـوتبـول قائد القوة مع ذلك أن يحقق مـكاسـب سياسية استثنائية؛ هـاجم الـدروز

حقاً لكن هؤلاء مستبقين الهجوم كانوا قد تركوا مواطنهم اللبنانية في مجموعات كبيرة وهاجروا إلى حوران، جنوب دمشق، أما النشاطات التالية فقد أحبطتها مداهنة السلطات التركية الماكرة، والمؤامرات الانكليزية. أما النشاطات الأكثر نجاحاً فقد قام بها رجال الدين الفرنسيين، الذين بقيادة القس Lavigerire لافيجوري كبير أساقفة أفريقيا وكاردينالها لاحقاً، ومؤسس الجمعية الاتحادية التبشيرية: Frères des Ecoles chrètiennes أخوة المدارس المسيحية«الفرير»، التي أتت بمساعدات مفيدة للمارونيين ضحايا المذبحة والناجين المحتاجين للرعاية الذين أصابهم الدمار. وثمة أيضاً أنشطة قامت بها البعثة الفينيقية Mission de Phènicie التي كانت ذات صدى أكبر وأشرف من الاحتلال العسكري، هذه البعثة الأثرية بإدارة أرنست رينان، التي استطاعت بالمساعدات التقنية التي قدمتها السلطات العسكرية القيام بأبحاث علمية على الشاطئ شكلت انعطافة في تاريخ العلم. إنّ لوحة نهر الكلب المثبتة على الصخور قرب الطريق الساحلية الخالدة بجانب الكتابات المصرية والآشورية واليونانية واللاتينية، التي تخلد اسم الجنرال de Beaufort de Hautpoul بوفور دو هوتبول وضباط جيشه، ليست فقط إذن نصباً لتخليد انتصارات الجيش الفرنسي العسكرية وحدها.

انتهى الاحتلال بعد فترة الستة الأشهر المتوقعة بالاتفاقية، بدأت بعدها محادثات القوى العظمى الدبلوماسية فيما بينها، ثمّ المفاوضات مع تركيا. في صيف سنة 1861 تحدد النظام الجديد للبنان. وكان الوضع مسهّلاً بهجرة الدروز؛ فالجبال أضحت مسكونة في أغلبيتها الكبرى بالمارونيين. تمّ إحداث متصرفية لبنان ذات الحكم المركزي «دون بيروت ووادي البقاع» ولها حاكم مسيحي، يتم تعيينه من قبل

السلطان بعد أخذ رأي الدول العظمى؛ ولخلق توازن مع التأثيرات الفرنسية أحدث المجلس الكبير الذي عين فيه اثنان من كل مجموعة دينية، إذن من المارونيين، والدروز، والشيعة، واللاتين - الأورثودوكس، والبابويين، وأخيراً المسلمين؛ وكان من مهام هذا المجلس النظر في تحديد الضرائب، ومراقبة الحسابات، وتقديم المشورة للسلطة الحاكمة، وكان إحلال الأمن واجب الشرطة المحلية اللبنانية، ولكن في الحالات الاستثنائية كان للحاكم حق طلب المعونة العسكرية.

وهكذا، كان هذا هو الأسلوب الذي بدا فيه تقريباً reglèment organique "النظام العضوي"، الذي حكم به لبنان المسيحي خلال نصف قرن، أي من سنة 1864 حتى نشوب الحرب. لم يكن نظاماً مثالياً، وقد ترك كذلك مجالاً للتصرفات الشخصية، والمؤامرات السياسية، لاسيما فيما يتعلق بتعيين الحاكم، ولكن على كل حال وجد لبنان في شروط استثنائية، وشكل دولة دستورية صغيرة إلى حدٍّ ما، تحت حماية ستِّ قوى عظمى أوروبية؛ وفي حال الخلاف مع السلطات التركية كان القنصل الأوروبي دوماً عامل كبح لتجاوزات السلطات المستبدة. تلك الأعوام كانت فترة هادئة نسبياً إن تعلق الأمر بالأحداث الخارجية، وصعبة إن كان الأمر يتعلق بالعلاقات الاقتصادية، فالفقر في الجبال كان يتسبب بهجرات كبيرة، ولاسيما نحو مصر وأمريكا. وفي المجال الاجتماعي بدأت هنا تصفية مفاهيم النظام الإقطاعي وشرع ببناء فكر بالمفهوم الديمقراطي، وإلى حدٍّ ما جزئياً بالفكر القومي. المؤتمر السوري الذي ضم سنة 1913 المسيحيين والمسلمين في عضويته الذين أتوا من سورية، ومصر ومن

وراء البحار، كان مرحلة مهمة في بناء الأيديولوجية، والأمرُ ذو الدلالة من حيث توجهه السياسي والثقافي أنه عقد في باريس.[1]

ألغت الحرب في بداياتها تماماً الحكم الذاتي في لبنان، وبعد ذلك جلبت أيضاً الملاحقات من السلطات التركية «والألمانية»، وأخيراً المجاعة نتيجة للحصار البحري. تلك هي الأعوام التي يسميها المؤرخون السوريون بفترة "لبنان الشهيد". وسع السياسيون السوريون المقيمون في المهجر أنشطتهم الفرانكوفيلية «المحبة لفرنسا»، رابطين مستقبل سوريةبانتصار فرنسا؛ وفي الوطن كان الأسطول الفرنسي الذي يحرس الشواطئ السوريةقد احتل طوال فترة الحرب جزيرة أرواد الصغيرة القريبة من طرابلس[2] معلناً أنّ ذلك المخلص المرتقب منذ قرون يتربص في القرب. وبين أجواء الهزيمة والانتظار تعاظمت الأماني.

سنوات ما بعد الحرب هي فترة خيبة الأماني، ظهر المخلص من وراء البحر، لكن ليس كما تمّ تخيله، وليس قوياً إلى حدٍ كافٍ، وليس رائعاً إلى حدٍ كبير. العودة إلى العلاقات الطبيعية لم يكن سهلاً هكذا. وانعكس وضع فرنسا القلق في المشرق بوضوح على العلاقات السورية. ذلك الحامي القديم أضحى إدارياً، وجلب مكاسب معينة، لكنه رتّب أيضاً واجبات، و فرض أعمال السخرة لمصلحة الدولة، وشرّع بعض قواعد الحياة المشتركة. والسوريون إذن لا يشعرون من

---

1. كان هذا المؤتمر نقطة تحوّل حاسمة في الفكر السياسي العربي،وقد عقد في القاعة الكبرى للجمعية الجغرافية بشارع سن جرمان في باريس، وممن حضره عبد الحميد الزهراوي وشفيق بك المؤيد، وشكري العسلي، وعبد الغني العريسي، وعبد الوهاب الانكليزي، وغيرهم، وقد حكمت المحكمة العثمانية بالإعدام على الذين حضروه ونفذ الحكم في أكثرهم، وقد أعاد محمد كامل الخطيب نشر الكتاب الصادر حول المؤتمر بعنوان: المؤتمر العربي الأول، المنعقد في القاعة الكبرى للجمعية الجغرافية، دمشق: وزارة الثقافة 1979. (المترجم).

2 . طرطوس هي المدينة الأقرب إلى أرواد في الساحل السوري.(المترجم)

جديد أنهم أسياد في بلادهم أنفسهم؛ والمارونيون على الأخص لا يفهمون لماذا تعاملهم سلطات الاحتلال كالآخرين تماماً، دون إطلاق يدهم باستغلال البلاد سياسياً كجائزة مقابل ولائهم سنوات طويلة. لم يستطع الواقع إشباع تلك الأماني التي منّى المارونيون أنفسهم بها في أقسى سنوات فقدانهم حريتهم. ومن هنا سوء التفاهم، والخيبة، والكراهية.

إنّ سوريا تعاني أزمة واضحة فيما يتعلق بميولها الفرنسية. ومن الصعب التوقع : هل بعد فترة الخيبة ستعقد موازنات هادئة لمعرفة حجم المكاسب الحقيقية لفترة ما بعد الحرب في مناحي الحياة المتنوعة. أم هل ستتجه عواطف الفئات العريضة اتجاهاً آخر، ليس معروفاً أيضاً هل في حالة تمكن الجهة المعادية لفرنسا ستظهر في المقدمة العواطف الميالة نحو انكلترا، أو العروبة، أو أيضاً الوطنية السوريةأو اللبنانية؟ المستقبل هو من سيظهر ذلك. وبالتأكيد علينا أن ننتظر طويلاً كي تتضح صورة الوضع. لكن حالياً نرى السكان المحليين يتصرفون دون مبالاة نحو الفرنسيين، ونحو دولة لبنان الكبير المستقل ذاتياً. وأنه فيما يتعلق بالفرنسيين يلاحظ المقت الواضح إذ إنّ الصحافة البيروتية تنظر ناقدة الحكومات الفرنسية، ومن ناحية ثانية فإنّ الجنود الفرنسيين الذين يؤدون خدمة صعبة في سوريا يختبئون من بغضهم السكان المحليين ويرون في المسلمين أعداء ظاهرين، وفيما يتعلق بالمارونيين فإنهم يعاملونهم باعتدال فاقد للثقة.

يعلن الأيديولوجيون من الطرف الأول والثاني الصداقة والثقة التامة؛ الصحافة السوريةمليئة بعواطف الودّ نحو فرنسا. والكتاب الفرنسيون لديهم عواطف صادقة نحو سورية وبالأخص نحو لبنان. لا يمكن أن نشك في حقيقة هذه العواطف التي تمتلك تقاليد عريقة، لكن لا نعرف هل تأثيرها هو كبير إلى ذلك الحدّ كي تؤسس قاعدة لها قابلية الاستمرار في الشرق الأدنى.

تدمر

لا يمكن أن أنكر أنّ الدافع الذي حضّني على رحلتي السورية كلّها هو إمكانية الوصول إلى تدمر قبل أيّ شيء آخر.

هناك كلمات لها رنين ساحر، وهناك الأماكن التي تشع بجمال نادر، وثمة ذكريات الماضي التي تغرق في لُجّة زرقة البُعد. لا ريب أنّ تدمر هي واحدة من تلك الكلمات، وواحدة من تلك الأمكنة، وهي أيضاً واحدة من تلك الذكريات. أطلال المدينة العظيمة وسط الصحراء، التي كانت يوماً إمبراطورية عظيمة، هي اليوم مخابئ للبدو، كشفت بالمصادفة بعد قرون من النسيان تاريخ عظمة الدولة التدمرية القصير، المتعلقة بشكل وثيق بالملكة زنوبيا الرائعة والمقاتلة. وأخيراً بقصة " ملكة تدمر" الرومانسية غريبة الأطوار الليدي أستير ستنهوب، كلّ هذا يبدو غريباً غير قابل للتصديق، كأسطورة تاريخية ضخمة، تقريباً كسيناريو فيلم أو حكاية خرافية، تُحكى في حرملك بيوت بغداد القريبة.

الإنسان المعتاد على الفحص الناقد للأشياء التي يراها أمامه، وكذلك على أحاسيسه الخاصة أيضاً، يتساءل مستطلعاً: من أين بالتحديد جمال خرائب عاصمة الصحراء الغريب هذا، ولماذا تدمر بالتحديد أحيطت بهذا الاعتراف السماوي الخاص، ولماذا يرغب بزيارتها بالتحديد السياح الذين ملّوا روما والأهرامات. في العالم كلّ هذه الآثار، وكلّ هذه الطبقات التاريخية المتغيرة المتنوعة التي تقبع

الواحدة على الأخرى، وكل هذه الذكريات الباقية في الأساطير. سوريةنفسها هي أرض الآثار القديمة. وطبقاتها الثقافية تؤمّن للباحث والفنان موضوعات لا تنضب. فهنا آثار، وذكريات أكبر وأنبل، وذات أهمية فائقة لا تقارن؛ وثمة الآثار التي تنبض حولها الحياة الجديدة، والذكريات التي لها قوّة العودة إلى الحياة. وثمة الآثار التي غطيت بالأعشاب وعرائش اللبلاب، لكنها اليوم موضوعات لكتب الأدلة السياحية فقط. ففي ساحة معركة الخرائب الكونية القديمة هذه كان من الصعب العثور على مكان بشهرة هذا الجمال الغامض مثل تدمر.

الأسباب وراء هذا الأمر كثيرة، منها ربما قبل أي شيء آخر حقيقة كون تدمر واحة، وفوق هذا كونها في قلب الصحراء الواسعة. وللواحة دوماً فتنة ما شعرية، مع أنها تبتعد كثيراً عن تصوراتنا التقليدية. وربما أيضاً حقيقة كونها اليوم شيئاً غرائبياً، بل إنها كانت كذلك من وجهة نظر الإمبراطورية الرومانية القديمة: فقد وقعت تدمر على خطوط تماس أملاك روما وفارس. وتنازعتها التأثيرات الغربية والشرقية. ليست هذه مستعمرة رومانية عادية، بل لديها جمالها الخاص المستقل، وتمنح شخصية زنوبيا المتميزة تدمرَ فتنةً هائلة بتاريخ عظمتها الغريب وسقوطها، اللذين وصلا إلى نهايتهما بسرعة خاطفة. إنّ نسيان تدمر التام، وسقوطها، وبدوَنتِها، أعطتها أيضاً سحراً كبيراً في المرحلة التي أصبح فيها شعر الأطلال موضة. الجوّ الشرقي، والبدو، الذين يسكنون بين أعمدة المعابد القديمة، ضاعفت أيضاً جمالها في الأزمنة التي بدأت الموضوعات الشرقية تصبح شعبية فيها.

إنّ صعوبة الوصول إلى تدمر كان أيضاً سببا من أسباب شهرتها. مدينة الأطلال الهائلة، الواقعة في قلب الصحراء الضخمة، والمسكونة

بالبدو الرعيان، كانت في الحقيقة مقطوعة تماماً عن العالم، وهكذا تمّ نسيانها إلى حدٍّ بعيد تماماً. أهمية تدمر وازدهارها القصير ارتبطا مباشرة بالصحراء، فعندما كانت الصحراء آمنة تمكنت المدينة من الازدهار كعقدة تجارية مهمة بين سواحل البحر الأبيض المتوسط وبغداد أو شواطئ الخليج العربي، ولكن عندما بدأ البدو كثيرو النشاط والحركة بمهاجمة القوافل، انقرضت التجارة العابرة للحدود، ومعها ظروف ازدهار المدينة وفي النهاية المدينة ذاتها. تعود الأخبار الأخيرة عن تدمر القديمة إلى ما بين القرنين الرابع والخامس للميلاد، وذلك عندما ترك جنود الفيلق الاليري[1] الذي كان مرابضاً في الواحة كتاباتهم التي دلت على إقامتهم هنا، ثمّ بعد ذلك بفترة قصيرة كان عليهم أن يسحبوا حامياتهم من الصحراء بعد قتالهم العقيم ضدّ سكان كثبان الرمال، فبقيت من كل عظمة المدينة القديمة الأبنية الضخمة فقط والينبوع الذي جمع حول إشعاع مياهه الخيرة أشجار النخيل والبشر. ظلّ ذلك الينبوع الذي مكّن في يوم ما من قيام المدينة الضخمة مركزاً للصحراء. وكلّ محاولة للسيطرة على المساحة الهائلة بين سلسلة جبال لبنان الشرقية والفرات كان عليها أن تتجه نحو تلك الواحة.

لا ريب أنّ تلك الأيام المصيرية المتبدلة التي مرت بها سوريةبعد سقوط الإمبراطورية الرومانية، وفي هذا الصراع المستمرّ بين الناس وتنازع سيادة الشرق والغرب لم يكن للصحراء أن تبقى ساكنة ودون

---

1 ـ الاليريون هم سكان شمال البحر الادرياتكي إلى نهر الدانوب وشبه جزيرة البلقان الذين كانوا جزءاً من أهل الحضارة الإغريقية ولاحقا من الإمبراطورية الرومانية، وازدهرت بلادهم مدة طويلة وظهر قادة عظام بينهم مثل الاسكندر المقدوني وفيليب الثاني وغيرهما (المترجم).

فاعلية، لكننا لا نعرف في الحقيقة شيئاً عن تاريخها خلال بضعة عشر قرناً. بنيامين اليهودي الاسباني الذي وصف تجمعات أبناء ديانته في القرن الثاني عشر للميلاد، كان عليه أيضاً العبور في تدمر، حيث لقي هناك ما يقرب من ألفي يهودي، يديرون تجارة عابرة للحدود مستفيدين من هدوء الصحراء غشبياً. لكن لابد أنّ تجارتهم كانت مراكز مالية مؤقتة، مادمنا لا نعثر على أثر لها بين الأطلال اليوم. بعد ذلك بقرنين حاكم عظيم ما لا نعرف عنه شيئاً، لكنه كان فاتحاً عابراً قد هزم البدو، وترك على الهضبة المرتفعة فوق المدينة القديمة قلعة دفاعية كبيرة من كتل الحجارة الثقيلة وأحاطها بخندق عميق. ذلك الحصن المرتفع حمى المدينة وما حولها، لكنه لم يستطع أن يقهر الصحراء، مادام ينتصب فارغاً منذ قرون. من الذي بنا هذه القلعة الهائلة؛ العرب أم التتار؟ وكيف كان تاريخها؟ لا ندري! ولا ندري عموماً ما الذي حدث في الصحراء، يمكننا عموماً أن نؤكد أن الصحراء وصلت أو فصلت الشرق عن الغرب؛ منطقة بين النهرين عن سواحل البحر الأبيض المتوسط، وهذا بحسب طبيعة علاقة البدو بالسكان المستقرين؛ تلك الخيام السود بنات الصحراء المرتحلة دوماً، التي تنقل على أسنمة الجمال كانت عاملاً رئيساً فاعلاً في التاريخ، وذلك التاريخ مازال يتكرر إلى أيامنا.

كانت أصداء أخبار صُمّ تصل إلى الغرب عن وجود مدينة أطلال بين الرمال. لكنّ أحداً لم تكن لديه الشجاعة لولوج قلب الصحراء، كي يرى بعينه الحقيقة التي تقبع وراء تلك الحكايات الخرافية، التي كان البدو يروونها. إلى أن استطاعت قافلة تجار تابعة لمحطة تجارية انكليزية في حلب الوصول إلى تدمر سنة 1678 بقيادة وليم هاليفاكس William Halifax كي تقع في أسر البدو. وجب على

التجـار الأركيولـوجيين شـديدو الفـضول أن يغـادروا الـصحراء غـير الودودة بعد دفع فدية عظيمـة. لكـن تأكـدت الأخبـار علـى كـل حـال عـن حقيقـة وجـود آثـار تـدمر، الـتي أشـعلت حماسـة المكتـشفين. بعـد ثلاثـة أعـوام في كـانون الثـاني سـنة 1691 وصـل هـؤلاء التجـار أنفسهم إلى تدمر مرة أخرى بعد وصولهم بالتأكيد إلى اتفـاق مـع البـدو، حيـث قـضوا أربعـة أيـام. قـام هاليفـاكس بنـسخ بـضع عـشرة نقـشاً إغريقيـاً وعـدّة نقـوش تدمريـة. وظلـت الأخبـار عـن هـذا الاكتـشاف فـترة طويلـة مثار تعجب علماء العالم الأوروبي.

وفي القرن الثامن عشر استطاع أكثر من عشرة أشخاص أن يصلوا إلى تـدمر، مـع مواجهـة أخطـار كـبيرة دومـاً. في عـام 1705 كـان علـى رجلين فرنسيين أن يكونا هناك؛ همـا Girard جيرار، وSautet سـوتيه وقد جمعا عدّة كتابات حجرية ونشرا منظـراً بانورامياً للآثـار. بعـدها بـثلاثين عامــاً زار عــالم الطبيعــة تورتوكــو Tourtechot تــدمر. أمّــا المعلومات التفصيلية عن آثار تدمر فندينُ بها للبعثة الأثرية الانكليزيـة بــإدارة وود Wood وداوكينــز Dawkins هــذان الانكليزيــان بعــد اسـتئجارهما سـفينة، أبحـرا عـبر البحـر الأبـيض المتوسـط، وفي أثنـاء زيارتهمـا الآثـار القديمـة، قامـا بأخـذ المخططـات، ونـسخ مـا أمكـن نسخه، ونقل ما أمكن نقله. سـافرا إلى تـدمر سـنة 1751 تحـت حماية مئتي فارس من فرسان آغا حسية، واسـتطاعا في أثنـاء إقامتهمـا خـلال خمـسة عـشر يومـاً بـين الخرائـب أن ينجـزا مجموعـة مـن المخططـات الدقيقـة، ونـسخ كتابـات حجريـة عديـدة، ويرسمـا لوحـاتِ صـورِ آثـارٍ عديدة، وقد نشرت هذه اللوحات بعد ذلك في ألبوم صور عظيم.

وقرب نهاية القرن نشر Citoyen Cassas "المواطن كاسا" في ألبوم رائـع Voyage pittoresque de la Syrie "رحلـة مـصورة إلى سـورية"

«طبع في السنة السادسة للجمهورية»، وقد ضمّ عدّة لوحات جميلة تظهر مناظر من تدمر. «وقمنا بإعادة نشر بضع عشرة لوحة من ذلك الكتاب وأضفناها إلى كتابنا ». وكان على هذا الكتاب ذي القيمة الفنية العظيمة، أن يضع حجر الأساس لشهرة تلك الآثار بين مجموعة عظيمة من الناس الذين لم تكن الأركيولوجيا تثير حماسهم. وفي هذا الوقت تقريباً نشر فولني كتابه حول فلسفة التاريخ : Les Ruines " الآثار" الذي خصصه لتأملاته حول تبدلات المصائر في التاريخ. ولابد أن آثار تدمر المرئية في شمس الغروب هي التي منحت المؤلف تلك الرؤية العميقة عن آليات مسارات تطور التاريخ. فقد وجد الكتاب صدىً هائلاً بالتزامن مع التغييرات السياسية في أوروبا عبر القرون، وقد كان مقروءاً في بولونيا بشغف، لأن ذلك الموضوع كان راهنا جدّاً. وهكذا أصبحت تدمر رمزا.

تلك هي - بين قوسين - سخرية الأقدار الغريبة. إنّ فولني على الرغم من إدّعاءاته العريضة - لم يستطع الوصول إلى تدمر، ومع ذلك فإنّ خطابه الحماسي عن بعد قد كان إلى حدٍ بعيد سبباً في إدخال هذه المدينة الغريبة في حيز تفكير الإنسان الأوروبي المتوسط الثقافة. إذن لننظر إلى تدمر بعيني فولني اللتين لم تلمحاها أبداً.

نشاهد هنا مع بداية القرن التاسع عشر من جديد أناساً آخرين. موضة حب الرحلة، والمغامرات، والرومانسية، والشغف بالشرق، تُبرِز نمط رحّالة أصيل. حوالى سنة 1810 الرحالة السويسري بوركهارت مرتحلا عبر بلدان الشرق منتحلاً اسم الشيخ إبراهيم سلبت منه تماماً كل أمواله في تدمر. ثمّ بعد عدّة أعوام أضحت الأطلال مسرح حفلة غروتسكية[1] - خيالية: الليدي استير ستنهوب بصحبة البدو، ناثرة

---

1 - غروتسكية: صفة للفن الزخرفي الذي يصور أشكالاً بشرية وحيوانية غريبة مختلطة بكائنات خيالية ورسوم أوراق نباتية. يعود المصطلح إلى الكلمة=

النقود يميناً وشمالاً تباشر ملكةً على تدمر ملكها الذي استمر أربعة أيام. وبعد ذلك بمدة قصيرة يعيش المغامر فاتسواف جيفوسكي في زيٍّ بدوي عيشة الرّحل، وينقش على أعمدة تدمر رموز اسم حبيبته. وبعدها من جديد الليدي ديجبي Lady Digby في منتصف القرن تتزوج شيخ البدو، وتوفر لسياحٍ أغراب سعادة مناولة زوجها كأس الوداع. ثم بعد ذلك قائمة لا بأس بها من الآثاريين والسياح. كانت الطريق متعبة تطلبت عدّة أيام في الاتجاه الواحد. وفوق ذلك كانت خطرة ومكلفة «الليدي ستهوب علّمت البدو أن يروا في كلّ غريبٍ كريزوس[1] الذي ينثر الذهب». وهكذا حتى فترة ما قبل الحرب لم تكن هذه الرحلات كثيرة جدّاً، إذ لم يزر تدمر أحدٌ أحياناً طوال عدّة أعوام. ويؤكد «Baedeker»[2] الدليل السياحي الصادر قبل الحرب بوضوح ضرورة تأمين الحماية الشخصية، بل يؤكد عدم إمكانية الاستغناء عنها، وذلك بحسب الظروف السياسية.

لا تسبب زيارة تدمر اليوم مصاعب كبيرة. تقطع السيارة الطريق من حمص بمدة ستّ ساعات إلى ثمانية. والحرب روّضت الانفلات البدوي. والواحة مركز استراتيجي ذو أهمية كبيرة، فلا يمكن أن تترك دون حماية مناسبة. ومنذ بداية الحرب أضحت تدمر عقدة

=الايطالية جروتسكا المشتقة من "جروتا" أي المغارة، لأنّ هذا الأسلوب الفني اكتشف أوّلاً في الصور الجدارية على مبان أخرجتها الحفريات من باطن الأرض. (المترجم: عن معجم مصطلحات الأدب لمجدي وهبه بتصرف).

1 ـ كريزوس: هو قارون عند العرب؛ آخر ملوك ليديا (نحو 560 ـ546 ق.م) اشتهر بثروة أسطورية جمعها من مناجم الذهب الغنية في مملكته. (المترجم:عن أعلام المنجد).

2 ـ Karl Baedeker (1801-1859): كارل بيديكر كتبي وناشر ألماني، كان ينشر كتب الأدلة السياحية المتقنة، وقد أطلق اسمه فيما بعد على كل منشور سياحي لشهرة مطبوعاته.

عسكرية هامة، كان الهدف منها تأمين الأمن في الصحراء إلى حدٍّ ما، وحماية وسائط النقل العابرة من الشرق نحو مناطق المعارك. بعد انتصار الحلفاء، والاعتراف بالانتداب لفرنسا على سورية، احتلت كتيبة فرنسية تدمر، وأنشئت محطة طيران صغيرة أيضاً، لكن نشيطة جداً. وتبين أنّ الطيران وسيلة رائعة للسيطرة على عامل السرعة البدوي. وتحت حماية «الميترولوز» الرشاش السريع والطائرة بدأت حركة التجارة تزدهر بين سوريةالطبيعية وبغداد وفارس، ووجدت في الواحة التدمرية مركزاً مهماً وآمناً. وكما كان الأمر في الماضي أضحت تدمر المركز الأهم للتجارة العابرة للحدود. فقبل الحرب إن كانت قافلة واحدة على الأكثر طيلة العام تصل إلى حلب قادمة من الشرق أو أخرى إلى دمشق عبر تدمر؛ فإنّ فترة الانتداب تشهد قوافل جمال عديدة، وقوافل سيارات شحن «برليتية» أكثر وسيارات ركاب صغيرة تقطع الصحراء السوريةجيئة وذهاباً، متوقفة في تدمر؛ حركة نقل البضائع والأشخاص سارت في خط بيروت - تدمر - بغداد - طهران. إذن بهذه الطريق ترّحل إلى فارس الأقمشة القطنية المصبوغة من مدينة ووج[1]. وبهذه الطريق أيضاً يسافر المغامرون والسياح نحو بلاد الرافدين وفارس بسيارات مريحة. وللحقيقة أقول إنّي طوال الطريق كلها من حمص إلى تدمر وفي أثناء العودة لم أصادف سيّارة واحدة، بل فقط قافلة جمال تنقل البدو ذي الوجوه الهزيلة، الذين كانوا يغيرون أماكن إقامتهم. لكن الوضع كان آنذاك غير واضح مرة أخرى بسبب ثورة الدروز والاضطرابات في دمشق، مما أثر كثيراً على حركة ونشاط البدو وأصاب بالشلل حركة الترانزيت عبر الصحراء.

يتم السفر إلى تدمر من حمص أو من دمشق. أجبرنا الوضع القلق في

1 - ووج: أشهر مدينة بولونية مختصة بصناعة النسيج. (المترجم)

منطقة دمشق على اختيار الطريق من حمص. يصل القطار إلى حمص نفسها مباشرة من بيروت، حيث تنتظر السيارات هناك. حمص مدينة لا بأس بحجمها، ذات بضع عشرة ألفاً من السكان. لا تثير فضولاً على الأغلب، تقع على طرف الصحراء؛ يكفي الصعود إلى الهضبة التي كانت القلعة تقف عليها، كي تتأكد أنّ هذه المدينة تعيش من البادية، لكونها خالية وجافة. تؤكد أطرافها غير المأهولة تقريباً عدم قدرتها استيعاب تجمعات سكانية ضخمة. إن كان ممكناً أن نسمي الصحراء بحراً بمعنى من المعاني؛ فإنّ حمص هذه ستكون المدينة الميناء؛ فإلى هنا إلى الأسواق الغنية يأتي أنصاف البدو والبدو كي يقوموا بمبادلة بضائع الرعاة أو غنائمهم بالأقمشة والسلاح. البيوت المبنية من الحجارة، العارية ذات الطابق الواحد، تعطي شوارع المدينة منظراً حزيناً على الأغلب. الشوارع المرصوفة بالحجارة وغياب الخضرة تعطي انطباعاً بالسجن الهائل الذي اقتلع أحدهم سقفه، كي تزيد الشمس الحارقة في عقوبة السجناء. الناس هنا في الشوارع قلّة، تتركز الحركة بحسب العادة الشرقية في البازارات العالية المسقوفة، حيث البضائع الكافية؛ الحرير بألوانه المتنوعة، والأوعية النحاسية والبرونزية، والخضار من ضفاف العاصي تسرّ وتغري عيون العابرين المتعبين من وهج القيظ. كما هو واضح كان للمدينة ماضٍ عسكري . فلا بدّ أن التجارة كانت تجري مع الصحراء بحماية محصنة . نشاهد هضبة لا بأس بارتفاعها «Tell تلّ»، ويتضح لنا فيما بعد أنها مركومة صناعياً، وعليها تقف أطلال قلعة. اعتادت المدينة التي تعيش من علاقاتها الدائمة بالبادية على حرية الصحراء بوضوح، وثارت أكثر من مرّة حتى هذه الأيام الأخيرة؛ القلعة التي نعاين أطلالها قام إبراهيم باشا قائد الحملة المصرية العسكرية بنسفها في الهواء عند

قيام عصيان ما في المدينة، وفي أثناء الحوادث الأخيرة في سورية لم تكن المدينة هادئة أيضاً. لكن من السهل الحفاظ على الأمن في المدينة أكثر من الجبال أو في الصحراء. إذن محاولات الثورة تمّ القضاء عليها بسهولة فائقة. من على تلّ القلعة نشاهد مدينة بيضاء كبيرة مع سلسلة من المآذن والقباب، ومجمّعاً كبيراً من الأسواق، وأبنية حكومية وعسكرية جديدة، وسكّة الحديد، وفي العمق مياه العاصي، وسلسلة الجبال، ونحو الشرق تجمعاً غير كبير من البيوت البيض، تلك هي القرى الأخيرة على أطراف الصحراء.

تغادر قافلة السيارات عند الظهيرة نحو الشرق آخذة طريق سيرها بسرعة، كي تصل إلى تدمر قبل الغروب. والصحراء هي المكان الأفضل بالنسبة للسائقين الذين يحبون القيادة العنيفة. السهل الواسع المغطى بخضرة قليلة، والذي يصبح بعد ذلك عارياً تماماً، وحيث لا تصادف أية عوائق طبيعية؛ بل حتى شرطياً بعلامة على ساعده يمكن أن ينظم الحركة، وحيث لا خوف من صدم زميل مسرع يأتي من الجهة المقابلة؛ يسمح السائق لنفسه أن يجري أنواع التجارب على صبر المسافرين معه. لا وجود للطريق طبعاً، لا الطريق فقط، بل أيضاً لا وجود للشاخصات، تتم القيادة في اتجاهٍ معين وكفى! إذن jalle jalla "يالللا يالللا!" ويبدأ السباق، تلحق سيارة ما بأخرى، ثم من جديد سائق ما غرٌّ لهذا المركب الصحراوي الحديث يهبط قصداً في حفرة ما، كي يثير انتباه الراكب بصدمٍ ذقنه، maalesz! "معليش" لم يحدث شيء! وبشكل متبادل تسرع سيارة وراء أخرى، تتجاوز إحداهما الأخرى على بعد عدّة أمتار؛ فيستنشق المسافر كل غبار الصحراء الذي تحركه عجلات السيارة المتقدمة، وتغطيه طبقة سميكة من الماكياج الأصفر الترابي. كل أنواع الترجي أو الطلب تمر دون أن

تعطي نتيجة، يبدي السائق عند تهديده مظهراً أسنانه البيضاء السليمة جاهزيته للملاكمة، أو يترك المقود من يده ويبدأ بالتلويح بأية أداة تقع في يديه بوجه المسافر الجري جداً. من الضروري مشاهدة مثل تلك السحنة الكريهة مرّة أخرى كي تفهم سعادة الغزاة من الشرق والغرب ومن الشمال أو الجنوب، الذين فلقوا جماجم مثل هؤلاء الرجال حتى أسنانهم التي يكشفونها دون إحساس. هذه الأنماط بالتأكيد بدوٌ سابقين؛ والأفضل أن تعاملهم جيّداً، لأن السكين ترتحل مع السيارة إلى أيّ مكان مهما يكن في الصحراء البعيدة، حيث لا يمكن لأذكى طيار مراقب أن يكتشفهم. وفجأة يتعجب الناس من سيد مسنٍ يظهر، لا من هنا ولا من هناك، يسوق سيارته الخاصة؛ لكن هذا شيء طبيعي وبسيط، وليس كما تهيأ لنا سابقاً.

وما دام المسافر يصل في نهاية الأمر إلى قناعة أنه لاشيء ينفع مع ذلك كله، وأنه من الأفضل عدم مواجهة الشر، وبكلمة واحدة: «معليش» maalesz؛ فليبدأ إذن بإجالة بصره في الصحراء. إنّ تصورنا الخالد ذا الحكم المسبق عن الصحراء هو بحكم العادة تضخيم لركامٍ رملي أو ببساطة أيضاً للشاطئ الرملي، الذي تتناثر عليه هنا وهناك خيام الرعيان البيض، وهياكل النوق العظميّة، معلمّةً طريق القوافل. إنّ الصحراء في الواقع مختلفة عن ذلك تماماً. إننا مباشرة فوق سهل ذي أعشاب فقيرة، وبالتدريج تصبح الأعشاب أكثر ندرة، ثم أكثر فأكثر تختفي، لكن مع ذلك ما تزال أمامنا بعض النباتات المتفرقة. نتجاوز مباشرة غير بعيد عن حمص قرية صغيرة، يسكن أهلها في مساكن طينية تشبه العُلب، ثم بعدها من جديد قرية لبيوتها الطينية هيئة مخروط السُكّر الكبير. السكان المعتادون على مرور الغرباء لا يلقون إلينا بالاً، فقط عربي ما مسن، يقترب منّا متباهياً

بإيطالية مكسّرة، تعلمها في المهجر، ويؤكد لنا أنه مسيحي. نشد على يدِ أخينا في يسوع، ونتابع سيرنا إلى الأمام. أمامنا سهل متموج بلطف وعارٍ تماماً، محاط من الشمال والجنوب بحزام جبلي مائل للزرقة، وهذا بكليته يقدم منظراً رتيباً جداً لكنه مشرق. لا يُرى أحدٌ على مدّ البصر أو أيّ شيء غير تموج الأرض، والنباتات الفقيرة، يقفز طائر ما أحياناً يشبه الذعرة «الفرّي»، وتظهر في السماء بقعةٌ منقضّة بسرعة - طائر ما كاسر. ونصادف باستغراب شديد عدة مرات أسراباً من طيور مالك الحزين تتبختر بهدوء فوق الأرض الجافة. آكلات الضفادع الوقورة كان لها سحنة وطنية جادة وكأنها كانت ترعى في وادي الإوز. لكن لاشيء في المحصلة سوى الفراغ الهائل: تظهر هنا ليلاً الضباع، ومع ذلك كلّه ليس لدى علماء الحيوان هنا عملاً كبيراً ليقوموا به. لا تُرى حيوانات هنا؛ بل أكثر من ذلك لا وجود للبشر. نحن قافلة السيارات الوحيدة على هذه المساحة الهائلة. ونادراً فقط نصادف قوافل الجمال التي تشد بعضها بعضاً متجهة نحو حمص، أو ناقلة الرعيان نحو مكان آخر، منظر هذه الحيوانات الثمينة التي تغذ السير بإيقاع منتظم الواحدة تلو الأخرى حاملة أمتعة بدوية متواضعة، هو منظر مؤثر ومشرق. ومن جديد نصادف هنا راعيين بدويين فتيين نحيفين وسيمين، وتقريباً جميلين بالمعايير الكلاسية، يرتديان ملابس القديس يوحنا المعمدان. وفي مكان ما أبعد يظهر كلب أعجف ثم يبدأ بمطاردتنا، تبدأ فرحة السائقين، الذين يهاجمون الجائع المسكين، يطاردونه بالسيارات، ويطلقون عليه النار؛ مثل هذا الوحشي، عندما لا يستطيع أن يطلق لهذا السبب أو ذاك على الضيف، لابدّ أن يروّح عن نفسه بإطلاقه على الكلب، وإن لم يتوافر الكلب لأطلق على طيور الذّعرة، أو حتى على طيور مالك الحزين.

Jalla Jalla "يـالا يـالا !" الليـل يقـترب، وفي الظلمـة يمكـن أن نتـوه بسهولة. تخيم العتمة بسرعة، وأمامنـا مسافة طويلـة مـن الطريـق. نسير في الظلمـة. لاشـيء مرئـيٌّ أمامنـا أو خلفنـا، ليلـة غـير قمـراء. أتعجـب كيـف يميـز السـائقون وجهـة سـيرهـم. لكـن كمـا يبـدو إنهـم يسوقون معتمدين على الحظّ السعيد. للقيـادة في ليل نيسان الصحو الـدافئ في الظـلام العميـق دون طريـق واضـحة سـحرها الخـاص، لاسـيما بعـد انقضاء ساعات الظهيرة الحارقة، فيتوهم المرء أحيانـاً وهمـاً قاطعـاً أنـه يعـرف هـذه الظلمـة وهـذا الجـوّ جيّـداً: السيارة تـنير شـريط الطريـق الضيق، والظلال التي ترافقنـا تـوحي لنـا أننـا نسير في غابـة مظلمـة مـا نمـر خلالهـا بطريـق حراجيـة عريضـة ممهـدة، فعلـى سـبيل المثـال قـرب Niepòłmnice "نييبوومنيتـسـه"[1]؛ تمتـد مثـل هـذه الطريـق الحـراجيـة طـويلاً جـدّاً؛ وتتحـول الصحراء السـورية إلى غابـة بولونيـة، لكـنّ أنـوار السيارة وحدها التي تبحث عن الطريق هـي التي تبدد الوهم. نعبر أخيراً ممـراً ضـيقاً بـين الهـضاب؛ نحـن كمـا هـو واضـح علـى الطريـق الصحيحة، شـيء مـا يبـدو أمامنـا في الظلمـة ليس هـو بـالبرج أو بـالعمود العريض الهائل، واحـدة ثـم أخـرى ثـم ثالثـة، تلـك هـي المـدافن البرجيـة، تنتصب مقابر النبلاء التدمريين على قارعة الطريق عند مـدخل المدينـة. تحـرس المقـابر المدينـة، وتنظـر برفعـة إلى النـاس الـذين يتوهمـون أنهـم سيعيشون إلى الأبد.

لابـد أن يتعـايش المـرء حقـاً مـع حقيقـة أنـه لابـدّ أن يمـشي علـى تلـك

---

1. Niepòłmnicka Puszcza واحدة من أكبر تجمعات الغابات السهلية في بولونيا، تقع في هضبة ساندومييج، تتألف من الأشجار الإبرية: السرو والصنوبر، وأشجار السنديان، وهي محميات طبيعة وطنية، يصل عمر بعض أشجارها إلى ألف سنة، كـشجرة السنديان المسماة Dąb Jagieły التي يبلغ قطر جذعها 650 سم. (المترجم).

الطريـق الـتي مـشى عليهـا الـسابقون في هـذه الأرض مثـل والـد Aeneasإينياس[1] وTullus تولوس[2] وAncus أنكوس الجبار[3]، وأنه في يوم ما، بعـد سـنين معـدودة، بـل ربمـا مـن specie aternitatis "وجهـة نظـر الخلــود" لــيس بعيــداً جــداً، خلفاؤنــا؛ النــاس أو حتــى أقــزام الهومونكولـوس[4]سـيزورون أطـلال مدينـة وارسـو وينقبـون بـأجهزة تقنيـة دقيقـة المساكن في شـارع تـشيرنياكوفا، كـي يتعرفـوا علـى أسـاليب الحياة المنزلية عند البرابـرة. لكـن لـيس لـديّ الآن سـوى رغبـة مـشاهدة تدمر. وأوجل أيّ نقاش حول اليوم الآخر إلى مجلس شـرب القهوة المـرة. أمسيت الآن مثـل ذلـك الـسائق الـذي يريـد أن يـصل إلى هـدف رحلتـه بأسرع ما يمكن.

تسرع السيارات مثل حميرٍ تعدو نحو حظائرها خلال السهل الفسيح الذي تلوح عليه أشباح أبنية. هذه تدمر! نتوقف أمام عدّة منازل صغيرة، مضاءة بنور أصفر ضعيف ينبعث من فنار ما. وقليلاً إلى الأمام تبدو عدّة أكواخ طينية واطئة، وفي العمق بناء معبد الشمس العملاق الذي يـثير وهمـاً بـصرياً كأنـه يهجـم بـسرعة نحونـا. يـدخل عـدد مـن العسكريين، وتجتمـع ثلّـة مـن الـسكان المحليين في أثـوابهم الطويلـة البيـضاء، وعمـائمهم، وطرابيـشهم. كـلّ هـذا المشهد المرتجـل مخـرج بشكلٍ جيـد، وغـني بـالألوان، حتـى يمكـن أن يكـون موضـوع لوحـة انطباعيـة. لكـن تـذكرنا الـسيارات بحقيقـة أن هـذا الـشرق مـبطّن

---

1 ـ شخصية أسطورية إغريقية وهو ابن أخيل وفينوس. (المترجم).

2 ـ ملك روما الثالث (673- 642ق م). (المترجم).

3 ـ ملك روما الرابع(642- 617 ق.م). (المترجم).

4 ـ هو الإنسان المستحدث صناعياً بحسب الرؤية القروسطية بواسطة الكيمياء والسحر. (المترجم).

بأوروبا إلى حدٍّ بعيد. لكن هل جمال الألوان والأشكال مرتبط: بماذا يتنقّل أحدهم.

كان السّياح القلائل قبل الحرب يستخدمون خيامهم الخاصة التي ينصح الدليل السياحي آنذاك أن تكون بحراسة الجنود؛ كانت تتم زيارة المدير أو المحافظ أو القائد المحلي قبل ذلك، وتحلُّ un petit cadeau "الهديةُ الصغيرة" المشكلة، ومن كان يتوقّع القليل وجب عليه أن يستفيد من ضيافة الشيخ عبد الله. حركة السياح حالياً، ولاسيما العابرين، ارتفعت كثيراً، بل إنّ ثمة فندقان هنا، واحد باسم فاخر Grand Hotel "الفندق الكبير"؛ بناء رمادي بطابق واحد مبني من الاسمنت المسلح، في موضع متطرف، لكنه ما يزال ضمن المدينة القديمة، حيث يمكن المبيت والطعام بطريقة بدائية جداً لكن مؤدّبة. والآخر باسم رومانسيHŏtel du Dèsert "فندق الصحراء"؛ علبة طابقيه، تلاصق طريق السيارات، قرب المعبد. مأهول بالسائقين خصوصاً، ويبدو أن الإقامة فيه أكثر مرحاً من الصحراء كلها. قبائل القافلة الأركيولوجية المشاغبة بدأت نقاشاً حاراً حول أحقية الحصول على الغرف أو بدّقة على الأسرّة « عنصر التفكير الفندقي في المشرق هو السرير عادة، كما في بيوت الراحة لدينا في جبال التاترا». سيارتنا التي كانت تنتظر بصبر دورها، حُوّلت إلى الشيخ عبد الله. نمشي ثلاثتنا Les deux Polonais "البولونيان" والقس النرويجي - الأمريكي ذو الشعر الفاتح، والرابع رفيق تعاستنا في السيارة أسعد نصوحي، تركي أصيل من استانبول، ترك صحبتنا إلى رفقة تدمري ما مُحدث، وجد فيه قرابة دمٍ بعيدة. فذهب معه للمبيت في المعبد. « الكلّ هنا ما عدا الجيش والفنادق يعيش في المعبد». ودّعَنا إذن بخطبة عصماء طويلة - مع تأخر الوقت - عن أهمية القرابة في العالم الإسلامي.

ربما لم تكن الضيافة عند الشيخ مريحة جداً، لكنها مؤثّرة مع ذلك، صادفنا في حياتنا كثيراً فنادق من الدرجة الثانية والثالثة؛ لكن المبيت في قصرِ شيخٍ، وأن تكون ضيفاً لديه حدثٌ لا يتكرر كلّ يوم. يبدو ذلك القصر فاخراً جدّاً ليلاً. بوابة ضخمة تقود إلى الباحة، حيث توجد في العمق غرف الضيوف، وعلى اليمين بعد البوابة ثمة غرفة تعدّ فيها القهوة طيلة ساعات النهار، وعلى اليسار غرفة نوم، أما الـFumoir "غرفة التدخين" وصالون الشيخ، والحرمك فهي في مكان ما أبعد في الداخل، يبدو منزل الشيخ في ضوء النهار أقلّ جمالاً: هو ببساطة بناء طيني، واسع جدّاً، لكنه أيضاً بدائي جدّاً، أمّا الشيخ عبد الله فهو لا ريب أعظم شخصية في المنطقة، نؤدي واجب زيارته، شاكرين له ضيافته، مظهرين سعادتنا أنّا نراه بصحة جيدة. ويحيينا الشيخ بدورة بنبالة، مرحباً بنا ناقلاً راحته بين صدره وجبينه، وبعدها على الطريقة الأوروبية Shake Hands "مصافحةً". دار الحديث باللغة الفرنسية والعربية؛ نحن نتكلّم الفرنسية، لكن الشيخ يتحدث العربية، بالطبع لا نتفاهم تماماً. لكن الذي يقال عادة في زيارات المجاملة أشياءُ اعتيادية. فقط الرائد الفرنسي، وهو على الأغلب قائد الكتيبة المحلية هنا له علاقات صداقة جيدة مع الشيخ، وكان يثرثر بطلاقة معه بالعربية بسرور. كان يواصل الحديث على جبهتين، ساحباً دخان النارجيلة الأبيض التي يدخنها مشاركةً مع عبد الله. وكان أشخاص جِسام صامتون يجلبون إلينا القهوة والحلويات والسجائر، ثمّ يقفون صفّاً حذاء الحائط. لم يكونوا أعواناً مطيعين لصاحب الدار، أو أيضا أصحاباً متواضعين يشاركون في الجلسة.

الشيخ هو إنسان هرِمٌ اليوم؛ وجه بطريركي تقليدي، تزينه لحية غزاها الشيب؛ شخصية نبيلة؛ ذات حركات متزنة تسمح بالاستنتاج،

أن المديح الذي تلقاه جماله الأسمر الرجولي من الرحالة عند نهاية القرن الماضي لم يكن مبالغة. السائحات التائهات في الصحراء الرومانسية مدَحنَه أيضاً بمدائح أكثر حرارة، لم تقتصر على النتاج الأدبي فقط. واحدة من تلك السائحات، وكانت معروفة في أعلى أوساط المجتمعات الباريسية، تزوجت البدوي الرائع وسافرت معه في رحلة شهر العسل إلى فرنسا. الكثير من الأوربيين قاموا برحلات رومانسية إلى الشرق، لكن أخيراً عند نهاية القرن سافر شيخ من تدمر في رحلة رومانسية إلى الغرب. لم تستمر المغامرة طويلاً؛ السيدة غريبة الأطوار عندما ملت جاذبية عبد الله، وتسلية البعل المفعم بالحيوية، كأنه بايزيد العصري، اشترت له أخيراً تذكرة العودة، فعاد الشيخ إلى دياره وأعوانه الأوفياء. ومنذ ذلك الوقت عندما يُسأل عبد الله عن عدد زوجاته؛ فإنه يضيف إلى عدد سكان الحرملك لديه واحدة أخرى" الزوجة في أوروبا"؛ ويحكي بسرور عن الأشياء رآها وراء البحار؛ ومن تلك الحكايات التي قصّها علينا أيضاً فهمنا بالتأكيد كلمات متفرقة فقط: مرسيليا، نيس، لافاييت جالاري.

ما إن يفتح المرء عينيه صباحاً يرَ أن أشخاصاً معينين يراقبونه بحذر من خلال النافذة، ننهض، فيدخل فوراً دون أي استئذان علينا أولئك الضخام أنفسهم الذين كانوا يصطفون بصمت قرب الجدار؛ ويبدءون الترحاب بنا بحسب الطقوس، بالعربية والإفرنجية. كل واحد منهم يتمنى لنا صباحاً سعيداً، وأجمل الأمنيات. هؤلاء هم أبناء البيت، الشيوخ، العبادلة، أو كما تحبون. لابدّ أن الشيخ يمسك بيديه بقوّة صولجان البطريركية لأنّ الجيل الجديد ضعيف الشخصية، محدد الحركة. قد يظن أحدكم أن هؤلاء الضيوف غير المدعوين بعد أدائهم طقوس الترحيب بنا، سيسمحون لنا أن نرتدي ملابسنا بهدوء، لكنهم

بعـد أن اسـتنفذوا ذخيرتهـم مـن المجـاملات الملاطفـة، يقفـون حـذاء الجـدار، يمـدون لنـا يـد المـساعدة في أنـشطة النظافـة الـصباحية، ويراقبـون بفـضول الأدوات الشخـصية البـسيطة. هـم كثـر و في كلّ مكـان . ووراء النوافـذ تلاحـظ أيـضاً تجمعـات بشرية أصـغر، تراقـب بفضول الأنشطة المهمة في غسل الوجوه وارتـداء الملابس علـى الطريقـة الأوربية. لم يستطع ڤواچمبيج أن يطيق أولئك النـاس الفـضوليين، أبـدى عـصبية، وأصـابه العبـوس جـراء هـذه المساعدة. وفي النهايـة اقترح علـى أحد المتفرجين أن ينظف له حذاءه. خطف ابن عبد الله الحذاء وعـاد بـه بعــد لحظــة، لكنــه لم يــسعد بالــشكر الجميــل لا بالعربيــة ولا بالإفرنجية، بل طلب أن يُدفع له ثلاثـين قرشـاً، ودعـم احتجاجـه بنظـرة وسحنة معبرة. حتـى إنّ ڤــواچمبيج المـسكين مرغمـاً علـى فـتح محفظـة نقوده كان قد فهم عدم الجدوى من امتناعـه. مـستحيل! إن مـن يمـسح الأمـيرُ حـذاءه عليـه أن يكـون كريمـاً كـرم الملوك. فمـن الـصعب أن تطلب من ارسـتقراطي كهـذا أن يتنـازل عـن كرامتـه بأقـل مـن ثلاثـين قطعـة فـضيّة. ثم تظهـر الأجيـال الأصـغر؛ صبيٌّ مـرح ونـشيط ربمـا في العاشـرة مـن عمـره، وبالتأكيـد حفيـد عبـد الله، الـذي كـان يـسلي السياح طوال النهار بمقالبه، وينشد بالإضـافة إلى ذلـك أشـعاراً مختلفـة بالفرنسية، ويكـرر جدول الضرب بالإنكليزية، ويقود الضيوفَ مساءً بين الخرائب مسلحاً بفانوس ضخم.

نخرج أخيراً إلى الفناء الذي هو فعلاً حظيرة ضخمة، محاطة بالأبنيـة، الحـصيرة الـضخمة الممـدودة في إحـدى الزوايا، تـدلّ علـى أنّ الاجتماعـات تتم هنا، ويلاحـظ أيـضاً أن القـسم النـسائي مـن الحـيّ مهتمٌ بإقامتنـا؛ مـن كـل اتجـاه، مـن خـلال الأبـواب المواريـة، ومـن علـى الأسـطح الواطئـة المستوية، تراقبنا عيـون فـضولية. في الحقيقـة لا يُهـتمّ كـثيراً في الـصحراء

بفصل الحريم، لا ترتدي النساء الملاءات، وينظرن مباشرة بجرأة في عيون من يصادفن من المارين، لكنّ الشيخ كما هو واضح يركز على تميّزه الاجتماعي محتفظاً بأسلوب معيشة أكثر صحة. نباشر فطورنا؛ على يمين المدخل الرئيسي تماماً من تلك البوابة التي تهيأت لنا ليلة أمس أنها ضخمة جداً، والتي تضاءلت خلال الليلة بشكل غريب، تقع صالة واسعة جداً، يحضّر فيها القهوجي المختص الشرابَ الأسود طيلة النهار، يدقّ حبيبات البن في هاونٍ خشبي مزخرف بترصيعات جميلة، ثمّ بعد ذلك يقوم بغليها لكلٍّ ضيفٍ على حده في أوعية مخصوصة، القهوجي الثاني كما هو واضح هو maitre d' Hotel "المِتر"، الذي يقدم الفناجين الصغيرة، يصبّ فيها جرعات القهوة، وعندما يرتشفها الضيف مادحاً، يستلم رشفة أخرى، وهكذا دواليك مادام يمدح. وتشرب القهوة مع أكلِ شيء ما طريٍ وحلو المذاق مقطّعٍ إلى مكعبات صغيرة، تشبه rachat-lokum "راحة الحلقوم"، حيث يمكن بعدها تدخين سيجارة والذهاب إلى الفطور في الفندق الكبير، كي يتمّ التفرغ بعد ذلك طوال النهار للآثار.

مدينة الأطلال عظيمة حقّاً، من حيث حجمها، كما من حيث جمالها الزاهي. عادة ما تشاهد الآثار ضمن عمارات وأبنية متأخرة، أو تكون قد أعيد تأهيلها. Forum Romanium "الساحة الرومانية" تبعث على الغمّ. ويجب على المرء أن يكون قادراً على أن يعزل نفسه عن بشاعة المحيط، واضطراب الشوارع المجاورة، كي يستطيع التشرد بمتعة بين الأعمدة المحطمة وقطع التماثيل. آثار المعابد القديمة في أثينا أضحت محاصرة بتوسع المدينة الجديدة، ومن جديد لابد من امتلاك مقدرة النسيان. فهناك حتى في الأمكنة التي وُجدت فيها الآثار بعيداً عن مساكن البشر، بنيت مطاعم كثيرة، وأكشاك بيع

التـذكارات، وثمـة حـراس كـثيرون ، ومراقبـو تـذاكر، وأدلاء متطوعون، ومصورون يلتقطون صوراً للسياح في أوضاع بطولية مبالغ فيها بين الأطلال، وباعة قطعٍ أثرية مقلدة، فلا بدّ أيضاً من امتلاك خيال واسع وصبرٍ كبير للانعزال عن الفوضى السياحية المميزة، وأنشطة التجارة.

لكن سحر تدمر لا يكمن فقط في عزلتها، مع أنّ جماعات الانجليزيات النحيفات، والألمانيات الممتلئات لم تبدأ بعد حتى بالوصول إلى هنا في حافلات شركة كوك Cook [1] ومؤكد أنّ ذلك سيحصل في المستقبل القريب، لكن تدمر مع ذلك ستبقى أمراً مميزاً دوماً.

المدينة هائلة، تمتد بآثارها على كل هذا السهل الفسيح، المحدود فقط من جهة بالهضاب، التي يظهر عليها ذلك الحصن القروسطي الغامض[2] ومن الجهة الثانية بغابة النخيل الخضراء التي تبدأ بالتناقص تدريجياً لتتصل بالصحراء. الآثار فقط على السهل، أعمدة ومعابد: مدينة الأطلال عظيمة، ويمكن لك أن تكتشف فيها من جديد الشوارع، والساحات، وخطوط المواصلات، وكلّ حيٍ من أحيائها. هكذا كان الأمر قبل بضع عشرة قرناً وبقيت كذلك إلى يومنا هذا. لا أحد قام ببناء شيء ما على هذه المقبرة الضخمة التي غطيت بالأعشاب الغزيرة. لا أحد قام بتخريب مقصود لأيّ شيء، إلاّ ربما بعض الآثاريين الذين استطاعوا أن ينقلوا إلى المتاحف الأوروبية التماثيل، وبلاطات المدافن المنقوشة، ولوحات الكتابات الحجرية. الأبنية القليلة التي تقع حول المعبد الأكبر

1ـ Cook: توماس كوك 1808 ـ 1892 إنكليزي مؤسس أوّل وكالة سفر في أوروبا، وكانت لديه مكاتب رحلات في كل عواصم أوروبا. (المترجم)

2ـ ثمة إشارات في بعض المراجع أن القلعة قد أنشئت في عهد فخر الدين المعني، وقد قام ببنائها لإحكام سيطرته على سورية الداخلية. والأرجح أنه استفاد من تحصينات كانت موجودة على التل عندما قام ببناء القلعة فوقها. (المترجم).

وجراند هوتيل الرمادي، المنزوي قرب سور المدينة القديم، هي صغيرة جداً أمام ضخامة الأعمدة، بل إنها متلاشية في المشهد العام.

تقع هذه المدينة في محيط استثنائي؛ فإلى الغرب التلّ الذي يحيط بالخرائب في نصف دائرة، وكأنه يحميها من الهجوم من الغرب، الذي جلب الموت لملكة تدمر . وإضافة إلى ذلك كتلة الخضرة الداكنة لأشجار النخيل، والخضرة المضيئة للحقول المزروعة، التي تشكل تضاداً حيوياً يقابل المحيط الفارغ الجاف، الذي يمتدّ نحو الأفق المائل نحو زرقة ملتهبة. وتبدو أيضاً على هذه الخلفية بحيرة ما ضخمة: هي السبخة الملحية التي تخدع عيوننا في حرارة الهواء المرتعش، لتبدو لنا كصفحة مياه البحيرة. تموجات الخضرة المتنوعة، وصفرة التربة الرصاصية المائلة نحو لون الرماد ، وزرقة الأفق، وزرقة السماء تتداخل جميعها في وحدة رتيبة، مشكلة لوحة رائعة. أينما سرّحت بصرك، لا ترى تجمعات بشرية، أبنية، أو طرقاً، ثمة فقط مطارٌ عسكري صغير يدل بشكل تصميمه المعماري على وجود البشر في هذا الفضاء الهائل الهادئ. لكنه يضيع هو أيضاً بسرعة في المشهد الكبير اللامتناهي، الذي يتراءى أمام عيوننا من ذلك المكان المشرف قرب المدافن البرجية، أو من على تلّ الحصن أيضاً. في هذا المحيط من أعمدة وأقواس تدمر القديمة، والمداخل التي كانت بوابات المعابد والمسارح، التي لا ترتبط حالياً بأيّ شيء من الحقائق الإنسانية، ينبعث شعور بمشهد غير اعتيادي، بل تقريباً خيالي؛ فإن كانت البحيرة الساطعة إلى الشرق منا وهماً بصرياً، فربما أيضاً هذه المدينة الماورائية هي أيضاً فقط صدى رؤية من الماضي البعيد، تقذفها مخيلتنا في هذا الفضاء.

إن أحطنا بأبصارنا بمنظر الأطلال الكلي، فسنرى ثلاثة مدن

مستقلة أمامنا: المعبد الكبير ـ مدينة الآلهة، صفوف الأعمدة ـ مدينة الأحياء يوماً ما، المدافن البرجية ـ مدينة الموتى.

يا لعبث الأقدار: مدينة الآلهة أضحت اليوم ملاذاً للبدو نصف الرحل، الذين وجدوا الأمن ضمن الأسوار العالية الهائلة الخارجية، فبنوا بيوتهم الطينية التي تشبه أعشاش السنونو بين صفوف الأعمدة الرائعة. كان المعبد الشامخ الآسر بضخامته، وبجدرانه التي ينوف طولها على عشرات الأمتار، حصناً منيعاً بنفسه، ويمكن أن نلاحظ فوراً أنه استخدم لمهماتٍ دفاعية أكثر من مرّة، مادام محاطاً بخندق، واستكملت الأثلام المتهدمة في جدرانه بفعل عدوان الإنسان والزمان بركامٍ غير متجانس من الحجارة الثقيلة وكتلْ الحجارة المزخرفة، وحجارة الأعمدة الاسطوانية لتدعيم السور الدفاعي كله. كان على زوار تدمر؛ سياح فترة ما قبل الحرب القريبة العهد، أن يحتموا داخل المعبد من هجمات البدو القريبين.

ندخل المعبد من بوابة عالية، واضح جداً أنّها متأخرة، وقد بناها المسلمون الذين حصنوا المكان. يا لكتل الأحجار الضخمة! نحن في بالميرا أيامنا، في تدمر. بضع عشرات من المنازل المبنية من حطام الأحجار القديمة، ملصّقة على الأغلب بالطين، تختبئ عند أقدام الأعمدة الضخمة، ثمّة بيوت صغيرة وبيوت أكبر؛ شوارع وساحات، وشيء ما يشبه السوق، الناس والحيوانات تتبختر ببطء في شوارع تلك المدينة العجيبة داخل المعبد. يمكن التسكع بهدوء في شوارع وأزقّة تدمر الحديثة، ويمكن أن تسترق النظر إلى داخل الأكواخ، وأن تلج الأفنيةَ كي تعاين الآثار بدقة. سكان الصحراء والواحة معتادون على فضول الغرباء، وقداسة المسكن؛ الشعيرة المميزة جداً في البلدان الإسلامية، لا وجود لها هنا. إذن مفهوم المسكن أمرٌ نسبي جداً. هذه

الحياة الصغيرة الصاخبة بين حطام المعبد القديم الضخم لها جمال لا يدحض؛ نشاهد هنا موضوعات تشكيلية رائعة، وتضاد الماضي العظيم الصامت الضبابي مع ضوضاء الأطفال وصأصأة الدواجن، تتيح المناسبة للخطب الرنانة عن غدر الزمان. نصعد إلى سطوح المنازل المستوية، ومن الأسطحة إلى الحيطان ومن هناك ينفتح أمامنا مشهد عريض على الواحة الخضراء، ومن هنا يمكن التأكد من حجم المعبد كاملاً، الذي لا يمكن الإحاطة به من بين الأبنية العربية الواطئة.[1]

المعبد هائل، يشغل مساحة مربعة، تساوي ربما السوق الكراكوفية،[2] تحيط به جدران ترتفع بضع عشرة متراً، حافظت على هيئتها جزئيّاً إلى أيامنا. وكان فيها صفٌّ مزدوج من الأعمدة يحيط بالفناء الواسع، مغطاة بألواح حجريّة، وفي عمق الفناء، على منصّة مرتفعة كان مكان الحَرم الحقيقي، أو Cella "المَقدس"[3]، بمدخله الحجري المنحوت بالزخارف. مرّ المعبد، الذي كان قديماً لعبادة "بل"، بتحولات تاريخية، ومن الممكن أنه كان مكان عبادة للمسيحيين، وثمّة حالياً مسجدٌ فقير[4] هنا في مكان المقدس القديم.

يا للتناقضات! لم يبق شيء من ثراء أعظم آلهة الشرق إلاّ الجدران، حتى سقف المعبد انهار، واستبدلت به تركيبة جديدة غير ناجحة،

---

1 ـ نقلت بلدة تدمر عام 1929 من داخل المعبد إلى مكانها الحالي بمساع من العالم الفرنسي هنري سيريغ. (المترجم).

2 . يتألف المعبد من ساحة رحبة مربعة مغلقة أبعادها 210×205م، ويتوسطها الحرم (السيلا)، (المترجم).

3 ـ المقدس أو الحرم: هو الجزء المحجوب من الهيكل (المعبد) الروماني أو الإغريقي. (المترجم).

4 ـ صار معبد بل في أيام المماليك الحصن الذي يضم معظم البلدة، وهيكله مسجداً جامعاً، وقد ذكره ابن فضل الله العمري في القرن الرابع عشر الميلادي، ومدح بيوت تدمر وبساتينها وتجارتها. (المترجم).

حتّى الأعمدة المحيطة بالأثر المقدس حرمت من تيجانها ، واضح أنها كانت معدنية ، وربما من الذهب أيضاً ، أزعجت الفاتحين؛ منذ أقدم الأزمنة: منذ فتحِ القيصر أورليان لتدمر إلى أيام الآثاريين والسياح غير البعيدة والحالية ، نهبت وأخذت. تاريخ عادي! يمكن أن نذكر هنا أنّ رسوم وود وداوكينز تقدم لنا آثار تدمر بصورة أفضل من وضعها اليوم. أكمل جراد نهب الآثار المدرب أعمال التخريب إذن، متمماً أعمال الرومان والسراسنة والتتار والأتراك والبدو.

لم يكن المعبد متصّلاً بالمدينة القديمة. نرى من على البعد البوابة الرائعة التي كانت بالتأكيد المدخل الرئيس. أمام المعبد ساحة ضخمة ، كانت الأسواق تقام فيها ، والاجتماعات. وفيها أيضاً كانت تتوقف القوافل المحملة بالبضائع اليونانية بل حتى الهندية ، وتنتظر صابرة كي لا يبالغ موظفو الخزينة في زيادة الضرائب المقررة.

ومن غرائب الصدف ، أنه على الرغم من فقر المصادر المتعلقة بتدمر ، نحن على معرفة جيّدة بحركة التجارة في الصحراء ، وبسياسة المدينة الاقتصادية: فقد حُفظت لنا التسعيرة الدقيقة لدفع الضرائب للخزينة ، التي اعتمدها مجلس الشيوخ التدمري سنة 137م ، وأعلنت مكتوبة على لوح حجري باللغتين اليونانية والتدمرية؛[1] وقد نشر نصها Chabot كابوت بعنوان: Choix d’ inscriptions de Palmyre, Paris 1922 "مختارات من النقوش الكتابية التدمرية ، باريس 1922" ، ونعرف منها أنهم كانوا يحسبون الضرائب بثقل أحمال الحمير ، والجمال ، والعربات التي تعادل حمولة أربعة جمال؛ وحسبت الضرائب وفق هذه الأحمال ، فمقابل المواد الجافة مثل: حمولة جمل من الفواكه

---

1 ـ اكتشف الأرمني الروسي أباماليك لازاريف نص القانون المالي التدمري عام 1881م ، ونقل فيما بعد إلى متحف الأرميتاج في سان بطرسبرغ الروسية ، وهو أطول النصوص المالية من ذلك الزمن وأكثرها أهمية. (المترجم)

المجففة، والجوز، والفستق كانوا يدفعون مثلاً ثلاثة دنانير، ومقابل تخليص السمك المملح الذي كان يجلب كما يبدو من بحيرة طبرية عشرة دنانير، ومقابل أربع قربٍ من جلدِ الماعز مملوءة بالزيت والتي تعادل حمل بعير كان مالكها يدفع ثلاثة عشر ديناراً، وهكذا. وكانت المواد الفاخرة عنصراً أساسياً في التجارة، وكانت من أهمها الزيوت العطرية المستوردة من الهند، وكانت تخلص بمبلغ خمسة وعشرين ديناراً مقابل جملٍ محمّل بأوعية المرمر المملوءة بهذه الزيوت، أما الحمار الصغير المحمّل بنوعية أردأ من العطور معبأة في قرب جلود الماعز فكان يدفع عليها سبع دنانير، وإن كانت هذه الزيوت عابرة بتدمر فقط نحو الغرب بعيداً فكانت الضريبة تخفض إلى النصف. وواضح أنّ ذلك كان لتسهيل المنافسة مع التجار النبطيين الدّهاة، الذين كانوا بسكناهم بعيداً في الجنوب يسيطرون على تجارة العطور العربية مع روما لعلاقتهم الطيبة الدائمة مع الجزيرة العربية. أمّا الفراء المدبوغ بالأرجوان، الذي يصدر من السواحل الفينيقية إلى الشرق فيدفع عليه ثمانية آسات، والمنحوتات الفنية التي تمثل نصباً برونزية والمستوردة من اليونان وقبرص فحددت ضرائبها بحسب وزن البرونز، واضح أن الشيوخ التدمريين كانوا يدعمون استيراد الصنائع الفنية. وكان يتم الدفع أيضاً عن أولئك الذين يتم بيعهم كبضاعة، وأيضاً عن تلك اللواتي كنّ يقدمن أنفسهن كبضاعة. فلتخليص العبد الذي ينقل عبر تدمر كي يباع في مكانٍ ما في الغرب كانت الجمارك تأخذ عشرين ديناراً. وإن كان متقدّماً في العمر كانت العشرة الدنانير كافية. أمّا العبد الذي سيبقى في المدينة فيدفع عنه اثنتي عشرة ديناراً. بنات الهوى التدمريات أيضاً قوّمت أيضاً ضرائبهن المستحقة الدفع بحسب الأسعار التي كنّ يتقاضينها. فاللائي كنَّ يأخذن ديناراً عن كلّ مرّة دفعن للخزينة ديناراً شهريّاً! وإن كنَّ متقدمات في السنِّ، وانتقلن إلى الأحياء الفقيرة وخفّضن أجورهن إلى

ثمانية آسات، كانت السلطات الضريبية ترسل إليهن بمطالبات تبلغ ثمانية آسات شهرياً. كما وجدت من بينهن من تدفع ستّة آساتٍ فقط. أما ضرائب الدخل الشخصية فكان يدفعها التجار، وكانت للعطارين معاملة خاصة، ولآخرين أيضاً منهم تجار الملابس، وكذلك أيضاً تجار الجلود.

وفرض مجلس الشيوخ ضرائب عالية على المياه، الثروة الرئيسة في الواحة. وصلت الضريبة المستحقة على حقِّ الانتفاع من نبعين إلى ثمانمئة دينار سنوياً، كان المبلغ إذن كبيراً، وعلينا أن نفترض أيضاً أنهم قد ألزموا أدلاء القوافل الذين كانوا يستفيدون من رخصة سنوية تتيح لهم حق الانتفاع من سقاية حيوانات النقل، والتزود بمؤونة كافية لسفر عدّة أيام في الصحراء. ويمكن أن نضيف إليهم أصحاب البساتين والفلاحين في ضواحي المدينة الذين يسقون أراضيهم. أمّا أهل المدينة فقد استفادوا من الأقنية التي كانت تُوصل المياه إلى أرجاء المدينة كلها.

وتتركز اليوم أيضاً حركة القوافل والجمال والسيارات في الساحة المفتوحة أمام المعبد، تنتصب هنا منازل صغيرة، يسكنها أصحاب السلطة؛ العسكريون والمدير الذي يتبختر في معطفه القصير الأنيق رافعاً من هيبة الدولة، وكما هو ملاحظ يؤثر بوضوح على السكان المحليين. المدينة القديمة لم يغيرها البشر، في مكان ما منعزل يختبئ فقط فندق غراند هوتيل القميء. وتحت مجموعة الأعمدة ثمة نبع مياه أو خزان، ترده النساء العربيات من المعبد لأخذ المياه في أوعية فخاريّة عالية، إنّ مشهد هذه الكائنات النحيلة في أرديتها الكرزية الداكنة المحتشمة، ذوات القوام الأهيف والملامح التقليدية، التي تقف عند النبع تحت الأطلال أو التي تمرّ عائدة بين الأعمدة وعلى رؤوسها

الجـرار الطويلـة، تثـري رتابـة منظـر مقـبرة الخرائـب الهائلـة. وترعـى متشـردة هنـا وهنـاك بعـض الأغنـام قاضمـة باقـات العشـب. أمـا فمـا وراء ذلـك فهـو الـصمت المطبـق والأعمـدة والأروقـة، المنتـصبة هنـا وهنـاك صفوفاً، مشكلةً ملامـح الأبنيـة القديمـة، والمنعزلـة أحيانـاً في أمكنـة معينة. نمرّ فوق الأعمدة الساقطة، ونقفـز بـين كتـل الحجـارة، ونمشـي كأننـا في غابة مزقهـا التيهور، أو في وادي الجلاميد الصخرية.

تحدد البوابة المرتفعة[1] المدخل إلى المدينة، وقد حافظت علـى هيئتهـا بشكل جيـد، وتمتـدّ وراءهـا عميقـاً عُمـدٌ رائعـة تحيط بشارع المدينـة الرئيس من طرفيه، يبلغ طول هذا الشارع المشجر بالأعمدة ألفـاً وعدّة مئـات مـن الأمتـار[2]، حـددتها في الماضـي سـبعمئة وعـدة عـشرات مـن الأعمـدة، بقـي منهـا إلى يومنـا مـا يقـرب مـن خمـسها فقـط، مـشكلة العامود الفقري لهيكل المدينة العظيم. ليس على اليمين والشمال سوى الأعمـدة الحجريـةّ، كأنهـا مـشويّة بالـشمس، ويـصادف بينهـا أيـضاً الغرانيتيـة، مـستوردة علـى الأغلـب مـن مـصر. كـلّ تجمـع حجـري لـه اسمـه، فهـا هنـا Tetrapylon "التترابليـون[3]"، البوابـة ذات المـداخل الأربعـة، وهـي علـى الأغلـب عقـدة الحركـة في مركـز المدينـة. وهنـا المعبـد الكبير، وهنـاك المعبـد الـصغير، وهـذا أيـضاً بنـاءٌ يـسمى - لا نعـرف هـل التـسمية صـحيحة - الكنيـسة[4]. وهنـا صـفٌ مـستقيم مـن

---

1 ـ يقـصد بيـسترون البوابـة الكـبرى المعروفـة بقـوس النـصر أو قـوس هـادريـان. (المترجم).

2 ـ يبلغ طول الشارع الرئيسي 1.6 كم. (المترجم).

3 . وتسمى المصلّبة أيضاً، وهي مفترق الطريقين الرئيسيين في المدينة، وتتألف من مصطبة تحمل أربعة قواعد يعلوها أعمدة من الغرانيت بينها تمثال فوق قاعدة، وفوق الأعمدة تيجان كورنثية وسقوف وأفاريز مزخرفة. (المترجم).

4 ـ توجد في تدمر كنـائس مـن القـرن الخـامس، إحـداها قـرب معبـد بعلشمين=

الأعمدة، وهناك أيضاً من جديد أعمدة مصفوفة في نصف دائرة، وكأنها تحدد موضع سيرك أو حلبته، وأبعد أيضاً بقايا منازل، وعلى البعد الأعمق يمتد السور الذي كان يحمي المدينة قديماً، لكنّه اليوم يحدد فقط مدى امتداد المدينة الميتة[1]. هيكلٌ عظميّ عملاق! على الأرجح كانت أكثر البيوت تبنى بالطين حتماً، كما يتمّ ذلك في أيامنا عموماً في المناطق الخالية من الأشجار، وكل ما كان مبنيّاً بهذه الطريقة، تحول إلى تراب، وبقيت فقط المواد الحجريّة، التي تحدد مخطط المدينة القديمة ضمن بقايا سور المقبرة. لكنّ هذا كلّه سحيق البعد هكذا، وتقريباً غير واقعي، لأننا لا نشعر هنا البتّة بالحطام، الذي يتناثر من الخرائب. ما هنا هو بقايا عظام جثّة، مرمية بالصحراء، مذهبة بالشمس، تستقبلها القوافل التائهة بفرح، لأنها تحدد مسار الطريق.

أطلال تدمر مرتبطة بمحيطها بشدّة، بالواحة والصحراء، وينظر إليها كقطعة من مشهدٍ طبيعي، أو أيضاً، إن أحب أحدكم، خيالي، وعلى كلّ حال ليست هي مشهداً تاريخيّاً ما، يمكن أن تتعلق به ذكريات محددة، يمكن أن تكون لها قيمة عندنا، أو توقظ الأفكار الغافية في مكان ما من عقولنا أو مشاعرنا. علاقتنا بمدينة ذات العماد في الصحراء هي تأمل خالص، جمالي، يمكننا التشرد هنا ساعات، والشعور بمتعة المشاهدة كاملة، غير مشوشة بأي جهدٍ تحليلي، أو محاولة لتذكير النفس بنبذ المعارف المدرسية أو غير المدرسية.

=يتقدمها رواق من ستة أعمدة، والثانية إلى الجنوب، كما توجد بقايا كنيسة ثالثة في الزاوية الشمالية لحمامات زنوبيا بين معبدي بل وبعلشمين. (المترجم).

1. طول محيط السور 6 كم، وعرضه 280- 300سم، يشبه شكل السلحفاة، وقد بني بأحجار منحوتة، ودعّم بأبراج مربعة. (المترجم).

علينا أن نتأمل تدمر، علينا أن نتنشقها كلاً، وإن نحن أطعنا عاداتنا السيئة في التدقيق بالتفاصيل، فسندخل عالماً متحفياً؛ وتصبح كل الجزئيات شاحبة وغير مثيرة. فكلّ شيء قد تمّت رؤيته في مكان ما من قبل، ومنها تلك التيجان الكورنثية، وتلك الزخارف الهندسية والنباتية، لا توجد قطعاً أية جزئية لم تكن معروفة من قبل في مكان ما، من بناء قديم، أو من مجموعة متحفية. نرى أن هذه الأعمدة ذات السبعة عشر متراً لا تمتلك ذلك التناسق الذي لأعمدة الأكروبول، وأنّ تيجانها محشوّة بالزينات دون مراعاة المقاييس الفنية، وثمة في منتصفها أفاريز ملتحمة بها، كانت تنتصب عليها في الماضي تماثيل النبلاء، ودليل ذلك الكتابات اليونانية التي لا تزال مقروءة هنا وهناك. وكذلك الأعمدة الرفيعة التي كان عليها أن تحمل قناطر وأفاريز، وثقل التماثيل النصفية لبعض من اغتنى بتجارة الزيت أو لتاجر من تجار العبيد التدمريين. يا لها من فكرة! إن شغفنا بالنظر إلى العالم نظرة تاريخية، قد كشفت لنا أنه قبل قرون، في قمّة مراحل ازدهار المدينة- كيف زوّر شغف مُحدثي النعمة بحبّ الظهور المبذّر روحَ فن العمارة اليونانية الراقي. لم تستطع مدينة رجال الجمارك ومنازل الوكلاء التجاريين أن تبدع الفن العظيم. ولنتذكر أيضاً أنه لم تكن في المعبد أيّة جزئيّة يمكن التوقف عندها مدّة طويلة. في كلّ مكان هنا زخم وثراء ورفاه المكان المفتوح، لكن ليس ثمة شعور بالأصالة والجمال. وهذا الانطباع نفسه هو الذي نخرج به عند زيارتنا مدينة الأموات، تلك الأبراج التي تجاوزناها ليلاً واصلين من الصحراء.

أبراج ضخمة بطبقات متعددة ، تبدو كأنها محارس قروسطية، كانت في الماضي مدافن النبلاء العائلية. تمّ نهب المقابر الغنية عبر

القرون. رميت أشلاء الناس، الذين أرادوا أن يكون لهم بيت آمن وحصين بعد موتهم، للرياح الأربع. وهكذا فإنّ الأبراج خالية اليوم. ويبدو أنها استخدمت خلال فترة معينة أيضاً لأغراض تحصين المدينة. وبجانب الأبراج ثمّة مقابر منحوتة في الصخر، أو مبنية، ومغطاة بالرمال، وهي التي استطاعت أن تصل إلينا كاملة.[1] ننزل إلى باطن المقنطرات، نشاهد لوحات صور شخصيّة مضيئة، وكتابات يونانية وتدمرية، لكن لا نعثر أيضاً هنا على أشياء ذات أهمية فنية كبيرة: شخصيات تقليدية بوجوه ذات ملامح بدائية، وأزياءٌ سابقةٌ ذات ألوان فاتحة، تبدو كأنها تتباهى بثرائها وحليّها، فقدان تام للرؤية الأصيلة. أمر مفهوم أنّ كلّ ما كان ثميناً قد نقل في الماضي البعيد إلى المتاحف الكبيرة في أوروبا، لكن هنا أيضاً لا توجد أشياء فنية عظيمة، الفن التدمري كان نسخة ضعيفة للنماذج اليونانية - الرومانية ومقارنة بالأصل بدا تقريباً مثل متأنقي المقاطعات البولونية مقابل موديلات دور الأزياء الفرنسية والجمهور الأنيق في شارع Avenue du Bois "أفنينو دو بوا"، الباريسي.

كان هذا الفن هنا كما هو واضح جداً حاجة محدودة عند الأغنياء، وتعبيراً عن الانتماء إلى الثقافة الغربية، لكن لم تمتلك الظروف الداخلية كي تزدهر، ففي المحصلة كانت تدمر خاناً

---

1 - يحدد دارسو الآثار التدمرية ثلاثة أشكال للمدافن، وهي: المدافن البرجية وهي مربعة الشكل ويقوم كل منها فوق مصطبة مدرّجة، ويتألف المدفن من عدة طوابق يصل بينها درج حجري. والمدافن الأرضية وتتألف من جناح رئيسي وأجنحة فرعية، كسيت من الداخل بطبقة من الجص، وعلى الجص مشاهد ملونة من الحياة والأساطير وصور الموتى، غنية بالزخارف الهندسية والنباتية والكتابات. والمدافن البيتية تعود لنهاية القرن الأول الميلادي، يتألف المدفن من طابق واحد يتقدمه مدخل جميل وباب من الحجر المنحوت، في داخله باحة مكشوفة تحيط بها أروقة مسقوفة.

ضخماً في وسط الصحراء. نشاهد في متحف اللوفر في قاعات الآثار الآسيوية القديمة بعض المنحوتات التدمرية التي تعدّ صالحة للنقل والعرض في المتاحف. إنها لافتة لكن من الصعب عدّها من الروائع. فثمة هنا لوح منقوش ضخم يقدّم مشهد مأدبة جنائزية، وهو على الأغلب لوحة مدافنية، تبدو فيها الأجساد البشرية في أوضاع تخطيطية ساكنة، في أزياء آسيوية ذات ثنيات وتموجات جميلة، لكنها منحوتة غير ناجحة، ثخينة، للجميع فيها الوجوه نفسها المندهشة المتشابهة، وعيون قصيري النظر المرعوبة، ونرى في تلك الوجوه ذاتها الملامح نفسها التي توحي بالسأم، والمتشابهة بغرابة، ولحى الرجال المشذبة تضفي عليهم تعبيراً بدائياً غامضاً. ثمّ أيضاً نصب إله بربري بعيونه المرعبة، ملتح وذي قرون.

تصبح هذه الملاحظات التي تبدو مثيرة للاستغراب مفهومة في ضوء تحليل العوامل التي مكنت من نشوء تدمر وازدهارها، مؤكدٌ أننا في الصحراء؛ الواحة التي تشكل موقعاً استراتيجياً مهماً، وعقدة تجارية أساسية، تعيش على الظروف الحربية والتجارية، وهي مجبرة على تبعيتها الثقافية للجيران الكبار. وسكان الواحة الذين اغتنوا بالعمليات التجارية يمكن أن يصلوا إلى الغنى بل إلى الثراء الفاحش، ينفقون مبالغ طائلة على الأبنية الرائعة وعلى الفنون التشكيلية، لكن هذه الفنون لن تكون شيئاً قابلاً للديمومة، أو شيئاً ذا قيمة، أو نتاجاً من مهاد ثقافي، وحاجة إبداعية ذاتية، إنها فقط لهوٌ وشغف طبقة النبلاء، إذ لا يمكن جلب أثينا إلى الواحة حتى وإن أُنفق الذهب على ذلك.

تجبرنا هذه التأملات على حشد كمٍ هائل من الحقائق التاريخية يمكن أن ترتسم على خلفيتها فرادةُ تاريخ تدمر ارتساماً أوضح إلى حدٍ ما، يسمح لنا بفهم منطق أحداثها الداخلية فهماً أفضل.

الخلفية الطبيعة خالدةٌ هي ذاتها لم تتغير، تناقضات الصحراء، وثقافات البلدان الزراعية. حيث وفرة المياه فقط هي ما تمكن من تلك الزراعة، فتنشأ التجمعات البشرية، وتقوم الدول بنظمها، فتنمو الثقافة العقلية والفنية. أما الصحراء فتسكنها جماعات الرعاة صعبة المراس النشيطة والسريعة في ردات فعلها، المفتقدة لتقاليد التنظيم الحكومي والثقافي، قبل عدّة قرون من العصور التاريخية، كان توزع الدّول والثقافات في المساحة الواقعة بين البحر الأبيض المتوسط والفرات يبدو على النحو التالي تقريباً: على الساحل ممالك الكنعانيين الجنوبية والمدن الفينيقية، وفي الشمال الشرقي آشور، وإلى الشمال أكثر الكلدانيون الواقعون تحت سلطة بابل، استقر العدل والقانون في كلّ مكان هنا، ومكّنا من تطور التقانة وازدهار الفنون. ووجدت في كل مكان تقاليد الدولة واستمرارية الثقافة. وفي الصحراء ترحّل الرعاة الذين أتوا من الجزيرة العربية وتفرقوا إلى مجموعات من القبائل، لم يختلفوا من حيث سويّة ثقافتهم عن قبائل البدو الحديثة في أيامنا مثل العنزة والموالي الذين يمكن أن نصادفهم في الطريق إلى تدمر. لم يكن ثمة وئام بين الرعاة و السكان المستقرين، كما هو الأمر اليوم أيضاً، لكن الحياة فرضت التفاهم والسلم، كي يكون بالإمكان توثيق العلاقات وتبادل المنتجات بين طرفي الصحراء المتقابلين؛ فظهر الوسطاء الذين كانوا هم أنفسهم رعاةً في الماضي، كانوا يعرفون الصحراء جيّداً، وباكتسابهم عادات وثقافة الأمم المتحضرة في الغرب، أضحوا صلة الوصل المهمة بين الشرق والغرب. حسنٌ، إنّ سكان واحة تدمر كانوا هؤلاء الوسطاء الذين استفادوا من ظروف التجارة المارة في الصحراء، ولها دانوا بأهميتهم وثرواتهم. فقد كانوا رعاة أعراباً استقروا في المركز التجاري النامي يوماً بعد يوم. واكتسبوا قشور الغرب مع اللغة الآرامية «وكانت سورية كلّها وفلسطين تتحدث بها آنذاك، ويمكن أن

نذكّر أنّ السيد المسيح كان يتحدث الآرامية» واللغة التدمرية التي وصلتنا نقوش كتاباتها الحجرية الجمّة، التي كانت لا تزال مقروءة إلى منتصف القرن الثامن عشر، وهي لهجةٌ من لهجات اللغة الآرامية.

اعتمد وضع تدمر التفضيلي الاستثنائي في بداية العصور التاريخية على وقوعها على خطّ التماس بين عالمين: الإمبراطورية الرومانية الهائلة التي تنتهي حدودها بين رمال الصحراء السوريةتماماً من جهة، ودولة الفرس العظيمة التي ضمّت الشرق كله، وحُرِص آنذاك على تمكين العلاقات الطيبة بين الشرق والغرب، وعلى تبادل التجارة في المقام الأوّل. شهرة ثراء تدمر كانت كبيرة جداً، إلى حدّ أن Antonius "أنطونيو"[1] قد وصل إلى المدينة نفسها في أثناء بحثه عن النقود سنة 34 قبل المسيح، لكنّ الساميين الدهاة أخفوا الكنوز في الصحراء. وفي الأزمنة التي كانت فيها الغلبة الكبيرة للرومان ظاهرة، وضعت تدمر نفسها تحت حماية روما. وفي تلك الأزمنة أيضاً بدأ التجار الذين أصابوا الثراء يقلدون الرومان. وبنوا في الصحراء المعابد الضخمة والشوارع المعمّدة، وتحولت واحة أنصاف الرعاة الذين قادوا القوافل إلى مدينة هائلة متعددة الأعراق. ونبتت في التربة السامية القديمة ثقافة آسيوية - هلينيستية مطعّمة. ويمكن أن نلاحظ كالعادة أنّ سكان الموانئ «يمكن أن ننظر إلى الصحراء كبحر» كانوا متعددي الأعراق: وتناسب الآلهة المتعددة المصادر الناس الذين ينحدرون من أماكن متعددة أيضاً، ونعرف من النقوش الكتابية المتعلقة بالنذور التي حفظها لنا الآثاريون بحرص وحلّوا رموزها أنّ الأوليمب السوري قد كان سائداً هنا؛ مع الآلهة: بل - زيوس، وAglibol "عجلبول"

1- Antonius، هو ماركوس أنطونيوس(83-30 ق.م) القائد الروماني وحاكم المقاطعات الشرقية في الإمبراطورية الرمانية، كان عشيق كيلوباترا، ومات منتحراً. (المترجم).

القمري، وIarhibol "يرحبول" الشمسي - أبوللو، [1] لكن كانت ثمّة آلهة عربية أيضاً منها اللات الكبرى، التي لعنها القرآن فيما بعد. وكانت ثمة أيضاً قرابين تقدم للإله الإيراني "سادراف" وإلى الآلهة النبطية كذلك. كما عبدوا أيضاً إلهاً غير مسمىً، وقد خصّ بأكثر الكتابات التي وصلتنا، هل كان ذلك امتداداً لمظاهر التوحيد البدائي الصحراوية أم قد وصلت ربّما إلى هنا أيضاً التأثيرات الخارجية اليهودية والمسيحية.

كان عهد العظمة الرائعة القصيرة الأمد لتدمر في القرن الثالث للميلاد، واتصل بأسرة الحكام الطامحين، التي استفادت من الأوضاع الصعبة للإمبراطورية الرومانية، ووثقت بحسن طالعها السعيد، فبنت إمبراطورية الشرق العظيمة، التي امتدت من آسيا الصغرى إلى مصر، وتجرأت على تحدّي روما التي لا تقهر.

كانت تلك أوقاتاً عصيبة لروما: سلسلة من الإخفاقات الحربية في الشرق، نالت من هيبة الإمبراطورية، وضخمت من أزماتها الداخلية. القيصر فالريان أضحى مأسوراً لدى الفرس، وأذينة المسمى باللاتينية Septimius "سيبتيموس" قائد الجيوش التدمرية يقدم خدمات جليلة في الحرب، لكنه - مستفيداً من الوضع - يمنح نفسه لقب ملك الملوك، معلناً سيادة تدمر واستقلالها، أما جالينوس ابن فالريان التعس

1- اتصفت الديانة التدمرية بالتوفيقية، وفي مجمع الأرباب التدمريين نحو ستين إلهاً، على رأسها الإله البابلي بل(مردوخ)، وهو يقابل زيوس/جوبيتر، ومع بل يكون عادة الريان يرحبول (الشمس) وعجلبول (القمر). وكان للرب نبو ابنِ بل شعبية كبيرة في تدمر، أما الرب الكنعاني بعلشمين (رب السموات) فكان على رأس مجموعة أخرى من الأرباب.وكان التدمريون يتعبدون اللات والعزى ومنوه ورضو وشمس وغير ذلك من المعبودات العربية.(المترجم).

فيعترف لأذينة بلقب الإمبراطور، لكنه لا يمنحه لقب الأوغست الذي هو من ألقاب القيصر فقط، كان لابدّ من إتّباع سياسة حذرة نحو السيد العظيم والمستقل de facto فعلياً. يقتل أذينة على يد قاتل سنة267، وتستلم السلطة بعده أرملته زنوبيا.

هنا يبدأ الفيلم الغرائبي بالدوران بسرعة وامضة، وتصبح بطلته امرأة. وتتخذ لقب الأوغستا باحتفال، وتعترف لبنها القاصر وهب اللات أيضاً بلقب الأوغست. وإلى تلك الفترة تعود النقود المسكوكة في دار العملة في أنطاكية، وعليها الكتابة:

S«eptima» Zenobia Aug«usta»,Im«perator» C«aesar»
«Vhballathus Aug«ustus

وهكذا بدأ تحدي روما، وعلى إثر ذلك تبدأ العمليات الحربية. تحتل الجيوش التدمرية مابين النهرين، وآسيا الصغرى، ومصر، تقودها الأوغستا بنفسها. يصفها المؤرخ Terbellius Pollio تريبليوس بولّيو في أزيائها ذات الألوان الكرزية، وكتفيها المنخفضين، والخوذة على رأسها. سارت في مقدمة الجيوش راجلة أو ممتطية جوادها، لم تتعب قط. كانت لديها بشرة بلون ريش النسور، وعيوناً سود، وأسناناً ناصعة البياض كالدرر، متألقة بروحها الوثابة، وطلعتها الرائعة. «يظهر أن المؤرخ المحترم كان مغرماً بالجمال النسائي على نمط جوزفين بيكر[1]». تميزت زنوبيا المقاتلة بثقافتها العقلية العالية أيضاً، فبالإضافة إلى إتقانها اللغة الآرامية واللغة التدمرية، كانت تتحدث المصرية ببلاغة، قرأت تاريخ روما باليونانية، ويبدو أنها قد ألّفت مختصراً لتاريخ الشرق، يمكننا أن نتخيل زنوبيا أوغستا بدويةً رائعة الجمال، وفائقة الذكاء، يؤكد القديس أتنازي أنّها كانت يهودية،

---

1 - جوزفين بيكر (1975.1906): راقصة ومغنية فرنسية أمريكية المولد، خلاسية، اشتهرت كثيراً في النصف الأول من القرن العشرين باستعراضاتها الراقصة في النوادي الباريسية، ونشرت الرقص والفن الأفريقي - الأمريكي في أوروبا. (المترجم).

لكن ربما هذا أيضاً هو من قبيل Sancta Simplicites "بساطة القديس" الحكيم الذي لم يكن يعرف النساء.

لم تستمر الإمبراطورية التدمرية أكثر من سنة؛ تحرك القيصر أورليان ضدّ أوغستا مغتصبة اللقب. وهزم جيوش الفرسان التدمريين على حدود الصحراء قرب حمص الحالية، ومالت القبائل البدوية جزئيّاً إلى جانب روما، ولم تصل المساعدات المتوقعة من الشرق. وكان على زنوبيا أن تفرّ على جمل عبر الصحراء، لتجد ملجأً لها عند حلفائها في الشرق، لكن تمّ اللحاق بها على ضفاف الفرات، فزينت بعد فترة موكب عودة المنتصر إلى الكابيتول في روما. وقضت بقية حياتها المريحة النبيلة في مقر ما هادئ على شاطئ بحر الترينيه. أو أيضاً كما يؤكد بعض المؤلفين قضت منتحرة بإضرابها عن الطعام.

أضحت تدمر مستعمرة رومانية، وحارسة الصحراء، واستمرت بنشاط تجارتها الترانزيتية. وأُخمدت بدموية ثورة التدمريين المتحسرين على حريتهم القديمة. وخربت المدينة التي لم يكن لها أن تعود إلى مجدها القديم. أعاد ديوقلسيان وجوستيان بناء وتحصين عاصمة الصحراء، لكن أيضاً لم تستمر عظمة روما وإحكام قبضتها على الصحراء طويلاً، وخسرت تدمر عناصر بقائها وصارت من جديد جزيرة منسية لقرون طويلة في البحر المنيع العاتي، حتى أعاد اكتشافها رحالة يحبون المغامرة مع نهاية القرن السابع عشر. صعبٌ أن نتنبأ ما الذي سيحدث في المستقبل. إنّ ظروف الحالة الأمنية هي التي ستحدد دوماً مصير الواحة.

يسود الهدوء الآن، ولهذا نشطت الحركة، إذ تصل إلى هنا القوافل التجارية، وقوافل السياح، لكن تؤثر أيّ حركة للقبائل للبدوية في بورصة هذه الحركة صعوداً أو هبوطاً أيضاً. وقد كانت حركة المسافرين في أثناء أقامتنا في تدمر على طريق بيروت - بغداد معطلة، والحواجز العسكرية رافعة تأهبها. هكذا كان الأمر منذ قرون

وهذا ما سيكون دائماً أن لم يكن بالإمكان السيطرة على الصحراء تقانياً، وتحويلها بنظام ريّ فعال إلى حقول قابلة للزراعة، وستدلّ عندها الآثار الشامخة بين المزارع الخضر على الماضي، ولن يبق نبع تدمر مركز المساحة الهائلة بين جبال لبنان الشرقية و الفرات، وعندها أيضاً ستزدهر Fremdenim dustrie[1] ازدهاراً كبيراً، لكن لن يبق شيء للمجيء من أجله إلى هنا، وستصبح الآثار شبيهة بخرائب العمائر الأخرى المتناثرة في العالم الرحب لإسعاد الآثاريين وأصحاب الفنادق.

نرحل عن تدمر في اليوم الثالث صباحاً، السيارات تنتظرنا والسائقون، الذين قضوا نهار البارحة كلّه في الشراب في فندق الصحراء، يقهقهون من فرحهم، لأنهم سيستطيعون من جديد تعذيب الركاب في العلب المغلقة. يظهر صاحبنا التركي أيضاً، معلقاً على عاتقه بساطاً محليّ الصنع، وصله هدية من الذين استضافوه، ويكرر محاضرته عن أهمية القرابة والضيافة في حياة المجتمعات الإسلامية. كان جدّه حاكماً هنا في الماضي وترك عائلة وراءه، وهي ليست تماما عائلة بحسب مفاهيمنا، لكن لكلّ بلدٍ عاداته وتقاليده.

نسير مرّة أخرى بموازاة الآثار، وعند النبع ترتفع بنا السيارة نحو الوادي، الذي تنتصب أمامه أبراج الحراسة، ثم مرة أخرى نحن في الصحراء. أمامنا على الأقل ست ساعات من السفر بالسيارة، التي نجتاز خلالها مراعي الإبل المتفرقة وعدة خيام بدوية، اعتدنا الآن على رتابة الصحراء وعلى نزق السائقين، نرتاح.

مهلاً! ثمّة إثارة على البعد، تُرى على الخلفية الصفراء بقع سود، سيارات وبشر، موقع عسكري يحرس الخلاء. نصل إليهم، ونجري حديثاً متفحصين موقع الكمين. هذه فرقة هجّانة فرنسيّة - بدوية،

---

1 - من اللغة الألمانية وتعني النزل العائلي (البنسيون).

تؤمن الطريق إلى تدمر، تاركة البدو الرعاة الماكرين في رعب دائم. عدّة رشاشات آلية تنتصب جاهزة موجهة سبطاناتها النحيلة نحو المرتفعات البعيدة ذات الأهميّة، وبالقرب دورية راكبة على الجمال. الملازم الشاب الوسيم قائد الوحدة بلباسه الكولونيالي، والعمامة على رأسه، منتعلاً صندلاً في قدميه الحافيتين يمدّنا بالمعلومات. ثمّ بعد ذلك عند ثنية الهضبة ممرٌ يهاجمه البدو بكثرة ولذلك يسمّى Cage des bandits "قفص رجال العصابات"، تنتصب الرشاشات دون حركة طيلة النهار، ودوريات الهجّانة تقوم بالحراسة والتدقيق بين الرمال، والطائرات في السماء التدمرية تراقب من الأعلى.

حراسة في الصحراء! مرت القرون، ولم يتغيّر شيء، وبين رعاة الصحراء ثمة فكرة دوماً، أو قرار، أو خطّة تكبلها السلطة. ولابدّ أن الفرق الرومانية كانت تبدو أيضاً هكذا في سعيها لتأمين سلم وأمن الأرض السورية. هو إذن Pax Romana " السلام الروماني". لم تبدُ لنا عظمة روما بهذه القوة خلال الرحلة كلها عبر سوريا المليئة بالآثار الرومانية كما ظهرت هنا، بين الرمال حيث الفكر البشري المبدع يحرس الصحراء بيقظة، ولدى الملازم بالتأكيد ملامح الروماني، الذي لو رآه جيبون لنسبه إلى سلالة النورديين المقاتلة الفاتحة.

الليدي
أستير ستنهوب

لنترك الآن طريق الذكريات لحظةً كي نستريح في المكتبة قليلاً، في أثناء إقامتنا في سورية، أو في جبال لبنان أو بين الأنصارية، واجهتنا أكثر من مرة ذكريات المغامرات العجيبة المتعلقة بشخصية الليدي أستير ستنهوب Hester Stanhope ملكة تدمر الجديدة بعد زنوبيا، إنّ تاريخ الصحراء السوريةمقارنة بكل الأسماء البعيدة هي في أيامنا أصداء أصوات فقط، وحدها فقط هذه الانكليزية الغريبة تمتلك إلى يومنا هذا سحراً وألقاً، وهي ظاهرة حيَّة في هذا الصمت الكبير الذي تعبر فيه القرون والأحداث و الشعوب دون أثر. لنتحول إذن من الإحساسات المباشرة إلى رواية حول مصير سيّدة طموحة. حياة الليدي أستير ستنهوب معروفة لدينا جيّداً، فميريون Meryon طبيبها الخاص لسنوات طويلة، وهو شخصية عادية جدّاً ،كان قد نشر حقائق وتفصيلات كثيرة عنها جمعها في ثلاثة مجلدات كبيرة بعنوان: Memoirs of Lady Hester Stanhope as related by herself in conversation with her physician, London 1845 "ذكريات الليدي أستير ستنهوب كما روتها بنفسها في أحاديث لطبيبها الشخصي، لندن 1845"، قضى ميريون سنوات طويلة بقرب السيدة الغريبة، وكان مشاركاً في أكثر من مغامرة من مغامراتها، التي ورّطته فيها سيدته صاحبة الأفكار المبتكرة دوماً، مباشرة من أكسفورد يطوف العالم معها كي يعود بعد سنوات إلى الوطن،

وبعدها بمدّة يسافر مجدداً إلى الشرق كي يعثر على الليدي أستير معتزلة في صومعتها اللبنانية، وعلى رواية ميريون اعتمدت كل السرديات اللاحقة التي هي في الحقيقة إعادة ترتيب لوثائق الطبيب المتفرقة، وقد أغناها بتفصيلات متنوعة سوّاح فضوليون كان من نصيبهم مصادفة الحظ السعيد، فشاهدوا بأمّ أعينهم الملكة الغامضة؛ وهكذا قام فيليب ديسكوس بنشر ترجمة دقيقة لها في كتابه La Rene de Tadmor, Lady Hester Stanhope : Paris 1901 "*ملكة تدمر: ليدي استر ستنهوب: باريس* 1901" سمحت لنا بتتبع الأفكار العجيبة لهذه السائحة الأصيلة المحاطة بالأساطير الرائعة، وكذلك أميرة كليفلاند ابنة أختها نشرت في لندن عام 1914 مجلّداً ضخماً أثبتت فيه مراسلاتها مرتبة تاريخيّاً مع سيرتها الموضوعية بعنوان: The life and letters of Lady Hester Stanhope "حياة ورسائل الليدي أستير ستنهوب" ومن بين هذه الرسائل ما هو موجه إلى أميرة يورك والملكة فيكتوريا والتي نعرف من خلالها أشياء طريفة جدا، كما نتعرف على أسلوب كتابة وطريقة تفكير أستير، وعلى هذين المصدرين استند العمل المنوغرافي الذي أصدرته مؤخراً باولينا ابنة المؤلف المشهور هنري بورديو بعنوان: Lady Hester Stanhope en Orient :Paris 1923 "اليدي استير ستنهوب في الشرق: باريس 1932" دأبت هذه المؤلفة الفتية جدّاً مشدودة إلى جمال الموضوع الذي لا يقاوم، وإلى سحر الشرق الذي زارته برفقة والدها على جمع مادة غنية وضمتها بيديها الساذجتين في وحدة متكاملة تظهر فيها بوضوح طريقة تفكير وأسلوب كتابة بورديو المعتق، ونضيف بين قوسين هنا أن بروديو قام في هذه الأيام بإنجاز كتاب عن الرحالة الفرنسيين في سوريةوفلسطين: Voyageurs de Orient, Paris 1926

"رحالة الشرق. باريس 1926"، وبالإضافة إلى ذلك أيضاً فإنه قد كتب في هذا الموضوع أكثر من مرّة، لكن دوماً كان مريون ومن بعده أميرة كليفلاند المصدر الرئيسي الكافي تماماً لإعادة إنتاج سيرة هذه الحياة الرائعة.[1]

تنحدر الليدي أستير لوسي ستنهوب من عائلة ارستقراطية انكليزية، لها أكثر من بطاقة في Dictionary of national biography "معجم التراجم القومي"، كان والدها قامةً معروفة في زمنه، وكلّ الذين ترجموا له يذكرون أنه هو أوّل من تجرأ بالدخول إلى القصر الملكي دون باروكة، و في فترة الثورة الفرنسية تخلّى عن ألقابه وأمر بنزع الشعارات و الرنوك عن قصره، مقدّماً نفسه على أنه المواطن ستنهوب ، كما عني بالعلوم المحضة وجرب اختراع عدّة أدوات ميكانيكية. وفوق هذا وذاك آمن بنظريات مختلفة، طبقها على أولاده، مرسلاً إياهم مع استغراب العالم إلى المهن، وابنته إلى المراعي العمومية ، حيث كان على أستير الفتية أن ترعى قطعان الديوك الحبشية، أمّا والدتها الليدي Hester Pitt أستير بيت فكانت ابنة Pitt Lord of Chatham بيت الكبير لورد جوثام. ثقافة رفيعة، ونشاط فائق، وأصالة فذة موروثة، و شعور مفعم، هذا هو ميراث أستير من آل بيت وستهوب. واستقلالية مبكرة تسببت بها وفاة الوالدة، وزواج الوالد ثانية، مكنتها من القطع بشجاعة مع ميراثها، تعاظمت هذه الاستقلالية مع مرور الوقت حتى أضحت انكلترا كلّها ضيّقة بالنسبة إليها.

قامت هي المولودة سنة 1776 برحلتها الأولى سنة 1803 إلى إيطاليا

---

1 ـ ومن الكتب المهمة التي ظهرت مؤخراً حول سيرة أستير ستنهوب:
Kirsten Ellis- Star of The Morning, The Extraordinary Life of Hester Stanhope(2008)
Lorna Gibb-Lady Hester: Queen of The East (2005) (المترجم).

وألمانيا، وبعد عودتها إلى إنكلترا سكنت لدى عمها الوزير Pitt [1] بيت الذي كان آنذاك في قمة شهرته، فأصبح منزله منزلاً لها، واكتسبت إمكانية التأثير على عمها في بيتها الجديد، و بذلك أيضاً تأثيراً في الشؤون العامة، متدخلة باستبداد في كل القضايا، كانت أصيلة ومعتدّة بنفسها فحصّلت بذلك على شهرة سريعة، لسان سليط يتمتع بسخرية حادّة وجهته نحو شخصيات متفاوتة التأثير مما وسع دائرة أصدقائها وأعدائها، فأصبح معروفاً لدى الجميع حتى في القصر الملكي أنه يجب أخذ ابنة أخي بيت بالحسبان، وابن الأخ هذه لم تكن بحسب الأخبار المتطابقة رائعة الجمال، أو لافتة للنظر، أو مظهر فاخر، «ستة أقدام انكليزية = 821 اسم»، وجه مستطيل شاحب بعينين زرقاوين، حيوية المظهر، وتميز في أسلوب التعامل مع الناس. كلّ هذا جعل منها شخصية محببة، و حبّها للرياضة وخروجها الدائم للصيد، ومهارتها في ركوب الخيل أغنت مزاياها الاجتماعية.

كلُّ هذا، وكلّ روعة الحياة، والامتيازات السياسية، والصداقات المتلألئة، انتهت لحظة موت عمّها بيت سنة 1806، تنسحب أستير من الحياة وتمضي عدّة سنوات في الريف، وتكبر تعاستها يوماً بعد يوم مع الحياة المبتذلة التي أجبرت عليها، فتواجه العلاقات الإنكليزية بمقت رافقها طيلة حياتها، وعندما وصل الخبر الحزين عن موت الجنرال مور، الذي قضى مع أخي أستير مقاتلاً ضدّ جيوش نابليون في اسبانيا، تتحول مشاعرها من المقت إلى الكراهية، وهكذا تطرأ في

---

1 . هو William Pitt the Younger وليم بيت الأصغر 1759- 1806: رئيس وزراء بريطانيا في الأعوام 1783- 1801 و 1804- 1806 أصبح وعمره 24 سنة أصغر رئيس وزراء في تاريخ بريطانيا، برزت مواهبه كاقتصادي بارع، وقاد الحرب بين بريطانيا وفرنسا الثورية و النابليونية.

ذهنها مغادرة انكلترا إلى الأبد، كان السير جون مور[1] الإنسان الوحيد الذي تعلقت به مشاعر أستير الحية، إنّ ذكرى هذه الصداقة أو الحبّ رافقت أستير على رمال الصحراء السورية وفي وحدتها عند إصابتها بالطاعون، فعندما افتقدت ذلك الإنسان افتقدت الخيوط التي تربطها بانكلترا و مشاعرها الفياضة نحو الوطن.

سنة 1810 تترك الليدي أستير انكلترا في رفقة عدد من المعارف، الطبيب الشاب الذي سيكون كاتب سيرتها، وعدد غير قليل من الخدم، هو حبُّ المظاهر الموروث من آل بيت الواقعون تحت المديونية دوماً، يسافرون مباشرة إلى جبل طارق وبعدها إلى مالطة، حيث يتمّ استقبالهم بحفاوة وتكريم، كان معروفاً للجميع أنها حفيدة بيت وابنة أخيه، ومن مالطة يقصدون اليونان إلى Zante[2] زانتا، وPatras [3] بيتراس وبعدها إلى أثينا حيث يلتقون باللورد بايرون، لم تعجبه الليدي الغريبة، لأنه بعد فترة قصيرة من وصولها يغادر بحجة ما، كي يعود قبل سفرها تماماً، و بالمقابل فإنّ الليدي أستير في ذكرياتها لا توفر الشاعر المتبجح، المرحلة التالية من مغامراتها على الطريق هي القسطنطينية حيث يسكن أصدقاؤنا في قرية «ترابجي Terapji» على الشاطئ، وتسافر

---

1 ـ السير جون مور (John Moore)ضابط بريطاني (1761- 1809) كان قائداً للجيش البريطاني خلال حرب شبه الجزيرة الاسبانية البرتغالية (Peninsular Ware) وكان مقتله موضوعاً لقصيدة مهمة للشاعر الايرلندي تشارلز وولف (179- 1823). (المترجم)

2 ـ هي زاكينثوس (zákinthòss) من الجزر الأيونية الواقعة إلى شمال اليونان، مساحتها 401 كم مربع، وعدد سكانها اليوم حوالى 39 ألف نسمة. (المترجم)

3 ـ بيتراس (Patras) : ميناء بحري في شمال اليونان، يبلغ عدد سكانه اليوم 163,446 نسمة. (المترجم)

مرات عبر البلاد «إلى بروصه وغيرها»، كما تتبختر ممتطية حصانها مثل الأمازونيات في شوارع «استانبول» أمام استغراب المدينة كلها.

في خريف سنة 1811 متعبة من القسطنطينية تقصد الليدي ستهوب مصر، ولكن السفينة تتحطم قرب رودس وتنجو الحملة كلها بحياتها بصعوبة، أما هي فتجبر على البقاء في ضيافة الحاكم التركي المحلي رغماً عنها، بعد أن فقدت كل خزانة ملابسها، تستخدم الليدي أستير الأزياء الشرقية «الرجالية منها»، وكما يبدو فإنّ هذه المغامرة قد سببت للدكتور ميريون والسيد بروس اللذين رافقاها إلى مالطة مرحاً شديداً، إذ نراهما بعد ذلك وهما يرقصان الرقصات الشعبية اليونانية مع السكان المحليين، ومن المصادفات الغريبة أن الملابس التي استخدمتها بالصدفة وبسبب الحاجة أضحت رمزاً للمرحلة الجديدة في حياة هذه السيدة الغريبة، فهي مباشرة بعد مغادرتها أوروبا التي لم تود أن تراها أبداً، وضعت جانباً الملابس الأوروبية أيضاً ولم تعد إلى ارتدائها بعد ذلك أبداً، فعندما وصلت النقود لتعويض المتضررين من تحطم السفينة اشترت الليدي ببضع آلافٍ من الفرنكات زيّاً «من التُنك»[1] من الأكساميت المزين بخيوط ذهبية، وزناراً كشميرياً فاخراً لتتابع رحلتها التي قطعتها هذه الحادثة إلى مصر. أستير في حالة من الاندهاش، بلدٌ مختلف تماماً، وأناس مختلفون، وعادات مختلفة، والحياة هنا لها طابعها المختلف بالنسبة للإنسان الذي يعرف كيف يصنعها، إذ تبدأ فرص جديدة على أعلى المستويات، حاكم مصر الكبير «نابليون الشرق» محمد علي باشا مشتاق للتعرف على ابنة أخي بيت فيستقبلها بتشريفات ملكية،

1 ـ التنك: رداء إغريقي كان الرجال يرتدونه مؤلف من ثوب طويل يغطي الركبة ويشد وسطه بزنار. (المترجم)

وتتشكل الأسطورة أنّ هذه المرأة الشريفة في أزياء البكوات الأغنياء ما هي إلا ابنة الملك الإنكليزي، وفي أكثر من مرة خلال إقامتها عدّة سنوات في الشرق كان لليدي أستير أن تعامل معاملة ملكية.

من القاهرة إلى دمياط وبعدها بحراً إلى يافا وفي هذه المرة دون مغامرات تذكر، وأخيراً إلى القدس، وأمام كنيسة «قبر المخلص» ينتظرها الراهبات والشموع في أيديهن، كي يرافقنها بحفاوة إلى داخل الكنيسة، والجنود الأتراك يحافظون على النظام بين الحشود المجتمعة، ومن ثمّ المغادرة إلى عكا، ثم نزهات في الضواحي، وزيارة لدى الوالي، ودوماً على رأس موكب من الفرسان، والمرحلة التالية هي صيدا "صيدون" الفينيقية القديمة، ومن هنا ترتحل الليدي أستير إلى جبال لبنان، إلى الدروز «الذين كانوا يسكنون في أعداد أكبر في لبنان، قبل أن يتجمعوا في حوران، التي تسمى أيضاً جبل الدروز، والتي اشتهرت بالحوادث غير البعيدة» تزور الأمير بشير أمير الجبل الداهية و الصارم، حيث هي مرّة أخرى ضيفة ملكية، ويتمّ استقبالها بتشريفات غير اعتيادية، ناثرة الذهب في كلّ اتجاه، ويوماً بعد آخر بدأ هذا النمط المؤقت من المعيشة يثير إعجاب ابنة الملك الإنكليزي، والرحلة إلى مصر وفلسطين تتحول ببطء إلى مسيرة مظفرة لسيدة ذات نفوذ وسيطرة، متوغلة في بلد قلّما كان مفتوحاً للأوروبيين. وعلى الرغم من مخاوف المحيط التي خشيت منها في دمشق، مركز التزمت الإسلامي، المعادية للأجانب، تُعلم الليدي أستير الباشا الدمشقي بزيارتها، وتدخل في موكب حافلٍ حقاً إلى المدينة التي لم يكن جائزاً للمسيحيين أن يسكنوا فيها خارج حيّهم الخاص، وتتجول براحة تامة في أرجاء المدينة وشوارعها، بعد أن استأجرت قصراً رائعاً في حيٍّ إسلامي، تقوم بزيارة حافلة إلى قصر الباشا، متجولة في المدينة بزيٍّ

الرجال مع السلاح في خصرها، تغدو أعجوبة مثيرة للمدينة التي ترى للمرة الأولى ظاهرة كهذه، مع ترحاب الباشا، فالمدينة مؤمنة أنّ هذه ملكة ما أتت إليهم من الغرب.

هل لعبت الليدي أستير دور الملكة واستفادت واعية من عادات وعقائد الشرق كي تُغني رحلتها السياحية وتجعلها مختلفة عن رحلات أبناء قومها بشيء جديد؟ وهل يمكن أن تكون قد آمنت إلى حدٍّ ما بنصيبها في رسالة تاريخية معينة؟ لا ندري. لكننا نميل إلى الافتراض أنَّ حلم السلطة في الشرق قد لعب دورا ما، و الشيء الملفت للنظر أن الليدي قد أصاخت إلى نبوءات العرافين، وضمت إلى رفقتها بعض المتصوفة المجاذيب، وأنها أعطت الأبراج دوراً أكبر، ربما كان لألق ماضي هذه الأرض المملوءة بالذكريات الغامضة العظيمة أثرٌ ما. ذكريات الملكة زنوبيا - حاكمة كلّ هذه البلاد، التي أثارت الإمبراطورية الرومانية، والجندية المقاتلة مع جنودها - لابدّ أنها كانت ما تزال حيّة جداً. لاسيما أنّ تدمر كانت غير بعيدة في الصحراء الواسعة المخادعة، التي تفصل واحة دمشق الخضراء عن ضفاف الفرات، لتدمرَ ألقٌ ساحر حتى أيامنا، لأنها اليوم موقع استراتيجي و تجاري على الطريق الواصلة من البحر الأبيض المتوسط إلى الهند. ولأنّ قوافل السيارات تسير اليوم على طرق الجمال القديمة ، إذن كم كانت ألوانها رائعة السحر منذ بضعة عشرة سنة مضت عندما وصل بضعة أوروبيين إلى ذلك المكان الغامض الذي نهض من رمال الصحراء، كالآلهة فينوس التي برزت من زبد البحر، أمام مرأى و إعجاب الرحالة الانكليز القادمين من حلب، الليدي أستير التي اكتسبت تعليماً راقيا ومتعدد الجوانب، كانت تعرف جيداً الكثير عن تدمر، وقد جلبت معها مخططات وود Wood ، وداوكينز

Les Ruines de Palmyre auterment dite Tedmor au :Dawkins desert,London 1753 *"آثارتدمر: أو تدمر في الصحراء. لندن 1753"* ،

التي أثارت فضول المحليين عندما ظنوا أنها مخططات وخرائط للبحث عن الكنوز المطمورة، ولكنّ الأمر المؤكد أنّ الخطّة المبدئية لهذه الحملة الأثرية المغلفة بذكريات الملكة زنوبيا - نظراً للدور الملكي لأستير في المشرق - توهجت بالآمال الذهبية كما شمس الشرق. يتراجع الباشا سليمان الذي أُعلم عن المشروع التدمري؛ فسلطته تصل فقط إلى ذلك البعد الذي تصل إليه مساكن الناس المأهولة، أما الصحراء فهي مملكة البدو الأحرار الذين هم كريح الصحراء لا يستقرون على شيء، ولا يعترفون بأية سلطة فوقهم، إذن يتراجع الباشا عن خططه للوصول إلى تدمر في القافلة الفارسية التي تمرّ فيها، تسافر الليدي ستتهوب بطرقها الخاصة، تسافر إلى تدمر على رأس موكب بدوي كبير، فبدلاً من أن تكون في حماية منهم، تحصل على سلطة عليهم، وخلال ثمانية أيام تسير القافلة عبر الصحراء و على رأسها الليدي أستير في زيٍ بدوي، أما الطبيب فكان يسبقها لتهيئة المساكن التي ستنزل فيها سيدته، وإيصال الأخبار إلى سكان تدمر عن قرب وصول الملكة.

وللترحيب بالملكة يخرج إلى فم وادي القبور الشيخ " أبو الرجال" «مهنا» محاطاً بمئتي شخص، وفي مقدمتهم ستون فارساً يستعرضون مهاراتهم الحربية، وفي الطرف الآخر تقترب الملكة ممتطية حصاناً رائعاً في أزياء ثرية الجمال، والرمح في يدها، ووراءها الحشد الأوروبي - البدوي وفي النهاية أربعون جملاً بأحمالها، خمسون فارساً يصطفون في تشكيلة عسكرية أمام الليدي ستتهوب قائدين مسيرتها المظفرة نحو هيكل الشمس، تتخلل الطريق وادي القبور ثمّ صفين من

الأعمدة مازالت واقفة حتى يومنا هذا في صفوف طويلة، وبين الأعمدة يرحب بالملكة فتيات في ثيابهن البيض والورود في أيديهن، راقصات بفرح حول الموكب الذي يرافقنه حتى المدخل، حيث اصطفّ شيوخ تدمر ينشدون الأغاني المرحبة بالقادمة، وكلّ السكان يشاركون في ترديد الغناء، الليدي أستير الآن هي في قمّة شهرتها؛ إنّها ملكة تدمر.

"عزيزي واين - تكتب بعد فترة إلى أحد معارفها - دون مزاح، توّجتُ ملكةً على الصحراء تحت قوس النصر في تدمر، لاشيء أبداً كان ناجحاً أكثر من هذه الرحلة الخطرة"، حقّاً، كانت الرحلة مؤثّرة، وواضح أنها فاقت أكثر آمال الليدي أستير الطموحة، مادامت تصف بهذا التأثر العاطفي ملكها القصير في تدمر، لها الآن أكثر من اسم مثل أبوللو إنّها الشمس، والنجمة، واللؤلؤة، والأسد، وضوء السماء، والملكة، كما قدمت لها العشائر من ضفاف الفرات آيات الطاعة و قد ارتدوا جلود الحيوانات البريّة، والوهابيون أيضاً، يمكنها الآن أن ترحل وحدها إلى مكة، إن أرادت ذلك، فصداقة قبائل البدو مضمونة وآمنة، وقضاء شهر مع عدة الآلاف من البدو ليس أمراً اعتيادياً، تضيف في رسالة الانتصار نفسها، أعجبها كثيراً سكان الصحراء، شيخ تدمر بدا ملكيّاً، حتى إنّ اللورد بيترشام لمات من الغيرة منه، كان أنيقاً كفرنسي، ومهيوباً كاللورد ريفرز أو دوق كرافتون، إنّ روعة حياة وشعر هؤلاء الناس تلائم خيالها الجامح، إذ لا وجود لأمة في العالم يمكن أن تبزّهم في جمال الكلام و طريقة التفكير، ويمكن للانكليز المساكين بخيالهم الفقير وإنسانيتهم المحدودة، أن يستفيدوا في أكثر من أمرٍ باتصالهم بشعوب الصحراء.

تمرّ الليدي أستير بمقبرة الآثار الضخمة دون أن تبدي أيّ اهتمام، نعم هي حقّاً تحبّ الفنون - تعترف في رسالة من رسائلها المتأخرة - لكن

مخلوقات الربّ تشغل من اهتماماتها حيّزاً أكبر مما تنتجه الأيدي البشرية، فالله هو خالق هؤلاء الناس الرائعين الذين وإن لم يملكوا شيئاً، هم مثال الجمال الجسدي والروحي، والربّ هو الذي خلق هذه الصحراء، التي لا يمكن وصف جمالها في الربيع الباكر، والساحرة بخضرة واحاتها، والمنعشة بروائح بذورها الدافئة.

مملكة الأحلام والرغبات انتهت بسرعة فائقة، والحكاية قاربت نهايتها، فمباشرة بعد وصول الليدي أستير إلى تدمر أتت الأخبار عن جماعات بدوية كبيرة على ضفاف الفرات بدأت بالتحرك بسلاحها بعد سماعها عن وصول الملكة البيضاء إلى الأرض الشَموس الصحراوية، والبدو الذين كانوا برفقة الملكة قرروا الانسحاب بسرعة إلى حماة على ضفاف العاصي وحدود الصحراء، حيث يمكن لحاكمتهم أن تكون، ولو مؤقّتاً، في مأمن تحت حماية السلطات التركية، ويمكن لنا أن نتخيّل كم كانت الليدي أستير ستتهوب مكرهة على الرحيل من تدمر التي رافقتها لوحتها الملونة بألوان قوس قزح إلى نهاية حياتها، والتي ارتبطت باسمها إلى الأبد ذكرى هذا الوجود الغريب، لم تعد أبداً إلى مدينة الخرائب والنخيل الصحراء، اشترت بأربعة أيام من المملكة الرائعة سنيناً من الوحدة في الصومعة على جبل لبنان، حيث كانت حاكمة مستبدة حقاً على قلعتها الصغيرة وخدمها الأوفياء، ومع ذلك فإنّ هذه الأيام الأربعة كانت كافية كي تتشكل الأسطورة التي بدأت تُذيع في الشرق شهرة ملكة الصحراء العظيمة، وتحيط الليدي أستير بوهج ألق عجيب. كما وصلت هذه الأخبار إلى أوروبا، وهنا أيضا تشكلت أسطورة حول دولة عظيمة في المشرق وعن مملكة زنوبيا الجديدة.

أربعة أيام! لا نعرف ما الذي حدث في تدمر منذ ذلك الوقت الذي

تركت جيوش الايليريين كتاباتها هناك إلى أن أعاد التجار الانكليز الفضوليون القادمون من حلب اكتشاف الواحة السريّة، لا نعرف كيف كانت حياة الصحراء وعاصمتها، ومن الذي بنا القلعة القروسطيّة الكبيرة على قمّة الجبل، وأية كوارث تاريخية حولّت المدينة إلى قرية بدويّة. عشرة قرون وأكثر مرّت دون أثر، وبضعة الأيام التي قضتها هذه الانكليزية الغامضة بين الخرائب كان لها هذا الصدى المدوي المتكرر، عجيبة هي الحقيقة التاريخية، وعجيب هو التاريخ سيّداً للحياة، فالواقع أنّ المرويات التاريخية ما هي سوى قضيّة حظٍّ سعيد، وربما أيضاً إنّ الفكرة الشجاعة هي أكبر من الوقائع نفسها أحياناً.

دون شك كانت الليدي أستير ستنهوب تعبر حقيقةً إلى الضفة الأخرى؛ من المغامرات السياحية التي اشتهتها إلى الإيمان الصوفي برسالتها التاريخية، فقد دغدغتها من قبل هذه الأفكار، وبآذان مفتوحة أصغت إلى النبوءات، وكانت تعود بأفكارها إلى الملكة أستير، فأحاطت نفسها بمتنبئين رائعين، وكانت تستعين بالأبراج أحياناً، وبالإضافة إلى هذه الأفكار ذات المذاق الشرقي وعدم الميل إلى أوروبا والإيمان أنّ الشرق هو وطن الإمكانات اللامحدودة، تكونت أفكارها حول الخيارات المتنوعة في حياتها الخاصة غير المحدودة أيضاً، كانت لدى ابنة أخي بيت الكثير من غرائب الصدف أو لنقل par esprit contradiction، ومن ذلك ربّما لكرهها انكلترا كانت معجبة بنابليون حتى العبادة، بل إنها صرحت أكثر من مرّة أنه كان الإنسان الوحيد الذي لديه القدرة لنقل الشرق إلى أسمى مكانة، لكنه أخفق بسبب قيود أوروبا، الأفكار حول حملها رسالة نابليون التاريخية تفاعلت بذكرياتها الطازجة في مصر ويافا وعكا

بوجود المؤمنين بهذه الرسالة بالقرب منها، ولكن هل كانت هذه الأفكار غريبة حقاً بالنسبة إليها؟ لكنّ المؤكّد حقّاً أن ملكة تدمر وحاكمة سوريةومصر زنوبيا كانت يوماً بعد يوم هي الأقرب إلى أفكارها.

ومع حملتها إلى تدمر تنشأ مشاريع أخرى؛ تفكّر الليدي أستير بالحجّ إلى مكة واثقة برعاية القبائل البدوية، فتقوم بمراسلة عبد الله بن سعود زعيم الوهابيين، أمير الشرق الأكثر ثراءً وخطراً، وتدور الإشاعات حول زواج ابن سعود بملكة بيضاء، ومشاريع أخرى تقودها عبر الصحراء إلى البصرة ومنها إلى الهند.

ومع ذلك تعود الليدي أستير ستنهوب إلى حماة مؤقتاً، وتحتفي بها على الطريق عشائر البدو مقدمين لها أسمى آيات الاحترام، والمدينة التي ودعت الحملة المغامرة قبل ذلك بمدة غير بعيدة، تعود للترحاب بالملكة التي تجرأت بالولوج إلى قلب الصحراء الغامضة و العدائية. فالباشا نفسه محاطاً بجيشه كاملاً لما وجد الشجاعة للتوغل في دولة خيام وبر الإبل المتنقّلة. ومن حماة تقودها الطريق إلى مدينة اللاذقية المدينة الساحلية «على الأغلب لاوديسا Laodyceia القديمة وعاصمة دولة العلويين اليوم التابعة إلى الاتحاد السوري» تلتقي الليدي أستير بالقبائل الأنصارية في الجبال القريبة، والنادرة معرفتها اليوم، والتي تخفي ديانتها بغيرة كبيرة إذ هي خليط من عقائد الصابئة والمسيحية المبكرة والمغطاة بغلالة إسلامية خارجية، تقضي الليدي أستير وقتاً ما مادحة نبلهم وكرم ضيافتهم، وبعد فترة قصيرة بعد ذلك تستدعي إليهم بسبب مقتل الضابط Boutin[1] بوتان بتدخلها شخصياً الجيش

1 . تعرفت استير على الضابط الفرنسي بوتان في القاهرة وصاحبته، وكان قد اغتيل في أثناء مهمة جاسوسية له لخدمة بونابرت، فأرسلت أستير أربعة من رجالها لجمع=

التركي الذي يتم مهمّته بحسب العادات الشرقية بدموية تامّة. تزور بعدها آثار بعلبك الرائعة ، وبالطبع مرّة أخرى مع مغامرات مثيرة، وفي النهاية تستقرّ عدّة سنوات في الدير القديم في «مار إلياس» قرب صيدا. وبعدها تسكن البيت الذي في «ضهرة جون» في جبل لبنان بشكل دائم، وقد قامت هي بحسب أفكارها الخاصة بتطوير بنائه، مضيفة إلية أبنية، ومخططة حدائقه، ثم أحاطت هذه المدينة المصغرة بسور مرتفع، وقلة من الضيوف الذين سمح لهم بزيارة حاكمة هذا القصر النادر وصفوه متأملين دقائقه ومعترفين بأسلوب إنشائه المبدع.

ليس من الصعب الافتراض أن الليدي أستير في ملكها المتوحّد أو منفاها الاختياري كانت تستوحش أكثر فأكثر، ولاسيما أن الأعوام تمضي عاماً بعد عام، وتبدأ الليدي المشهورة قبلاً في الصالونات الانكليزية الحياة على الطريقة الشرقية، وتصبح قليلة العناية بنفسها أكثر فأكثر وتبدأ بتدخين الغليون بشراهة، وتعيش في الفوضى والقذارة، و يثرثر ضيوفها في المحيط عن ذلك مستغربين، وأخيراً تنفذ ثروة الليدي التي قامت بتبذيرها خلال الإقامة لسنوات طويلة في الشرق على حفلات الاستقبال بسخاء، وعلى الهدايا،

=المعلومات عن الحادثة كي تنتقم له، وتدخلت لدى الباشا سليمان حاكم عكّا الذي خاف من أن تشكوه إلى السلطان، فكلف مصطفى برير حاكم طرابلس كي يقوم بحملة تأديبية على جبال الساحل، فتحرك في جحفل إلى قرية البلاطة، وكانت حملته وحشية ضارية، وتقول الكتب إنه أحرق حوالى مئة قرية؛ ذبح النساء والأطفال والشيوخ، وسلخ جلود بعض الرجال وهم أحياء ودفنهم قبل موتهم، وأرسل إلى طرابلس اثنين وخمسين رأساً من رؤوس وجهاء القوم، ولم يتوقف إلاّ بأمر من السلطان، وقد كافأت الحكومة الفرنسية أستير برسالة شكر على ما فعلت من أجل ضابط فرنسي. (انظر: جورج مصروعة، أستير ستهوب ملكة العرب غير المتوجة، دار المكشوف، 1967،ص 156- 164). (المترجم).

والخيول العربية، وتتكاثر مشكلاتها المالية الكبيرة حتى تقع في المديونية التي تكبر يوماً بعد يوم، وفي النهاية تقع في الفاقة التي تقضي فيها الليدي أستير أيّامها الأخيرة، ومع أسلوب الحياة الشرقية يتخذ موقفها من الخدم طابعاً تسلّطياً واستبدادياً أكثر فأكثر في كلّ منحىً من مناحي الحياة، وهكذا تستقر حقاً كلّ مظاهر الحكم الشرقي الاستبدادي هنا في هذا الكون الصغير على ضهرة جون. وتُظهِر أستير في الوقت نفسه أيضاً ميلَ تطورات أفكارها الدينية نحو الشرق، وتبدأ مسيحيتها بالاقتراب نحو الإسلام أكثر فأكثر، ويقودها قربها من الدروز الذين كانت لها معهم علاقات دائمة نحو التوفيقية بين عناصر الأديان المتنوعة التي تقف منها موقفاً عاطفياً متسامحاً إلى حدٍّ كبير، وكأنها تضع نفسها في موقع أعلى منها جميعاً. الإيمان بالقدر، الذي ينمو داخلها أكثر فأكثر، هو أساس نظامها الفكري، وتفكر في هذا الموضوع مرة بعد أخرى، والأحاديث حول النجوم التي توجه مصائر الناس، تعدّ من أكثر مشاغلها المحببة، ومع ذلك فإنّ السيدة لم تبق حبيسة جدران قلعتها الصغيرة المخفية دون نشاط، بل تلعب دوراً فاعلاً في الأحداث السياسية؛ فهي من جهة ثقتها بنفسها إلى حدٍّ كبير القائمة أيضاً على إيمانها برسالتها التاريخية، ومن جهة ثانية شهرتها العريضة التي أظهرتها كسيدة عظيمة، أدت بهذه المرأة العجيبة حقّاً التي، لا تمتلك في الحقيقة أيّة سلطة رسمية إلى أن تكون شخصية هامة على جيرانها الأسياد أن يحسبوا حسابها؛ مثل الأمير بشير الذي كانت على خلاف دائم معه، بل وآخرين أيضاً مثل محمد علي، حاكم مصر، الذي كان ينظر مستغرباً في أثناء تقدمه ضدّ الجيوش التركية إلى الدولة الصغيرة في ظهره جون، التي تتبع سياسة مستقلة، والتي لها تأثير مهم

على سير الأحداث. واضح أنّ السلطة ليست فقط قضيّة قوّة القبضة، بل يمكن أيضاً الاعتماد على الهيبة، وقد كانت الانكليزية النبيلة ماهرة في استغلال هذه الهيبة، وكلّ أولئك الذين كانت لديهم فرصة زيارتها في جون، وكانوا في المحصلة بضع عشرات خلال الأعوام الطويلة، أكدّوا بوضوح هيبة السيادة لدى هذه المرأة التي كانت تطعن في السن أكثر فأكثر، والمريضة، التي كانت تعيش في الفاقة التامّة في منزلها الذي دمّره الزلزال سنة 1837.

كان لامارتين أشهر وأنبل ضيف قدّم احترامه لآمرة القلعة المتوحدة في جون سنة 1832، والذي خصَّ في المجلد الأول من كتابه Voyage en Orient "رحلة إلى الشرق" ذكرياته عن الليدي ستنهوب بجزء لا بأس بطوله. يصل بعد رحلة عدّة ساعات متعبة من صيدا إلى ذلك المكان الجبلي المنعزل، الذي يصدمه بخصوصية بيوته الواطئة ذات الطابق الواحد، دون نوافذ وأثاث، التي تصل الحدائق بينها، وكل هذا التركيب المسلي، الذي يذكّر بأديرة الرهبان المتسولين الفقيرة الجبلية في إيطاليا أو اسبانيا، كان مسوّراً بجدار مستمر لا ينقطع إلا عند كشك يمكن منه الدخول إلى ذلك التجمع السكني المميز. بعد عدّة ساعات من الانتظار يقود زنجيٌّ صغير الشاعر خلال بهوٍ ما، بعدها خلال حديقة، وعريشة مفتوحة، ثم عبر عدّة ممرات مظلمة إلى مكتب السيدة أستير، يقدّم لنا لامارتين سيدة في حوالى الخمسين من عمرها، ذات ملامح حادّة، تشعُّ نبلاً وسيادة، مرتدية أزياء شرقية، وتحديداً ثوباً تركيّاً طويلاً مهفهفاً من الحرير الأبيض، وشالاً كشميريّاً أصفر مرمياً براحة على كتفها، منتعلة حذاءً من الجلد المغربي، وعلى رأسها عمامة بيضاء، وقد شدّت جبينها بعصابة كرزية اللون يتدلى طرفاها على كتفيها. كانت المحادثة حيوية ومديدة

ومثيرة باعثة على الثقة، هكذا يصفها على الأقل لامارتين في عدّة صفحات. وقد مست قضايا مصير البشرية، والنبوءات الفلكية، وعلاقات أوروبا بالشرق، وقراءة أبراج الشاعر كانت ايجابية، فقد تنبأت العرافة ناظرة إلى الشاعر نظرة مليئة بالعاطفة وبرّاقة بضوء سماوي، بأدوار هامة في الحوادث التي ستجري في فرنسا، البلد الأوروبي الوحيد الذي يمتلك رسالة تاريخية، .أكدّت أنه سيعود مرّة أخرى إلى الشرق، الذي هو وطنه. إنه على الأقل وطن أحلامي - يجيب الشاعر المهذب، الذي بدا معجباً بكلمات السيدة المليئة بالأسرار. لكنه تأثر فقط لأنّ هذه المرأة المشهورة لم تسمع باسمه قطا! يكتب عن هذه الناحية عدّة جمل: "ما هي شهرة الإنسان، ليست سوى صدىً اسم يُكرّر ملايين المرات في أوروبا، ثم إنه لضعيف جداً كي يعبر البحار والجبال، فإذا به هنا إنسان جديد، إنسان غير معروف نهائيّاً، واسم لم يلفظ قطّا!" يبدو أنّ هذا الحب الرومانسي الخاص لدى الشاعر لم تثر انتباه الخبيرة العالمة بشئون البشر، ما دامت بعد عدّة سنوات لاحقة سخرت في حديثها مع القسّ Pückler Muskau بوكلر موسكاو من الشاعر غريب الأطوار بحدّة هازئة، مع أنه كان يوسّع لها في الوقت نفسه شهرتها في العالم الأرحب« وهذا ما يصفه ميريون بالتفصيل»، غير ناسين أيضاً افتخاره بصداقتها وثقته بها.

مؤكدٌ أن السيدة ستهوب لم تأخذ لامارتين مأخذ الجدّ. كانت تعرف الناس جيّداً، وكانت تمتلك روحاً ساخرة إلى حدٍّ كبير، مما عزلها عن الناس، أما الإنسان الذي كان يجب أن يكون الأقرب إليها، الذي كان من الناحية الموضوعية قريباً من أسلوبها فهو Wacław Rzewuskiفاتسواف جيفوسكي[1]. لا يوجد لدينا في الواقع

1. Wacław Rzewuski فاتسواف جيفوسكي(1785.1831)شخصية غنية بالأسرار، =

سبب كي نصدق حرفيّاً روايات تاج الفخر عبد النيشان الذي يميل إلى المبالغة وحب الألقاب والخيالي، لكنّ تشابه هذين الإنسانين أمر مهم جدّاً ــ فكلاهما كان ابن عصرهما، ولديهما القلق الديني والاجتماعي نفسه، الذي يعبر عن نفسه في الاتحاد الصوفي الضبابي، والتاريخية، وكره المجتمعات الأوربية، والبحث عن النور الذي سيأتي من الشرق، كلاهما كان نبيلاً، وثريّاً، وبملكات فكرية استثنائية، مغرمين بالأعمال الكبيرة، والشهرة الفائقة المدوية، قصدا الشرق وعاشا حياة الشرق المتخلف بتطوره عدة قرون إلى الوراء، كي يكونا على وفاق مع أفكارهما الخاصة، التي لا تتواءم مع التطور الذي حصل في القرون نفسها نحو حداثة العلاقات في المجتمعات الأوربية في زمانهما، وقد كان هذا حتماً بالنسبة لأكثر الناس الذين تغذوا على هذا الواقع الفكري والفني لعصرهم رغبات غير واقعية، أو عالماً داخلياً، أو أيضاً وضعاً تكبريّاً، لكنه أضحى لعدد من الأشخاص غريبي الأطوار منهج حياة. ومن هنا أتى التشابه الكبير إلى حدود بعيدة بين ملكة تدمر وأمير البدو. كان الأسلوب هو نفسه، والبدايات أيضاً كانت متشابهة. لكن لا ريب أنّ السيدة أستير فاقت بشخصيتها المثابرة وجلدها حفيد القوزاق بروحه الثائرة والمتقلبة، فهو

=سليل أسرة نبيلة، كان جده ستانيسواف سفيراً في بلاط العثمانيين، وأبوه سيفيرن قائد فرقة قوزاقية. شارك في الحروب النابليونية، وتآمر على القيصر الروسي، وكانت له علاقات بالأميرين آدم تشارتورسكي ويان بوتوتسكي، تعلم العربية على يد القس أنطون عريضة، وأصدر مع المستشرق النمساوي يوزف هامر مجلة "كنوز الشرق". وقام برحلات إلى المشرق العربي، وتتضمن مخطوطته Sur les chevaux orientaux et prove nant des racs orienhales المحفوظة في المكتبة الوطنية في وارسو برقم rkps. 6475\II دراسات كثيرة عن الخيول العربية الأصيلة، وقبائل البادية الشامية والتراث الشعبي البدوي.(المترجم).

لم يعرف في أثناء إقامته السنوات الطوال في الشرق هل كان سائحاً أم عالماً، أم عميلاً دبلوماسياً في خدمة روسيا، أم سائس خيول يشتري الجياد العربية الأصيلة لقصور النبلاء والملوك الأوربيين، أم أميراً بدوياً في النهاية، وحاجاً إلى مكّة؟

لابدّ أن السيدة أستير كان عليها أن تتأكد مع من تتعامل تتحدث عنه في مذكراتها بود، لكن باختصار شديد، وكأنها تحجّم منافسها.« وذلك فيما يتعلق بالسلطة على قبائل الصحراء، ومعرفة الخيول العربية» أما جيفوسكي فقد وقع مثل لامارتين تحت سحر السيدة العظيمة، إذ يصف إقامته لدى حاكمة المأوى اللبناني بكلمات ملؤها الإعجاب. لا نملك للأسف مذكرات كاملة لرحلة جيفوسكي إلى الشرق، بل لدينا مجلدان من كتابه: Sur les chevaux orientaux et prove nant des racs orienhales "حول الخيول الشرقية، والمنسوبة إلى السلالات الشرقية" المحفوظ على شكل مخطوطة بين مجموعات المكتبة الوطنية، وهي تمدنا بمعلومات وتفصيلات مثيرة كثيرة، تتيح لنا معرفة تاريخ هذه الحياة العجيبة إلى حدٍ ما.« نشر لوتسيان شيمينسكي عدداً من النصوص المتخيرة بعناية من هذه المخطوطة في مجلة Portrety Literackie "صور شخصية أدبية" المجلد الرابع بعنوان الأمير تاج الفخر.» لا يمكننا تحديد زمن زيارات جيفوسكي إلى السيدة أستير من ملاحظات جيفوسكي الفوضوية المتناثرة في مخطوطته المذكورة أعلاه عن الخيول الشرقية، فربما كانت سنة 1819 أو أبكر في سنة 1818. كانت السيدة تسكن آنذاك بشكل دائم في مار إلياس قرب صيدا، وفي فصل الصيف كانت تتراجع بعيداً إلى الجبال حيث تسكن في صومعة درويش ما مهجورة، وكانت جماعتها تسكن حولها محتمية

تحت الخيام المبعثرة. يكتب جيفوسكي إليها رسالة مازلت نسختها غير الأصلية محفوظة ضمن مخطوطته:

" أستير أيتها النبيلة! السلام عليك! إنّ الأمير تاج الفخر عبد النيشان الأكثر فخاراً وحرية من بين بدو الصحراء النجدية، مدفوعاً برجاء العرب يقطع مسرعاً على حصانه شاطئ البحر...إنّ صوت الإنسان النقيّ، الذي ترعرع في الحرية قد أشعل في داخلي رغبة الاقتراب إليك، ترددت طويلاً يا أستير! لكن السبب كان شيئاً آخر، رغبت فقط أن يصلك اسمي، وأن تقدمني إليك أخبار أعمالي الحربية. وهذا ما حدث. إنّ تبجيلي لك، يا أستير! لا يمكن أن يقع لديك موقعاً لا يثير انتباهك..."

رسالة رد أستير الأصلية«لا نعرف عن مصيرها شيئاً، إذ لا وجود لها في مجموعة تشامبرلاند: Life and letters of H.S. "حياة ورسائل أستير ستنهوب"» تردّ بلطف، لكن كما هو واضح على أسئلة أخرى، ومن هنا نستنتج أنّ رسالة جيفوتسكي السابقة هي إعادة صياغة من ذاكرته الجامحة أثبتها في مخطوطته. فالسيدة تعلق على بداوة جيفوتسكي بسخرية واضحة الظلال:

"سيدي الكونت!

أعتقد بأنكم جديرون حقّاً بلقبٍ بدويّ، على الرغم من أنني لست في وضعٍ يؤهلني لمعرفة كلّ فضائلكم، لكن واحدة منها على الأقل لم تعد خافية علي، فنسائم الصحراء العطرة حملت إليّ شرف إنسانيتكم. ولديكم الآن عندي حظوة، ولا أستطيع أن أمنع نفسي من متعة التعرف عليكم..." «لم تكن لغة أستير الفرنسية سليمة، ودليل ذلك الرسائل الفرنسية العديدة المنشورة في مجموعة الأميرة تشامبرلاند». وتتحدث في القسم التالي من الرسالة عن الأدلاء، وتعلن

موقفاً سلبياً من سيدة ما هي زوجة أحد القناصل، وتذكر أشياء عن الخيول وما شابه ذلك. كانت الرسالة لطيفة، ولهذا فإنّ جيفوسكي يسافر في الجبال مرتدياً عباءة أميرية، وكوفية بدوية على رأسه، ليصل بعد عدة ساعات إلى مقر أستير، ولرغبته التعبير عن احترامه العميق، يقدم تحياته خالعاً نعليه، " عندما وقفت في عتبة بيتها - يكتب - مع أنني أعتدت على مصاحبة الحكام والناس العظام، شعرت بالاضطراب والإثارة لمرأى هذه المخلوقة، المعبودة كإلهة في الصحراء." كانت أستير ترتدي عباءة أميرية بيضاء، ذات قامة جميلة ممتلئة، لها جمال العذارى وسطوة الحكام، وتركت أثراً عظيماً في جيفوسكي، كانت المحادثة في البداية رسمية، ونابعة كما يذكر الأمير - "من الإعجاب المتبادل"، وعندما اعترف لها جيفوسكي أنه بولوني، مشرد، ومطارد دون وطن، وقد جاء ليعيش حريته بين الشعب الحر. ربط هذان الغريبان اللذان اختارا الاغتراب بحرية شخصيهما برابطة عاطفية أكبر. وبحسب رواياته فإنّ زيارة جيفوسكي الأولى كانت محددة بيوم واحد فقط، وكانت أيضاً كذلك في المرة الثانية، لكنه أمضى في الزيارة الثالثة سبعة عشر يوماً، قضاها كاشفاً مكنونات نفسه للغالية أستير وعن تعاسته الشخصية، ووطنه المأسور، وعن كرهه أوروبا، وقد خصصت الأمسيات لهذه الأحاديث، وأجزاء من الليل.، أمّا النهار فأمضاه بامتطاء الخيول وكتابة الرسائل العاطفية المشبوبة إلى أستير، وقد حفظت في مخطوطته، وقد قام شيمينسكي بطباعة ونشر هذه الرسائل الطويلة إلى حدٍّ ما، وهي اعترافات، وشكوى، واعتذارات عن تصرفاته، وتعبير عن مشاعر حبه لأستير.

"نعم إنّ الأمر كذلك، يا أستير! أعترف لك الآن أنني ضحية عشق

عظيم، لو أنّك عرفت أسباب تعاستي، وإلى ذلك الوقت فإنّ هذه الجفون الناعسة، وهذا الوجه الذي يسرّ بسوداويته، وهذا المزاج المتقلب، والنزق الجنوني - بكلمة واحدة إنّ كل ما يسوؤك في شخصي، وكلّ ما تتمنين تغييره - سيصبح بنظرك أمراً بريئاً...

" إنك تطلبين أن أكافح عشقاً بعشق آخر، أحبّ أن أرمي بنفسي في المخاطر، شجاعتي معروفة لديك..ولأجل طلبك فإنّ فرقة المغنيين من قبيلة الرّولة حضروا للترحيب بي عند سفوح جبال لبنان الشرقية، وفي Herubieh "حروبياتهم"[1] التي ألفوها في مديحي، غنّوا أنّ الصحراء كلّها تردد أصداء اسمي، وعذارى نجد رانيات بأبصارهن نحو البعيد مشتاقةً تتساءل ألم يعد بعد أمير الشمال، عبد النيشان، منافس عنترة؟ لقد غنّى أولئك كيف غارت البدويات الفاتنات من تلك التي تشير إليها العلامةُ المنحوتةُ على أعمدة تدمر، مكررات نداءهن : هلمّ إلينا يا أمير، يا فخر قبائلنا...

"تلومينني، وأيضاً البارحة لمتني على تعابير وجهي الجشعة، وأنني لست ممتعاً، أعترف بذلك. يغضبك نزقي - ومعك الحق. كثيراً ما أمسك بك من يدك، وأعصرها بعنف، بل أرتجف أحياناً، ليس الجشع هو ما يرتسم على وجهي بل المعاناة، وأحياناً الخوف. تذكري الحرب التي أعلنتها عنيفة على قبيلة أولاد علي. أعترف الآن لك، أنني أردت أن أوجه ضربة قاتلة للعدو، ظنّاً أني سأستطيع أن أغرق حزني في أشواك الضمير، لكنّ السماء ترأفت بي وعكست رمية الرمح...

" لو أنّ هذا يصلها، لكن لن أراها أبداً، أنا الذي أصبحت مشهوراً في نجد لن أرى أبداً وطني، ولا قبور أسلافي، فما الذي سيبقى لدي؟ سوى أن أسمح بقتلي ربما في هذه الصحراء!"

---

1 - ربما أراد أشعارهم الحماسية (المترجم).

ريما بابكين قائد الخيالة العزب يستطيع أن يكتب رسالة مشابهة! لكن هذا لا أهمية له الآن، ولا يمكننا أن نبحث عن أسباب شهرة هذه الشخصية العظيمة التي مثلها جيفوسكي في أسلوب كتابة رسائله المتسلسلة، إذ لا نعرف في النهاية أكانت هذه الرسائل ex post فعلاً نوعاً من أنواع التمرين على فن الكتابة، أم إنها كانت أيضاً تعمية محيرة بأسلوب ذلك العصر. كما نشك كذلك أيضاً هل نزل جيفوسكي ضيفاً حقاً على أستير مرات عديدة، لكننا لا نستطيع في الوقت نفسه أن نشك أنه لم يقع تحت تأثير فتنتها. فذلك ما تؤكده الشواهد العديدة، ففي واحدة من رسائله نجد تأكيداً واضحاً أن رحلات جيفوسكي الشرقية كانت إلى حدّ كبير لتقليد السيدة ستنهوب.

"لن أخفي عليك، أنه عندما قرأت اسمك في الصحف إلى جانب القبائل الصحراوية، تملكني غضب شديد - قلت - امرأة، امرأة واحدة استطاعت أن تأسر قلوب أناس الطبيعة، وأن توقظ فيهم الحب لشخصها، فهل عليّ أنا أن أكون في مكانة أدنى من مكانتها؟ إما أن تكون أستير هذه عبقرية خارقة، أو رسولة الجحيم! قلت هذه الكلمات لابن بلدك السيد Neuville نيوفيل الذي ساق فيك آيات المديح العظيمة في حديثه عنك بحضور جدّي الأمير تشارتورسكي[1].."

---

1 - يقصد الأمير آدم بيجي تشارتورسكي(1770- 1861): زعيم سياسي بولوني، شاعر وناقد أدبي، ومحب للفنون، كان سياسياً محافظاً وصديقاً للقيصر الروسي الكسندر الأوّل (1803) ومفتشاً لمعاهد العلم في فيلنوس، ورئيس الحكومة الوطنية في ثورة تشرين الثاني ضد الاحتلال الروسي لبلاده، وقائد وزعيم المهاجرين النبلاء في باريس (فندق لامبارت) حيث أبدى نشاطاً تنظيمياً قوياً وعلاقات دبلوماسية مع دول الشرق والغرب لمقاومة احتلال بلاده والسعي لتحريرها.(المترجم).

إنّ ذكريات جيفوسكي عن دليله وروزيا في رسالة أخرى، وأشواقه المتعلقة بقسم لذيذ لإثبات عشقه، وشهرته التي وصلت إلى القمة، وجائزة الحب، تدفعنا كي نقوم بالتدقيق جيداً في مضامين وثائق هذا المتباهي؛ فالأسلوب الأدبي التقليدي الشائع في أوروبا تلك الأزمنة قد أناخ بثقله على الناس الذين خيّل إليهم أنهم قد قطعوا فعلاً مع أوروبا.أما السيدة أستير فتبدو، مقابل جيفوسكي في أسلوبه المولع بالإطناب، معتدلةً في أحاديثها، تذكر جيفوسكي مرة واحدة فقط في أحاديثها مع الدكتور ميريون، الذي يكرر بدقة ما قالته، والحقيقة أن هذه الأحاديث التي جرت في أواخر أيام أستير، بعد ما يقرب من عشر سنوات من وفاة جيفوسكي، يمكن أن لا تكون دقيقة، ومع ذلك، لو أنّ اعترافات الأمير المبالِغ كانت صحيحة جزئيّاً، لوجدنا ربما في إشارات العجوز الغريبة التي صرّحت بها لكاتب سيرتها معلومات أكثر غنى إلى حدٍ ما. تتحدث السيدة الفخورة عن "Count Rewisky" الكونت "ريويسكي" بحب، وترى فيه مثال النبالة المتحدرة من أسرة عظيمة. سافر الكونت إلى قلعتها الصغيرة من بيروت ، في زيّ بدويٍ، على فرس أصيلة، لكنها لا تساوي ربما أكثر من مئة جنيه، « كم كان مؤلماً هذا التقويم الذي وجهته لخبير الخيول الشرقية، وعاشق فرسه الأكثر أصالة، ذات الاسم الجميل: Muftaszara neżdieh Koheileh Obejat el Hamrah[1]» عرف الراعي الذي صادفه على الطريق مباشرة، أن مثل هذا الفارس لا يمكن أن يكون سوى ضيف "الملكة"، فيدله على

1ـ يمكننا قراءة هذه الأوصاف على النحو التالي: مفتخر(فاخرة؟) نجدية، كحيلا، أبية، الحمراء. (المترجم)

الطريق إليها. كان الكونت يحكي أشياء طريفة أثارت إعجاب السيدة ستهوب، فتصفه noble-minded man "برجل الفكر النبيل"، وتؤكد أنها وجدت فيه داعماً متحمساً لآرائها «وهذا ما يمكن أن نصدقه بسهولة». يخبر جيفوسكي السيدة أستير أنها ظهرت له في ظروف مختلفة وكأنها الروح النبيلة التي تحرس خطواته، ويقص خصوصاً عليها؛ كيف عندما أجبره القيصر الروسي الكسندر القيام بمهمة لا تتوافق مع أفكاره الأخلاقية، وكان حائراً في الاختيار بين معارضة مبادئه أو الغضب القيصري، فقرر الرفض تحت تأثير السيدة ستهوب التي ظهرت له في المنام، وقالت: "أيها الكونت، امش في الطريق الموافقة لضميرك، ولا تخش شيئاً"، وقد تقبل القيصر الرفض بهدوء، وأمام استغراب الكونت لم يعد قطّ إلى ذلك الموضوع.

نعرف أنّ حدود الواقع والخيال كانت غير واضحة لدى جيفوسكي، لنتخيل إذن أنّه قصّ على السيدة أستير أغرب الحكايات المتنوعة، لكنه كان في المحصلة واحداً فقط من ضيوفها الكثيرين، الذي عبر على الرغم من غرائبيته دون أن يثير لديها انتباهاً كبيراً يمكن أن نضيفه إلى هذه الملاحظة الودية القصيرة، التي لا نجد غيرها في مذكراتها أو رسائلها.

*

ماتت السيدة أستير ستهوب في جون في 23 نيسان 1839 في وحدتها التامة وفقرها المدقع، ودفن جسدها في حديقة منزلها ليلاً تحت أضواء المشاعل، قلّة من الخدم والقنصل الانجليزي في صيدا كانوا حضور هذه الجنازة العابسة، التي حددت الغريبة المتوفاة طقوسها سلفاً.

قبل أقلّ من سنة بعد وفاتها زار جون الحاج البولوني القس Ignacy Hołowiński إجناتسي هووفينسكي، كاتب الأشعار العاطفية والصريحة أحياناً، وقد وصف في كتابة Pielgrzymki do Ziemi Świętej, Wilno 1842 " رحلة حج إلى الأراضي المقدسة، فيلنو 1842" سفح الجبل الصغير المحاط من جهاته بسور منخفض، وفي جهة واحدة منه ينتصب منزل بطابق واحد مع بناءين صغيرين إضافيين، أما الساحة المحاطة بالسور كلها فتشغلها حديقة جميلة مرتبة بذوق انكليزي". تسمح لنا بعض التفصيلات التي كانت أصداء أخبار تدور حول السيدة ستهوب أن نفهم كونت الوقائع الفعلية الأسطورة؛ ويحكي هوفينسكي بالإضافة إلى ذلك عن تنصيب أستير ملكة على تدمر، وعن عدها قديسة ، وعن جوازات السفر التي كانت تصدرها للرحالة القاصدين تدمر، وعن نقل جثمانها إلى أوروبا ، وعن مترجم هوفينسكي الذي خدم في جون عدة سنوات لكنه لم يرَ قط سيدته ، لأنها لم تسمح لأحد من الرجال الذين خدموها بالدخول إليها. يزور الحاج الفضولي مقرّ السكن كلّه، ويجده "مخرّباً إلى حدٍّ ما"، وفي الغرفة التي قضت فيها السيدة ستهوب تتملكه تأملات حزينة حول فناء العالم، وعزلة الروح المرعبة بعيداً عن العالم وغير قريب من الربّ. يغادر المنزل لكن تلاحقه أيضاً في الحديقة الأفكار عن هذه الحياة العجيبة، والموت في العزلة، ويخص هذا كله بمقطع شعري:

لأخذ العِبَر، كلّ ما حولنا

يردد آلام المخلوقة المسكينة

وهبّة الريح نفثة حزن عميقة

والدمع المنثور في حديقتها بذوراً

إذ تتفتح وريقاتها تداعب النسيم

كأنها تهمس ألماً دفينا

كم هو محزن أمر هذه السيدة، التائهة على أجنحة أحلامها. يكتب أيضاً. "والمحزن أكثر أنّ هذه الروح العظيمة التي كرهت العالم كانت قادرة على السمو نحو ضوء الحقيقة" ربما كانت هذه الإشارة هي الوحيدة إلى السيدة ستهوب في الأدب البولوني، وهي بالتأكيد أيضا واحدة من النفثات القليلة الأكثر حزناً عموماً.

يقع قبرها الذي جدِّد بمساعٍ من عائلتها في نهاية القرن الماضي على منحدر صعب المرتقى، ويزوره السياح استثنائيّاً، وهو ليس مذكوراً في كتاب الدليل السياحي، وقد وصفه وصفاً رائعاً Pierre Benoit بيير بونوا في الرواية المشهورة La Chatelanine du Liban "حارسة قلعة لبنان".

بالطبع إنّ كونتيسة النسور، و"حارسة قلعة لبنان" بطلة الرواية مع إعجابها إلى حدّ العبادة بالانجليزية غريبة الأطوار، ليست العمل الوحيد للمؤلف الذي كان مراقباً ذكياً، وكان لابدّ أن يلتقي في الواقع بشخصيات مماثلة، فهو يعترف بنفسه بوضوح تام في رسالته إلى M. Barres م. باري التي يضيفها إلى كتابه المشهور: Enquête aux pays du Levant "أبحاث حول بلاد المشرق"، قائلاً:

„ je Ne puis citer les noms illustres de deux ou trois de nos compatriotes qui se sont redues célèbres en Syrie par leur désir de jouer les Zénobie. Mais les Anglaises ont battu de loin les Françaises sur le chapitre de ces singulières ardeurs."

"لا أستطيع أن أحدد الأسماء الشهيرة لاثنتين أو ثلاثة من بنات بلدنا اللائي أصبحن شهيرات في سورية لشغفهن بتقليد شخصية زنوبيا، لكنّ الانكليزيات سبقن الفرنسيات على فصول هذه الحماسة

المميزة". فكما هو واضح تماماً إن نموذج السيدة ستهوب قد كان مُعدياً، وبالنتيجة إنّ الحياة كثيراً جداً ما تكرر النماذج القديمة! ويمكن أن نتخيل بسهولة أن كلّ امرأة متحررة، تسمح لها ظروفها المتعلقة بثراء زوجها أو وضعه العسكري أو الإداري كي تحتل موقعاً مشهوراً في الشرق، كانت كثيراً ما تعود بأفكارها إلى ملكة تدمر المتخيلة أو الفعلية.. وهكذا على سبيل المثال إنّ زوجة قائد المنطقة الضابط الفرنسي التي كان لنا شرف التعرف عليها في قلعة الحصن، كانت ترتدي ملابس رجاليّة وكوفيّة حريرية مشدودة بعقال بدوي فضي، وكانت تقطع الفضاء الواسع الذي يحيط به النظر ممتطية فرسها. كانت معروفة ومحترمة كشخصية أولى في المنطقة، وسيدة من الطراز الأوّل. ولابد أنها أيضاً ولو دون وعي منها كانت تعتمد نماذج الماضي مثل أستير أو زنوبيا أو شخصيات أخرى مؤثرة لم تكن قليلة بالتأكيد، ومن بينها عدّة أسماء عظيمة لا يذكرها بونوا لأسباب مفهومة.

لم تزل شهرة السيدة ستهوب والإعجاب بألق شهرتها مؤثراً منذ مئة سنة مضت. وكلّ من يريد الكتابة تاريخ الصحراء السوريةالمحلي سيجد لا ريب عدداً من الحالات المثيرة، الرومانسية أو الأقل رومانسية، التي سارت على آثارها. وربما كان أشهرها زواج السيدة ديجبي الغرائبي، التي أثارت في منتصف القرن الماضي فضيحة في الرأي العام الأوروبي. هي الانجليزية المتحدرة من عائلة أرستقراطية مشهورة « بل ربما كانت هي نفسها من عوامل شهرتها أيضاً، مع أن اسمها لم يدخل في معجم التراجم الانجليزي الفاخر»، كانت متعبة كما يبدو من حياتها المليئة بالمغامرات، فقررت مع كونها قد تقدمت في السن أن تقطع مع أوروبا وتبحث عن السعادة أو الهدوء في الشرق.

ولا يمكن لنا أن نستغرب أنها توجهت نحو تدمر. شيخ إحدى القبائل البدوية الذي كان يرعى الإبل بين دمشق وتدمر، واسمه ميخايل أو مجاويل كان محطّ إعجابها، فقررت السيدة غريبة الأطوار أن تتزوجه. رفض القنصل الانجليزي في دمشق، الذي كان يحتقر كلّ من لا ينتمي إلى العرق الأنجلوساكسوني، فماذا عن العرب أو أيضاً عن البدو، لم يستطع أن يمنح هذه العلاقة اعترافاً رسمياً. لهذا عقد القران في الصحراء بحسب الطقوس الصحراوية؛ صفّت اثنتا عشر حجراً على هيئة هلال، وقام أحد كبار القبلية بتوحيد هذين الغريبين باسم محمّد. كان الزوجان غير متلائمين في النهاية، مادامت العروس في الخمسين من عمرها، وقد عاشت حياة مليئة بالمغامرات، وكان الشيخ مجاويل في قوته الكاملة. إنّ Deville ديفيل الذي زار دمشق وتدمر حوالى سنة 1890 جمع في كتابه: Palmyre,souvenirs de voyage et d historie, Paris1894 " تدمر، ذكريات الرحلات والتاريخ، باريس 1894" أخباراً وطرائف حول هذا الزواج الغريب. ويحكي أن الشيخ تمنّع ما يقرب من ستة أشهر أما إلحاح السيدة الانجليزية التي كانت تطعن في سنها، حتى وقع أسير جمال هديتها البالغة خمسة وعشرين ألف فرنك. سكن الزوجان فترة في دمشق، لكنهما على الأغلب كانا يرعيان الإبل مع القبيلة في الصحراء. وكان الشيخ مجاويل يقود القوافل من دمشق إلى تدمر. وقد زودنا Bernouvilleبيرنوفيل الذي زار تدمر سنة 1865 بأخبار أكثر دقة في كتابة “ Dix jours en Palmyrene, Paris 1868” "عشرة أيام في تدمر"، وقد استطاع أن يتعرف على الزوجين، لم يكن في البداية ذا ميل كبير نحو السيدة ديجبي - مجاويل للأخبار التي شاعت حولها في العالم، لكنه خرج بانطباعات سارّة من تعرفه عليها شخصياً. كانت

آنـذاك شخـصاً مـسناً في الخامـسة والـستين مـن عمرهـا« منهـا تـسع سـنوات مـرت علـى زاوجهـا البـدوي، لـكنهـا كـانـت ممتلئـة بالحـسن، مـضيافة، متميـزة بـين نـساء القبليـة كلـها، بأناقتهـا ونظافـة وثـراء أزيائهـا، لـكنهّـا في النهايـة كـانـت تعـيش علـى الطريقـة الـشرقية، وكـانـت تعلـن بوضـوح ولاءهـا التـام لزوجهـا، الـذي كـانـت تمـسك لـه بكأس الوداع، في أثناء ركوبه علـى فرسـه. غريبـةً كانـت هـذه المـرأة ذات العيـنين الزرقـاوين الواسـعتين، وقـد أكّـدت لـضيفها الأوروبـي سعادتها، التي حصلت عليهـا أخيراً في الـصحراء، وحبهـا لأبنـاء زوجهـا البـدو؛ لم يقتنـع بيرنوفيـل كـثيراً بهـذا كلّه، لكنـه تحـدث عـن هـذا اللقـاء كلـه بـودٍ كـبير، وربمـا أيـضاً بتركيـز علـى ظـلال تعاطفـه وإشفاقه على هذه المرأة التائهة في هذا العالم الواسع.

وفي فترة متـأخرة قليلاً عثـرت فرنـسا أيضاً علـى ملكتهـا التدمريـة، لكـن في هـذه المـرة في نـسخة أكثـر ميلودراميـة. سيّدة مـا مـن المجتمـع الفرنسي الراقي، التي يخفي المؤرخون الـسياحيون اسمها بعنايـة شـديدة، وعلـى الأغلـب ـ كمـا سمعـت ـ ابنـة أحـد رؤسـاء الجمهوريـة، تتـورط في مغامرة عشق أو زواج مع شيخ تدمر عبد الله. لكنها بدلاً من أن تـسكن في قصره الطيني تحت أسوار معبـد الـشمس العظيم، تفضل أن تأخـذه معهـا إلى أوروبـا، وبعـد أن فـسحته في جنـوب فرنـسا مـدّة مـن الـزمن، قامـت بعرضــه في بـاريس «1889»، كـانـت الإثـارة ضـخمة بـالطبع. ولكـن لأنّ الأشـياء المـثيرة لا تـستمرّ طـويلاً، عـاد الـشيخ إلى تـدمر، وبقيت الشيخة في فرنسا.

الشيخ إلى يومنا هذا هـو الـزعيم الـذي يحـكم بعـدل سـكان تـدمر القلائل الذين يسكنون بين خرائب المعبـد القـديم، وأحيانـاً يستضيف السياح، وهـكذا كنّا نحن أيضاً ضيوفه صدفة، وسنحت لنـا فرصـة

الإقامة تحت سقف بيته ليلتين. والتعرف شخصياً على الشيخ عبد الله الإنسان الجاد والأنيق، الذي يليق أن يكون خلفاً للشيخ " رجّال" الذي وصفته السيدة ستهوب عندما أشارت أنه" كان متوقّداً مثل فرنسي، ومهيوباً مثل اللورد ريفز أو دوق كرافتون". ومازال عبد الله وسيماً إلى اليوم على الرغم من لحيته التي غزاها الشيب، وآنذاك عندما وقعت قصّة العشق تلك، إذن قبل أقل من أربعين سنة كان في أوج شهرته رجلاً جميلاً جداً. وقد استقبلنا بكرمه، ورحّب بنا بحسب العادات الشرقية، مردداً عدّة جملٍ عربية ثمّ قص علينا بوقار، أو حدد بالحرى مراحل رحلته قبل سنوات:

"France, magnifique, Nice, Marseille, Paris, Opéra, Galléries Lafayette, magnifique, quadrant ans."

ثمّ بعد ذلك بوقت متأخر عرفنا الظروف التي قادت عبد الله إلى Calleries Lafayette " جاليري لافاييت ".

في صالة الضيوف بالإضافة إلى الشيخ، وعدد من أبنائه«لم يكونوا بالطبع من زوجته الفرنسية» كنا نحن البولونيان، والقسّ الأمريكي الذي أثار استغراب العرب بقبعته «شعره» الكتانية، وكان أيضاً الميجر الفرنسي قائد الجيوش المعسكرة في تدمر الذي حضر خصيصاً للثرثرة مع الشيخ، وكان يدخن النارجيلة بشراهة، وزوجته، رفيقته الوفية في الجندية وحياته الحربية، كانت في ملابسها الحريرية الباريسية. إنّ حياة مثل هذه المرأة القيادية أو القائدة لابدّ أن تكون مليئة بالمغامرات والمخاطر، ولابدّ أنها هي أيضاً كانت تحوم بأفكارها قريباً من زنوبيا أو من السيدة ستهوب؛ فتدمر مكان لاسمه وحده جمال ساحر وخصوصية، لكنه لم يحمل السعادة دوماً؛ فبعد عدّة أسابيع في فترة لاحقة، ماتت هذه المرأة الشجاعة في

الصحراء على الطريق من حمص إلى تدمر. ولم تحمها الدوريات العسكرية التي كانت ترابط بمدافعها الرشاشة ودباباتها على الكثبان الصحراوية، ولا الطائرات الرابضة في مطار تدمر لحراسة الصحراء من الأخطار.

لكن تلك في النهاية قصص محلية، فلنكمل سفرنا!

دمشق

يقولون إنّ السفر إلى دمشق ليس ممكناً! عمليات حربية، وثورة، والمدينة مدمّرة، والخطّ الحديدي مقطوع، وما إلى ذلك، ويتبين أن هذا كله ليس صحيحاً. لاشيء مهم كي تسافر إلى دمشق، موافق، لكن إن أراد أحدهم السفر للضرورة؛ فالطريق سالكة، يشتري تذكرة ويبدل القطار في رياق، لكن يجب أن لا ينسى أن ينزل في دمشق في محطة البرامكة، وليس في الميدان لأن الثورة هناك حقاً. وفي دمشق فندق جيّد "الشرق"، يديره ابن عمّ دليلنا وصاحب الفندق الذي يحمل الاسم نفسه في بعلبك.

لنسافر إذن؛ فليس معقولاً أن نكون قريبين هكذا ولا نسافر. نحن ثلاثة، والثالث هو Speleers سبيليرس متحفيٌّ من بروكسل خبير الكتابات الآشورية والحثيّة، لم يسافر إلى تدمر لأنّ الآثار اليونانية الرومانية كانت بالنسبة إليه قريبة العهد جداً ولا يمكن أن تنسب إليها قيمة ما، وكان قد زار حلب في هذه المدة وأولع بالعمارة الإسلامية، فاقتنع أنه من الضروري أن يسافر إلى دمشق، لأنّ قصر العظم هناك يضمّ منحوتات حِثيّة مشهورة. يغادر القطار حوالى الساعة العاشرة، ويصل إلى دمشق بعد الظهر. ولهذا نزور على عجل آثار بعلبك، متجولين وحدنا بين أعمدة وجدران المدينة العظيمة، عائدين إلى الفندق تلتقي بأفراد متفرقين من مجموعتنا متوجهين ببطء نحو المعبد الكبير، ونحاول أن نقنع أكثرهم خبرة بالانضمام إلى رحلتنا الدمشقية. يحدّقون فينا وكأنهم ينظرون إلى مجانين. كانوا مثارين

عاطفياً إلى حدٍّ كبير وهم يرون وحدات الجيش على طول السكة الحديدية، والدوريات العسكرية أمام فندقنا. واحدٌ منهم ساروليا كثير الحركة ومستثاراً دوماً، أجاب بنزق: "مسافرٌ معكم، مللت من كلّ هذه الحجارة، الكبيرة منها والصغيرة، القديمة منها وغير القديمة، أسأمتني الآثار، سأسافر إلى الحداثة، إلى دمشق، إن كانت ثمّة إمكانية إلى ذلك، فالأمر سيكون مناسباً".

نسافر نحن الأربعة إذن، ومعنا أيضاً رعاية دبلوماسيّة، لأنّ ساروليا هو قنصل بلجيكا الفخري في Edinburg أدنبورج، وللقنصل في المشرق تأثير سحري على المواطنين. ولكن الأهم الرعاية العسكرية، ولم تنقصنا أيضاً، فالقطارات تسير تحت الحماية العسكرية. ننظر إلى هذا الحصن المتنقل الذي سيحملنا إلى رياق، بعد عربة القطر عدّة عربات للبضائع حصّنت جدرانها من الداخل بأكياس الرمل، وفي الوسط مجموعة غير كبيرة وعدّة بنادق آلية، هذا كله يبدو عدائيّاً، وتشكل عربات الركاب مؤخرة القطار، وتتوافر فيها الدرجات الثلاث التي تبدو مريحة إلى حدٍّ كبير وتشعر بالأمان. ندخل في حديث حذر مع آمر القافلة، يبدو أنه برتبة ملازم أول، الصحافي العتيق ساروليا هو من يجري المقابلة. يتضح أنّ الأوضاع قد تحسنت كثيراً، ويمكن السفر دون خوف، فقبل فترة ليست بعيدة كان الثوار يهاجمون حتى المناطق اللبنانية، وقبل فترة أيضاً نهبوا القطار الواصل إلى بيروت، لكنّ هذه الأوضاع انقضت تماماً. والطريق إلى دمشق مؤمنة بشكل جيد، لكن يجب الانتباه دوماً، لاسيما بسبب خصوصية تكوين المنطقة، وأساليب الحرب فالمفاجآت ليست مستبعدة. تمرّ قرب السكة قافلة ما، يبدو أنها تجارية، مادام أفرادها ليسوا مسلحين؛ إنهم يربطون العوارض بالحبال ليلاً وينتزعون بوساطة

الجمال السكة ويفرون. في المعبر الجبلي الضيق للبنان الشرقي حيث يتحرك القطار - إن أردنا الدقة - في خندق صخري، يتساقطون فجأة من الجبال، يقلبون عربة، ثم الثانية، ويفرون منحدرين في الوادي؛ من الصعب بالتأكيد الاحتفاظ بسلسلة قوية من نقاط الحراسة على الصخور العارية. حياة ثقيلة وحرب صعبة، يشكو إلينا الضابط الذي يرافقنا، لا تعرف من تقاتل هنا، وأين يكمن العدو، لا يمكن أن تثق بالناس، ربما فقط بالمسلمين، الذين يكرهون المسيحيين بوضوح؛ أمّا المارونيون فيقولون شيئاً، ويفكرون بشيء آخر، ويفعلون - وهل نحن نعرف ماذا يفعلون؟

نصل إلى رياق بسلام، نبدّل القطار. ننظر بفضول كيف توصل بالعربات المصفحة بأكياس الرمل، العربة المسطحة التي حملت عليها مصفحة لا بأس بحجمها، يبرز من داخلها رأس الجندي المراقب الذي أصابه الملل بقبعة زرقاء عسكرية. لا أستطيع أن أتصور كيف يمكن لهذا الوحش الآلي أن يتحرك في وديان جبال لبنان الضيقة التي تمتدّ فيها السكة. لكن ذلك شأن القيادة العسكرية، وليس شأني. ونسافر هكذا مسلحين: تقوي هذه الواقعة من حدّة فضولنا الذي كان أصلاً مستثاراً.

المشهد أمامنا رتيب، حقول مزروعة، وأشجار زيتون، ومشمش. لا أناس كثر في الحقول، لكنّ المحطات تضجّ بالحيوية والنشاط. المسافرون قلّة، لكن أناساً كثيرين يطوفون في المحطة، يتحدثون، يتشاجرون، أو ينتظرون شيئاً ما. مازالت الأجواء حربية. قلّة من الجنود، وكثير من قوات الجندرمة السوريةبقلابقهم السود، وبعدهم رجال غريبو الهيئة، بنصف ملابس عسكرية، مدججون بالسلاح، يذكروننا بأنماط الشرطة المدنية المتنوعة لدينا. من هؤلاء الناس؟

يتبين أنهم الشراكسة، هذا ما يخبرنا به صديقنا في المقصورة، الذي يقيم في دمشق إقامة دائمة، وهو إيطاليّ الأصل من سردينيا، ويعلق شعار الفاشية بفخر في عروة سترته.

سلك الشراكسة طرقاً غريبة في هذا الشرق! ولعبت القبائل القفقاسية المحاربة أدواراً هامة منذ عهود بعيدة في تاريخ حروب الشرق. فهناك حيثما اقترب ضجيج المعارك نبت الشراكسة فوراً كالفطر بعد المطر. هم قلّة نسبيّاً، لكنهم بخيالهم الجامح وجرأتهم في المغامرة احتلوا مواقع ممتازة. وحملت حقبة طويلة من تاريخ سوريةقبل أن يحتلها الأتراك اسم عصر سلاطين الشراكسة. ومعروفة جيداً أيضاً الأهمية التي كانت لقواد المرتزقة الشراكسة في تاريخ مصر[1]. كانوا كثرة أيضاً في الجيش التركي حيث وصلوا أعلى المراتب. وبعد التنازل عن القفقاس لروسيا تناثرت مجموعات كبيرة من قرى المهجّرين الشراكسة الذين لم يريدوا خدمة السيد الجديد في مناطق كثيرة على أراضي الإمبراطورية العثمانية القديمة. ومن هنا يوجد في سوريةأيضاً عدد لا بأس به من الشراكسة الذين استقروا في سوريةمنذ عدّة أجيال. وحين أثارت رائحة البارود أنوفهم نهضوا من جديد إلى العمل، أو أيضاً إلى اللّهو بالفنون الحربية المحببة لديهم. لم تستطع الحرب الكبيرة أن تستهويهم، أمّا المعارك الصغيرة وأعمال الحماية، وحرب العصابات، حيث الشجاعة والجرأة الشخصية هي كلّ شيء، والانضباط مطلب نظري فقط لا يمكن تطبيقه عليهم، لم يمكنهم التخلف. يخدمون الآن فرنسا، التي سلّحتهم ونظّمتهم في كتيبة فرسان شركسية مستقلة، تحت قيادة ضباط فرنسيين.

---

1. يا لها من قراءة لتاريخ المماليك الشراكسة في مصر. (المترجم).

ويوجد هنا بجانب الشراكسة ردئيي السمعة أيضاً شباب كثيرون من أصول متنوعة، تستهويهم المغامرة، أو يجبرهم الفقر، فيقاتلون بشكل ممتاز كما يبدو، ولديهم معرفة جيدة بجغرافية المنطقة وأساليب القتال والحياة المحلية فهم إذن عناصر قيّمة جداً.

تتشابه المشاهد في كلّ محطة تالية، فهي مليئة بالأزياء العسكرية المتنوعة الكاملة منها والجزئيّة. نشاهد في محطة ما شيخاً عربياً وسيماً مسلحاً من رأسه حتى أخمص قدميه، يرتدي ملابس جميلة، وحوله بضع عشرة مرافقاً، مسلحون أيضاً. يخبرنا رفيقنا الفاشي أنه شيخ إحدى القبائل من منطقة دمشق، يقاتل مع قبيلته كلها إلى جانب الفرنسيين، منتقماً لمقتل صهره الذي قتله أحد قواد القبائل الثائرة في الماضي. هو الثأر، يبتسم صاحبنا السرديني: علاقات اجتماعية مشابهة جداً لتلك التي يعرفها جيداً في موطنه الجبلي! نرى أكثر فأكثر بوضوح، وأكثر فأكثر بشكل أفضل أنّ كلّ هذه الانتفاضة المسلحة التي تصلنا صداها في أوروبا بهذا الشكل، لا يمكن أن تنتج حركة موحّدة معادية لفرنسا، أو تحررية، أو وحدة إسلامية، أو وحدة عربية، أو حتى شيوعية. ربما يبرز من كل تلك الفوضى مع الوقت تيار واضح، برنامج ما، كلّ هذا حالياً تعقيدٌ قاتِل يضني كل الذين يعانونه. وهناك أيضاً العلاقات التقليدية القوية التي يمكن أن تتمخض عنها احتمالات سيئة في المستقبل.

تتغير المشاهد الطبيعية الآن، وتحوّل انتباهنا عن المشاهد الحربية، والتأملات التاريخية المتقطعة. تختفي الحقول المزروعة ونرتفع نحو قمم لبنان الشرقية، وتبدأ الصحراء الجبلية الصخرية العارية، نتجاوز الممر ونسير أخيراً على المنحدر الشرقي، تحيط بنا الكتل الصخرية الموحشة الصم، مثيرة إعجابنا بلونها الرمادي المصفر، وأحياناً المائل

نحـو الحمـرة، وكأنهـا محروقـة بالـشمس الـذي يتهيّـأ لنـا أنـه الحـي الوحيد بمهابة في هذا الخلاء.

نلاحظ فجأة خضرةً في العمق، تحت الآلة البخارية التي تسير بنا على كتف المنحدر، تلتمع العيون ويصبح العالم أكثر مرحاً، لأنّ الجبل الهائل ينفلق تحت لهيب الشمس، لينفتح على وادٍ رطبٍ ومخضرّ. في قاع ذلك الانهدام يجري سيلٌ عَرِم، تنبت على ضفافه وتنتشر نباتات غزيرة، أعشاب برية، وورود، وسيقان قصب، أدغال صغيرة وأشجار، تشكل كلها بساطاً مزركشاً يجري في وسطه تيار المياه السريع مزبداً وملتمعاً. وتبقى على جانبي القطار المنحدرات الحادة عاريةً ساكنة، وتعمق حِدّةُ التباينِ جمالَ الطبيعة الاستثنائي. يتسع المضيق تدريجياً ويتحول السيل إلى نهر، ويصبح شريط الخضرة الضيق أعرض شيئاً فشيئاً. ويفيض النهر المحصور على حقول ضفتيه، ويجري متفرعاً عبر الحقول الخضر. وكلما سرنا يزيد الماء وتزيد الخضرة؛ غنى الحياة الرائعة، وسعادتها. نرى بين بساتين الحور جماعات مختلفة من الناس يحتفلون بسعادة، يقضون أمسيات رمضان بين الأشجار، في أجواءٌ فرحة في هذه الطبيعة الرائعة، ولهو و fêtes champêtres "أعياد ريفية" كما لو أنها معزولة عن الواقع تماماً، تذكرنا بأجواء لوحات Poussin بوسيه[1]، لكن الألوان والخيال في هذا المشهد الواقعي هي أكثر غنى بما لا يقارن.

تصبح آثار الحرب كلما اقتربنا من دمشق أكثر وضوحاً وخطراً. تمتد على طول مسار السكة الحديدية مجموعات الخنادق، وحواجز

---

1. Poussin نيكولاس بوسيه 1593 - 1665 رسام فرنسي يمثل مرحلة انتقالية بين فن الباروك و الكلاسية الجديدة (المدرسية)، اشتهرت لوحاته التي تمجد الطبيعة المثالية، ذات الموضوعات الأسطورية و البطولية. (المترجم)

الأسلاك الشائكة: وفي الأماكن الأكثر انحداراً، حيث يبدو الخط الحديدي متشبثاً بالمنحدر الصخري العاري، تشاهد في الأعماق على البساط الأخضر العربات المنقلبة، التي تبدو من الأعلى وكأنها دودة بيضاء منقلبة على ظهرها بأقدامها ـ دواليبها المرفوعة إلى الأعلى دون حركة، كأنها تريد خداع الإنسان. المحطات كلها تقريباً أصيبت بالخراب، وقد احترق قسم منها، لا تظهر منها إلا الجدران المتفحمة. وبالقرب منها تحصينات الحراسة مطمورة في الأرض ومحاطة بأكياس الرمل والأسلاك الشائكة. والدوريات العسكرية القوية في كل مكان. نلمح شيئاً فشيئاً البيوت، في البداية ليست كبيرة، وفقيرة. ثم تصبح بعد ذلك أكبر ثم أكبر، وتشبه مساكن ضواحي المدن، بعضها أصابه الخراب ومحروقة جزئيّاً ومهجورة. نصل أخيراً إلى ضاحية مكتملة، وإذا بنا في محطة البرامكة. يكمل القطار سيره إلى الميدان، لكنّ الأوربيين يترجلون هنا جميعاً. الميدان حيٌّ فقير يقطنه الأهالي المحليون فقط، وهو إلى ذلك خطرٌ جداً في الأوقات الحالية، لأنه خارج عن نطاق السيطرة العسكرية والأمنية التي تحمي المدينة.

نركب عربة جياد ونسير عبر حي ذي طابع أوروبي بل شبيه بالأوروبي لا يثير الاهتمام حتى الفندق، على طول الطريق تمتدّ أبنية نمطية متشابهة، ثكنات أو دوائر رسمية، وحديقة ما محاطة بسور مرتفع. تعجّ الشوارع بالغبار المزعج الذي لا يمكن الاعتياد عليه، مع أنها مرصوفة بالحجارة على الطريقة الكراكوفية «لا يجلب هذا فخراً لسلطات مدينة دمشق». نجتاز النهر الذي يبدو لنا في هذا المحيط المديني الحجري الخشبي غريباً تماماً، مع أننا منذ عدّة ساعات قطعنا قربه طريقاً طويلة. نشغل أماكن إقامتنا في فندق

الشرق. الفندق فارغ جداً، قلّةٌ من الضباط الفرنسيين، وبعضهم مع عائلاتهم، بالإضافة إلى بضع شباب مدنيين، تثير انتباهنا الملصقات المتوعة في صالة الاستقبال التي تروج للمنتجات الأجنبية الحديثة، وللرحلات الشتوية إلى سويسرا. كما يمكننا قراءة تعليمات إدارة الفندق حول ساعات منع التجول وتحديد الحركة وما شابه ذلك. في المحصلة إنّ الفندق - كما هو الأمر مع فنادق الشرق - ومع كثرة الدعايات، يذكرنا بالفنادق الأوروبية من الدرجة الثالثة، فقط البهو المعتنى بنظافته الذي تنمو فيه عدّة أشجار برتقال يذكرنا بغرائبية المكان، وقد وظّف كصالون استراحة.

كي تتفهم حقائق مهمة حقاً لابد من امتلاك خيال واسع دوماً: هذا هو الشرق. منذ ذلك الوقت الذي بدأت أوروبا فيه فرض عاداتها بقوة، وثقافتها التقنية أو المظاهر ثقافتها الفنية الخارجية على هذا الشرق، بدأ الشرق يتضاءل ويتقلص، وفقد ميزاته الذاتية، تأورب هكذا ببساطة، فغالباً ما يتهيأ لك هنا أنك تسافر عبر ضواحٍ أوروبية غير مثيرة، وغير منظمة بشكل مميز. الشوارع المخططة المستقيمة، والساحات الواسعة الفارغة، والأبنية الكبيرة ذات الواجهات المقلدة بإتقان، والإنشاءات الحديثة، وخطوط الترام، والإعلانات الدعائية الصارخة التي لُمِّعت حروفها الكبيرة الملونة - ليس من أجل هذا يُسافر إلى دمشق، يجب التقدم أعمق في المدينة. يذهب ساروليا القنصل الفخري البلجيكي من أدنبورغ لزيارة القنصل البلجيكي الفعلي في دمشق، كي يستعلم عن إمكانية الذهاب إلى الحي العربي، أمّا نحن الثلاثة، لا ننتظر الإجابة، ونذهب في جولة.

لكن دمشق في أحيائها القديمة أيضاً مُحبطة. لم تعد هذه تلك المدينة التي كتب عنها الرحالة الأوائل بذلك الشغف: مدينة السحر

والجمال، بالتأكيد إنّ كثيراً من ذلك المديح لابدّ أن يرمى على عاتق الميل الأدبي التقليدي، الذي يحضنا على أن نرى في روما مدينة خالدة، وفي دمشق جماليات ألف ليلة وليلة. لكن دون ريب لابدّ أن أشياء كثيرة قد تغيرت في المدينة. بدأت منذ النصف الثاني من القرن الماضي فترة الأوربة السريعة، ويوماً بعد يوم استقر القادمون الجدد في القسم الغربي من المدينة، وقاموا ببناء أحياء جديدة، كما حاولت الأحياء القديمة مجاراة الأنماط الحديثة، لأنها عمليّة أكثر بل أرخص. فهناك حيث تفتح مخازن البضائع ومتاجر المنتجات الأوروبية تختفي الصناعات والفنون التقليدية دون عودة، وهي إن عادت بعد فترة تعود معدّلة بهيئة كاريكاتورية لأغراض الديكور. يعتاد الناس بسبب الحاجة أو التقليد الأعمى على الأذواق، والأشياء الدارجة، والنظرة الأوروبية. هذه الملاحظات مبتذلة جدّاً، لكنها تفرض نفسها هنا بعناد، وربما لذلك تماماً، وعلى الرغم من كل شيء، علقنا آمالاً كبيرة على دمشق لرؤية أشياء غير عادية، لم تُرَ من قبل. هل يجب السفر أبعد أيضاً كي نرى مدينة شرقية حقيقية، إلى بغداد مثلاً؟

بالتأكيد نحن هنا في لحظة استثنائية حزينة، قُصِفت المدينة قبل عدّة أشهر من القلعة التي لم تزل تراقبها مثل ملاك الموت باستمرار. الحيّ المركزي وبالتحديد الأسواق، التي هي قلب الحياة في المدن الشرقية، أصابها دمار كبير، ولاسيما أن الحرائق وأعمال النهب التي قام بها السكان الثائرون زادت في حجم المأساة، إذن ما نراه جزئياً هو الخراب. ليس معروفاً ما الذي سيحدث لاحقاً، فعلى الرغم من الأخبار الصحفية الكثيرة المطمئنة باستمرار مازالت الحرب، أو الانتفاضة، أو حتى الثورة أيضاً مستمرة، مما يفرض على المدينة جواً حزيناً وخواءً. لا تزال الحركة في الشوارع الرئيسة شبه طبيعية، لكن المتاجر ليست

مفتوحة كلّها. يشاهد هنا أناس كثيرون في الملابس الأوروبية، وجنود كثيرون في أزياء عسكرية متنوعة، كما يُلاحظ التنوع في ألوان البشرة. من الممكن أن تلاحظ بسهولة أيضاً أنّ هذه الحركة مرتبطة في الواقع بالشارع العريض الذي يمرّ الترام في وسطه، فالرقابة هنا أسهل، وكذلك السيطرة الفورية على طرق المواصلات كلها. الشوارع الصغيرة الملتوية المظلمة والفارغة، مغلقة بحواجز الأسلاك الشائكة، التي تمكن الممراتُ الضيقة فيها حركة المرور التي تتخللها، ويمكن إغلاقها بسهولة أيضاً. ونلتقي في بعض الأوقات مواقع حصينة مرتجلة لحماية عدّة شوارع معاً، وعلى الأغلب في أمكنة محددة تمّ احتلال أبنية طابقية على مفارق الطرق ثمّ سلمت لإقامة الجنود، وحميت بتحصينات ترابية وأكياس الرمل، وأحيطت بالأسلاك الشائكة، وفي حالِ سيطرةِ السكان الثائرين على الحي كله، فإنّ هذه التحصينات قوية إلى حدٍ كبير يمكّنها من الصمود حتى وصول الإمدادات.

ندخل الأسواق، لم تعد البازارات الدمشقية المشهورة تمتلك تلك الفتنة التي يصفها على الأقل الدليل السياحي الصادر قبل الحرب وصفاً بليغاً. فالأسواق في الواقع فارغة اليوم، لأن التجارة ماتت، وأصاب سكان دمشق الفاقة، وتشردوا جزئيّاً في الغوطة كلها. لكننا نلاحظ مباشرة - بغض النظر عن الأحداث الجارية - أن الأسواق تفقد شيئاً فشيئاً طابعا الشرقي، فقبل الحرب قامت تركيا المنسحبة بتغطيتها بسقف مقنطرٍ من الصاج، وجعلتها قريبة الشبه في مظهرها الخارجي بصالات التجارة الأوروبية الغربية، بل حتى في مدينة حمص الصغيرة حيث التأثيرات الأوروبية ضئيلة الأهمية جدّاً، فإن البازار فيها مغطى بطريقة حديثة. نشاهد هنا إذن الأساليب الأوربية في البناء،

والترتيب الداخلي قد تأورب بسرعة، ويافطات المتاجر والدكاكين التي تغلِق ليلاً أبوابها بغلق معدني جرار على الأغلب، ونرى أكثر فأكثر البضائع المصنعة آلياً، إنّ الأسواق الدمشقية مقارنة بالأسواق العربية في القاهرة مثلاً« أو حتى في czarsza التشارشة[1] في سراييفو» تتمتع بسوية عالية من التنظيم الهندسي، الذي يجعل المهندس المدني المشرف فخوراً بالتأكيد. لكن هذه المزايا بالنسبة إلينا غير مهمة، لتفضيلنا بالتأكيد معاينة الأسواق القديمة، بتقانات بنائها التقليدية، المغطاة بالحصير المجدول، التي تتخللها أشعة الشمس باعثة الحيوية في مشاهدها الداخلية الغنية بالألوان «كما في القاهرة».

مرّة أخرى نخرج إلى الشوارع، نسير دون هدفٍ محدد، هكذا كي نحصل على انطباع عام. الشوارع كما هي العادة في الشرق، تعطي انطباعاً بالخواء، مادامت الحركة فيها لا تعطيها حياةً. جدران المنازل بيضاء أو رمادية، دون نوافذ، تبدو ميّتة بشكل غريب، أما الأزقّة فهي متعرجة، مما يكسر من رتابة أسلوب العمارة، و توحي أحياناً أنها متاهة، لا يمكن للضائع فيها أن يجد مخرجاً. ويمكن أحياناً أن تصادف أجزاء من زينات حجرية، أو لوحات حجرية بكتابات مدخلة في عمارة الجدران، وآبار مياه الشرب، ومساجد، لآبدّ أن الآثاريين سيجدون هنا عملاً كبيراً ينجزونه. لأنّ تراكم طبقات القرون واضحة من النظرة الأولى، ولابدّ أن المؤثرات قد تشابكت هنا - نحن على كلّ حال في بلد عبور، في سوريةلابدّ أن تكون مختصاً كي تستطيع أن تدلي برأي دقيق حول هذه الأمور. لكننا ندرك مباشرة أن بعض التفصيلات تذكرنا بوضوح بالقاهرة ، وبعضها الآخر باستانبول؛ ليس للمدينة شخصية فنية متميزة واضحة.

---

1. هي السوق بالتركية. (المترجم)

هذا هو الانطباع الأولي الذي نخرج به في الحقيقة من جولتنا الحرة، وهي انطباعات عامة يمكن أن تكون غير دقيقة.

نبتعد متشردين خلال الشوارع الفارغة، نصل إلى حيٍّ ما يبدو أكثر مرحاً، أو بالحرى فيه ما يخدم المرح، لأن شكله مريب جداً يثر الخوف، تقف أو تجلس أمام أبواب البيوت المفتوحة كائنات نسائية مختلفة الألوان في أزيائها وألوان بشرتها، زينت وجوهها أثلامٌ ووشوم. تصل سيارة فيها شيخ ما كما هو واضح، يرتدي برنساً أبيض، ذو لحية سوداء جميلة، ويعلق صليب جوقة الشرف؛ وحوله عدد من أولاد الشوارع، والقوادين، أو ربما الخدم الأدلاء. «وهذا كله تغطي نفقاته فرنسا». ثم نقطع عدّة شوارع خالية، كي نصل إلى نقطة فرنسية محصّنة على مفترق طرق، ينظرون إلينا بحذر، لكنهم يتركوننا نعبر دون ممانعة.

بعد مدّة قصيرة نخرج إلى ما وراء محيط سور المدينة القديمة، يتغير المشهد مباشرة، الأسوار القروسطية الثخينة بحجارتها الضخمة المكعبة هي إلى اليوم الحدودُ الفعلية للمدينة الأصلية، تمتدّ على جانب السور طريق عريضة مشجرة، أو بالحرى طريق عربات، ثم بساتين، ذابلة عموماً، كأنها تموت تحت طبقة الغبار الذي يرافقنا في الشرق كله، لكنه يثير شعوراً مؤذياً على مشارف المدن خصوصاً. لابدّ أن الشعراء الذين مدحوا دمشق مدحاً مملوءاً بالعاطفة المشبوبة قد اختاروا منطقة أخرى للفرجة! أمامنا سور غليظ في هندسة بنائه وافتقاره إلى العناصر التجميلية، وأمامنا منظر شيء ما يشبه الضاحية، أو الواحة، أو المزبلة.

خواء كامل، نحن أمام أبواب المدينة، ولا نرى أحداً على وجه الدّقة، واضح أن المدينة تخمد عند حلول المساء، مادامت ضوضاء

حركة الشوارع المميزة لاتصلنا. يمكن لنا أن نسمع من بعيد فقط من الضواحي أو من الغوطة ما يشبه طنين البعوض. يكون أحياناً بعيداً ومتقطّعاً، ثمّ بعد ذلك يتكرر بعنف ويبدو كأنه قريب جداً. وبالإضافة إلى طنين البعوض نسمع أصواتاً أخرى، أصداءً متقطعة تشبه أصوات تكسر القصب اليابس. ماذا يمكن أن يكون ذلك؟ فجأة، بعيداً جدّاً، تسقط عدّة طلقات مدفعية ثقيلة، يصبح الوضع واضحاً، إطلاق نارٍ في الضواحي، وربّما في مكان ما أبعد معركة نظامية؛ بنادق، ورشاشات، والدليل الأوضح مدافع الجبهة: علينا العودة، تخيم العتمة سريعاً، وتزداد معها ضراوة الاشتباكات الحربية. الضواحي في الحقيقة هي بيد المتمردين، وجيوش الاحتلال ليس في مقدورها إحلال الأمن والهدوء في تلك الأحياء المكتظة والواسعة، لهذا تقتصر على حماية مركز المدينة فقط. نغض النظر إذن عن مواصلة جولتنا التي يمكن أن تكون خطرة جداً fuori le mura "خارج السور"، وندخل من أولّ بوابة تصادفنا من بوابات المدينة. ويتبين لنا أنه موقع كمين محصن ومجهّز بشكلٍ جيّد بكل أنواع المواد الدفاعية. فكرة مثل هذا الموقع المتقدم هي تقريباً على النحو التالي: يتمّ احتلال بناء ما على زاوية شارع، وتوضع فيه فصيلة جنود بأمرة نقيب، وتنصب أمامه عدّة بنادق آلية تبدو خطيرة من خلال نوافذ جدار الحماية المبني من أكياس الرمل والمحيط بالبناء كله. حاجز حديدي وشبكة كثيفة من الأسلاك الشائكة تغلق المدخل إلى الموقع، وإلى المدينة. ندخل خلال معبرٍ ضيق بين الأشواك الحديدية محجوزٍ للأعوان الدمشقيين، ثم نبدأ حديثاً وديّاً مع آمر تلك القلعة الصغيرة. خرج من موقعه في الطابق الأوّل بعد أن رأى أشخاصاً غير شرقيين، لدارسة الوضع والثرثرة. يخبرنا أنّ مثل هذه المواقع كثيرة في المدينة، وأنها هي

فقـط يمكـن لهـا أن تحـافظ علـى الهـدوء والنظـام في المدينـة. تـصبح جـولات الـدوريات مـع حلـول الظـلام في الـشوارع الـضيقة وبـين الأبنيـة المرتفعة بَله الأزقّة المتعرجة المظلمة خطرةً جداً. ولذلك يتمركـز الجيش في مثـل هـذه التحـصينات، لحراسـة المواقـع الـتي تفـصل المدينـة عـن الـضواحي، ولا يهـتمّ كـثيراً بمـا يمكـن أن يجـري في شـوارع المدينـة، لأنه بالتأكيـد بوجـود مثـل هـذا العـزل للمواقـع القويـة يمكـن فقـط أن تحـدث بعـض المشاكل المحليـة جـداً الـتي لاتهـمّ العمليـات العـسكرية. نسأل عن الطريق؛ يصف لنا النقيب المهذب طريق سيرنا المعقـد إلى حـدٍّ مـا. ويأسـف أنـه لا يـستطيع أن يرسـل معنـا دلـيلاً، لأن الجنـود يجـب أن يكونوا مجموعين في الموقع ليلاً. هـل الطريـق آمنـة؟ نعـم علـى الأغلـب، كمـا يقـول مخبرنـا، لكـن مـن يعـرف مـا يمكـن أن يحـدث، تمّ قتـلُ شخصين فقط في هذه المنطقة هذا الأسبوع.

نسير وفقاً للشوارع المحددة، التي تفرغ أكثـر فـأكثر. مـازال بعـض الأطفـال يلعبـون في الـشارع غير بعيـد عـن البوابـة. وعـدد مـن المـواطنين الجـريثين كـانوا يجلـسون أمـام أبـواب منـازلهم بحـسب العـادة الـشرقية المحببة. لكنّا كلما ابتعدنا أكثر قلّ عدد الناس، ولاسيما أنّ الظلمـة قد حلّت بسرعة جداً. وصلنا أخيراً إلى سوق ضـخمة طويلـة سـتؤدي بنـا إلى نقطة الحراسة الفرنسية التالية التي تقع قرب خط الترام. إننـا علـى الطريق الصحيحة، لكـن يا لها من طريق عجيبة! يمسي الإنسان الـذي لم يشعر بالثقة تماماً في هذه المدينة الغريبة والـذي كـان لديـه إلى الآن قبة سماوية مرصـعة بـالنجوم محشوراً تمامـا في قـارورة، أو في نفق، أو في صالة محطة قطار ضخمة تمتدّ إلى ما لانهاية، وكـأنهـا دون مخـرج. وعلـى الجـانبين جـداران مرتفعـان مظلمـان موصـولان بـسقف معـدني مقـوس. تـشتدّ الظلمـة أكثـر فـأكثر، وفي الـسوق كلـه الـذي يمتـد

أكثر من كيلو متراً ونصف لا يوجد حتى إنسان واحد. أصداء خطواتنا فقط التي تتراجع في هذا الصندوق الهائل الطنان هي رفيقاتنا السريات غير المرئية في هذا الخواء المعماري. أضحت الأسواق الدمشقية الضاجة بالحركة والزاهية كهف قبور متطاول ومرعب، تصيب الخطوة الضاجة فيها العابر التائه بالذعر. وتضخم السماء المصنوعة أوهام المقابر الغامضة، فكما نشاهد السماء الرصاصية المرصعة بنجوم ذهبية في أسقف المعابد الفرعونية لدينا هنا أيضاً على السقف المقوس المظلم نجومٌ كثيرة منثورة، تلتمع في ظلمة الفراغ، هي آثار المعارك القريبة، هي النجيمات المتوحّدة للبنادق ورشقات الرشاشات الآلية. وقد خلعت قذائف المدفعية هنا وهناك ألواح الصاج في أكثر من مكان، كما انهار السقف المقوّس بتمامه على مساحة لا بأس فيها. وترى في ضوء العتمة البارد أشكال الدمار دون رحمة. جدران البيوت عارية ومحترقة، وتذكرنا نوافذ المتاجر الملوية بعنفٍ برماد وخراب مصنع كبير دمرّه الحريق. حطام وقطع حديد في كل مكان، يافطات المحلات المكتوبة بالعربية واللغات الأوروبية هي التي تذكرنا فقط أننا في بطن السوق. تصدم أنظارنا يافطة كبيرة تحمل رسماً كاريكاتورياً لرأس إنسان ما يظهر أسنانه، تلك الجمجمة مع الكتابات الانكليزية والفرنسية واليونانية والأرمنية والعربية تدعوك إلى زيارة طبيب الأسنان. نتجاوز بسرعة هذهGrand Guignol "البشاعة"[1] ثمّ نصل بعد لحظات إلى نقطة الحراسة العسكرية، إلى خطّ الترام إلى حركة الشارع.

نعود إلى الفندق لتناول الطعام. يتبين أنّ ساروليا لم يعد، نجلس ثلاثتنا إذن، ينضمّ إلينا بعد مدّة قصيرة انكليزيٌّ نعرفه، Cresswell

1. تعني حرفياً "مسرح العرائس الكبير".

كرسويل، ضابط سابق في قوات التدخل، ومتقاعد حالياً متفرّغ لدراساته حول العمارة الإسلامية. تبدأ المحادثة من الموضوعات المعمارية، النقيب الذي يعرف دمشق جيّداً من الفترة السابقة للثورة، يحدد حجم الأضرار التي أصابت الآثار. ثم بعد لحظات ننتقل إلى موضوعات الحرب والقضايا الراهنة. ينتقد الانكليزي بحدّة العمليات الفرنسية في المشرق، ويركز على افتقادها الثقة بانكلترا، واعتمادها على أقوى الأساليب العسكرية للحصول على مكاسب سياسية عاجلة. ويعرض لنا على الخريطة المعلقة على الجدار الإمكانات الإستراتيجية المتنوعة. كان لابد علينا أن نعرف أشياء كثيرة حول هذه الموضوعات كي نستطيع مواجهة آراء رجل كانت له مشاركة حربية في هذه المنطقة، وتضلّع من معرفة الأوضاع المحلية. لنأخذ إذن بآراء النقيب ونضفها إلى معلوماتنا دون مناقشة. لا ريب أبداً أنّ فقدان الثقة المتبادل بين الحليفين قد صعب العمليات الحربية، لكن من الممكن أيضاً أنه من جهة ثانية سهل إلى هذا الحدّ أو ذاك الحلّ السياسي لمشكلة التركة الكبيرة الصعبة التي خلفتها الإمبراطورية العثمانية.

عاد ساروليا في فترة متأخرة من الليل، يترنح ثملاً، مسروراً جداً. كان عند القنصل الانكليزي على الغداء، وحصل على معلومات حول أشياء كثيرة شائقة، ولديه مشروع مكتمل لنشر عدة مقالات حول الأوضاع السوريةسيقوم بإرسالها إلى المكتب الصحفي في لندن. بالطبع لدى قنصل جلالة الملكة رأي محدد جداً حول الأحداث في دمشق. وربما كان هذا متوقعاً سلفاً. الآراء الانكليزية مقبولة عموماً، وهي معروفة جيّداً عالمياً، لاسيما أنها قاطعة وبسيطة. لكن ما هو معروف

عـن المـشاريع والخطـط الانـكليزيـة قليـل جـداً «فحتـى الانـكليـز لا يعرفون عنها شيئاً، انكلترا فقط هي التي تعرفها».

نـذهب إلى النـوم، المدينـة قـد هـدأت، التجـوال في الـشوارع ممنـوع لـيلاً، بـل إنّ سـاروليا كـان عليـه أن يعـود إلى الفنـدق بحمايـة kawas «القوّاص»[1] "شرطي حراسة القنصلية"، لكـن مازالـت تسمع مـن بعيـد أصـوات الطلقـات، ففـي الـضواحي تـدور باسـتمرار حـرب العـصابات بحـدّة متفاوتـة. تنتهـي عنـد الفجـر المواجهـات الكـبيرة بعـدّة طلقـات مدفعية ويعلن عن وقف إطلاق النار خلال النهار.

الصباح هادئ تماماً. نريد أن نذهب من جديد في جولة، وهـذه المـرة مـع كتـاب الـدليل الـسياحي بأيـدينا. لكـن تـبين أنّ سـاروليا الأنـاني كـان يحـب الاسـتفادة أكـبر قـدر ممكـن مـن الطـرق الأسـهل لرؤيـة أكثـر مـا يمكـن. فحـاول جاهـداً أن يـدبر دلـيلاً جيّـداً، وكـان هـذا الدليل القنصل البلجيكي الذي يصل في موعده بدقة بسيارته الجميلة إلى الفنـدق، نقـدم أنفـسنا، نتبـادل عبـارات المجـاملات المعهـودة، والاعتذارات: نشغل وقت سيادة القنصل، ومـا إلى ذلك، ثم يتبين فجأة أن القنـصل لديـه وقـت كـثير، فهـو المـدير التنفيـذي لـشركة الـترام الدمشقية بالإضافة إلى كونه قنصلاً. وهذه الشركة هنا أيضاً كما في أنحـاء أخـرى مـن العـالم، وكـذلك في بعـض المـدن البولونيـة تتبـع الـشركة الأم البلجيكيـة. تبـدو حـافلات الـترام رائعـة، لكـن حركـة الـشوارع في أدنـى مـستوياتها بـسب الوضـع القلـق، وتتحـصر فقـط في الخـط الرئيـسي. صـديقنا البلجيكـي، لطيـف ويحـب التواصـل، رجـل مربـوع القامـة ، يرتـدي قبعـة جميلـة، ويحمـل عـصا خيـزران مكـورة

---

1. Kawas : من التركية (المترجم).

الطـرف ويـذكرنا تقريبـاً بـشابٍ مـن مونتبرانـاس[1]، عـاش منـذ عـدّة سنوات في الـشرق. فقبـل أن يعمـل في الإدارة الدمـشقية كـان مهنـدس عربات الترام في إحدى المدن الروسـية. علـى الأغلـب في يجاترينوسـوافا، ويعـود بلهفـة إلى الموضـوعات الـشمالية. "سـادتي البولـونيين؟ تتحـدثون بالطبع اللغة الروسية يـا سـادة؟ آه، صـحيح البولونيـون كلـهم يتحـدثون اللغـة الروسـية، لكـنهم لا يعترفـون أبـداً بهـذا." ـ ويـضيف بابتـسامة دبلوماسـية" لغـةٌ جميلـة! جرسـها جميـل ونـاعم! أسمّـي زوجـتي في المنـزل ساموفار كـذكرى روسيّة. ماذا يحدث في الأيام هناك؟ عنـدنا لاجئـون كثر هنا في دمـشق، يعتاشـون من أي شـيء يمكـنهم الحـصول عليـه، عندنا جنـرال كـان في جيش القيصر، يعمل هنا حارساً ليليـاً، ويحـرس جيداً، لكنه يحب الفودكـا كثيراً، ويثير المشاجرات بسبب ذلك".

وفي هـذه الأثنـاء كانـت الـسيارة تقطـع بـسرعة الطريـق المـشجرة العريضة بجانب النهر. تقطـع "سـاحة الـسراي"[2] وقـرب القلعـة تنعطـف في أزقة المدينـة القديمـة الـضيقة. ذاك الـذي كـان البارحـة مظلمـاً ومخيفـاً يلبس من جديد في ضوء الشمس ألوان وسحر المدينة الشرقية. الجـدران مغطـاة بالهيـاب المـصفر، ويـشكل التـضاد بـين الـضوء والظـلّ خلفيـة معماريـة لحركـة الـشارع بغنـى ألوانهـا وشـفافيتها. نـدخل في شـوارع السوق الضيقة، التي خرجت سالمة من الأزمة الحربية؛ يا لـكثرة الناس وتنوع الألـوان! لكـنّ دليلنـا اللطيـف يتحـسر علـى تفريـغ دمـشق: المدينـة مقارنه بحالها قبل نصف سنة فارغة، سـكانها الذين كانوا يعيشون من

---

1 ـ مونتبرانـاس: الحـي الباريـسي المـشهور؛ مـشغل الرسـامين، ومقهـى الفـن والفنـانين. (المترجم)

2 ـ يريـد سـاحة المرجـة علـى الأغلـب، والـسراي هـي بنـاء وزارة الداخليـة الحاليـة. (المترجم)

خيرات الغوطة، بعد أن أضحوا مقطوعين عنها، رحلوا إلى القرى، حيث يوجد دوماً شيء ما يمكن العيش منه، ويكثُر هذا أيضاً من عدد الثوار. بالنسبة إليه إحصاءات حركة الترام مقياس حساس ودقيق جداً للمسائل السكانية والسياسية؛ خسرت المدينة أكثر من نصف سكانها، هذه الحركة في الأسواق، التي تبدو لنا حية هكذا، هي ضعيفة. كان عليكم أن تأتوا أبكرَ إلى دمشق!

ومع ذلك، حركة الشارع ضخمة أمامَ أعيننا؛ لابد أن يجد محبو الأشكال والألوان خصوصاً متعة كبيرةً هنا. لكن ليس صعباً بعد لحظات من المراقبة اليقظة أن تلاحظ النكد والتعب الكبير الواضح على وجوه هؤلاء الناس. بقيت الألوان كما هي، أسراب الطرابيش الحمر، والعمائم البيض العريضة، بالإضافة إلى حشد الأزياء الرجالية المبهرجة، التي تجول بينها خفافيش صامتة مستعجلة قد غطّت وجوهها بالملاءات. لكن الحركة مهضومة على الأغلب، لا وجود لذلك الصخب العام، ولتلك النداءات أو وصلات غناء الباعة التي يصفها الدليل السياحي بالتفصيل وتكررها من بعده جوقات مؤلفي كتب الرحلات. البضائع متوافرة كما يبدو، وهناك سلال كبيرة مملوءة بالخضراوات«واضح أن تموين المدينة مؤمّن»، نشاهد المخازن المتخمة بالسلع الصغيرة والخردوات، سوق الصاغة مضيء بصفوف دكاكينه المبهرجة المليئة بالذهب الحقيقي والمقلد. لكن حركة الشراء ضعيفة. تتداخل حشود الناس مختلطة في أزقة السوق، وكأن الملل من الانتظار قد طردهم من منازلهم. ستسقط قريباً صاعقة جديدة ما على هذا الحيّ الذي نجا. تجد مجموعات من الناس في المقاهي الدمشقية ذات الشهرة القديمة ، واضح أنهم يتناقشون في المسائل الراهنة. لكن أيضاً قلة هم الضيوف الذين يجلسون إلى الطاولات

لتناول القهوة السوداء، أو اللعب في التريك ـ تراك[1]، أو يدخنون نفَس الأركيلة بوقار ساكن.

نميل إلى الاعتقاد بعد أجواء الليلة الماضية أنّ كلّ دمشقي حقيقي يجب أن ينظر نظرة بغضٍ إلى الأوربي، حقّاً نعم! لكنّ تعابير وجوه هؤلاء الناس عميقة جدّاً، وباردةٌ حيادية في نظرتها إلى الغريب، بل إن المرء يفتقد الطمأنينة هنا، بل إنه لارتاح إلى نظرة البغض هنا من أكثر من تلك النظرة الهادئة الباردة، التي تختفي وراءها كما هو واضح نظرة خاصّة إلى العالم، أو فلسفة حياتية ما مختلفة، وتقويماً مستقلاً للأمور. وهذا عائق كبير يقف أمام التفاهم وإحلال التعايش بين المواطن الأصلي والغريب الأوروبي الطارئ؛ وهو عائق أكبر جدّاً من حواجز الشوارع التي تقمع حركة المدينة. قرون طويلة صاغت هذا التوجه الفكري، ولا يمكن تغييره خلال سنوات. إنّ دمشق ما تزال مدينة غريبة إلى حدٍ غير معقول، على الرغم من وصول سكة الحديد إليها ووجود محالّ ودكاكين مملوءة بالبضائع الأوروبية والأمريكية، مع أنّ الكثيرين من أهلها يلبسون الأزياء الأوروبية، ويتقبلون مظاهر الحياة الأوروبية الخارجية.

تسير سيارتنا، وبتعبير أدق سيارة القنصل البلجيكي «أو ربما أيضاً مدير شركة الترام» مبطئة خلال الزحمة التي تموج في أزقة الأسواق الضيقة. ليس لأحدٍ هنا عادة التنحي عن الطريق. يجب إذن السير خطوة خطوة، والحذر في كل خطوة أن تدهم واحداً من أولئك الذين يظنون أن التنحي قليلاً ينتقص الكرامة الشخصية، لكن إيقاع أو حتى دهس المرء تدبير إلهي في رأيهم. Insza'llach! "إن شاء الله!" ليمض إذن في طريقه الذي ليس بمالك السيارة الحقيقي، ولا يتعاطف

---

1 ـ يقصد طاولة النرد. (المترجم).

روحياً مع هذه الأرستقراطية أيضاً، وليبدأ بالتعجب من أن الشارع لا يحتجّ ضدّ قلّة الأدب التي تحشر السيارة في الشارع الضيق، حيث يجب على المارة أن يختبئوا في فجوات جدران المنازل كي يتحاشوا التماسّ مع الآلية. لابد أن يكون الإنسان في هذه الحالة ذلك الأبله السعيد، أو حتى ذلك البرجوازي القذر كي يتفوه بالمصطلحات الأكثر حداثة؛ ولهذا فإنه يقتصر على الاحتجاج النظري الذي يصوغه متأخراً كتابةً الآن.

ندخل أخيراً في زقاق ما، يذكرنا بضواحينا، التي تتداخل الحجارة والأخشاب في عمارتها البدائية، ثمّ نتوقف أمام بناء متواضع، ومن خلال بوابة الدخول الموارِبة يمكننا رؤية ممر واطئ ومعتم. يرسل القنصل السائق للإعلام بوصولنا. ظننّا أن مترجماً ما أو رجل دين مسلم يسكن هنا، وبدونه لن نستطيع الدخول إلى الجامع الأموي المشهور. يخرج بعد حين من البيت رجل كهل ويدعونا إلى الداخل. ندلف في ذلك الممر المعتم العميق. وبعد انعطافنا جانباً في نهايته ندفع الباب برفق فنصبح في الضوء، والخضرة، والرفاهية الباذخة. من الواضح أنّ ذلك الشكل الخارجي من الشارع قد كان فقط تمويهاً يخبئ وراءه قصر سيّد دمشقي فاحش الثراء.

إننا في وسط القصر، تحت السماء الزرقاء، في باحة تشبه الردهة الرومانية، الفناء واسع جداً مربع يصل طول أضلاعه إلى عشرات الأمتار، مرصوف بالبلاطات المرمرية المتعددة أشكالها، وفي الوسط بحرة مرمرية بنافورة. وفي العمق صف من أشجار الغار بخضرتها الداكنة ترمي بظلالها الوامضة على الأحجار. تلك هي باحة dziuawani "الجواني"، مركز البيت الرائع ونبضُ حياته. يمكن الدخول من هنا إلى كل غرف المستوى الأرضي، التي تطل عليها كلّ نوافذ الطابق العلوي المحظور على الضيوف، ثلاثة جدران مملوءة

بالأبواب والنوافذ تؤلف مشهدا تشكيلياً محكماً وهادئاً وعريضاً، الجدار الرابع مغطى ببلاطات مختلفة الألوان، وبالخزف الزخرف ومحاط بنباتات الزينة.

يقودنا ذلك الرجل الذي دعانا إلى الداخل إلى صالة واسعة، إلى الإيوان[1] حيث تفرض العادات استقبال الضيوف فيه، ندخل من الشمس الحارقة إلى ظلال الغرفة الباردة، المكسوة بخشب السنديان الفاخر، نتنقل بنعومة فوق البساط الفاره الأزغب، نشرب القهوة السوداء، نأكل الحلويات وندخن السجائر كمقدمة للضيافة. يجلب عدد من الخدم هذه الضيافات الفاخرة على صحائف برونزية غير متفوهين بكلمة واحدة، ثم يختفون كظلال أشباح. سيأتي سيّد البيت بعد لحظة، يمكننا إذن أن نتفحص دون خجل الغرفة المؤثثة على الطريقة الشرقية بطريقة عملية وبساطة، تمتد الأرائك المؤثثة بالمفارش الطرية على طول جدران الغرفة، تفصل بينها خزائن جدارية ذات أبواب صغيرة مزخرفة، بالإضافة إلى عدد من الطاولات والطربيزات المستخدمة لتناول القهوة. لاشيء غير ذلك من أثاث، إلا الرحابة والهدوء، والسجاجيد والجدران المبطنة بالسنديان، المملوءة بالتلبيسات والتعشيقات، والسقف الخشبي المنحوت، التي تشكل كلها تصميماً مزيناً بفخامة، معتم قليلاً لكنه بهيّ.

يظهر ربّ البيت. رجل كهلٌ متقدم في السن بلحية وخطها الشيب، يرتدي زيّاً عربياً وفي يده سبحةٌ من عقيق. نتعارف، ونتلقى الترحاب، باقتضاب جداً، لأنّ الأمير «كما تبين لنا فجأة كان مضيفنا أميراً»

---

1 ـ سيبدو من وصف بيسترون أن هذه الغرفة ليست الإيوان بل غرفة استقبال الضيوف، وكانت كثيرة في البيوت الدمشقية ولا تقتصر على غرفة واحدة، وهذا واضح للذين يعرفون تصميم البيت الدمشقي القديم. (المترجم)

يعرف العربية والتركية فقط، يقود القنصل إذن الحديث، ويسترضينا بأن الأمير الشاب الذي أنهى دراسته في باريس سيصل قريباً كي يتيح لنا الاستفادة منه حتى الشبع، أما الأمير الكبير فيجري حديثاً مع البلجيكي، ساحباً بوقارٍ سيّدٍ حبات سبحته ببطء شديد. «وهذه العادة منتشرة في الشرق كما يلاحظ حتى عند "الليفانت" الأوروبيين الذين استقروا في المشرق»، يحضر بعد قليل الأمير الشاب، تقريباً في الثلاثين من عمره، رجل وسيم، ذو بشرة سمراء زيتيه، وطلّة جادة ونظرة حزينة إلى حدٍّ ما، يرتدي بذلة رسمية مفصلة، ويضع على رأسه طربوشاً، وفي يده سلسلة مفاتيح كبيرة. يبدو أنها تنوب مناب السبحة عند جيل الشباب، ينشط الحديث؛ الأمير الشاب مثقف، ولطيف ومهذب، ودوماً في حدود المعقول، وله كما يبدو علاقات صداقة حميمة مع القنصل الذي رحب بهِ ترحيباً حاراً، ويستقبل حضور الضيوف الغرباء الأباعد دون أي ظل تأفف.

نبدأ زيارة المدينة من منزل الأمير، أو من قصره المموه؛ هذا المنزل الفاتن المختلف كثيراً عن بيوتنا. هو بيت نمطي للبيوت الدمشقية، وبالمعنى الأعم لبيوت العالم الإسلامي كله، والبيوت المتوسطية أيضاً «ومن هنا كانت مشابهُهُ بالبيوت الكلاسيكية». فبقدر ما هي بيوتنا مصممة لإحداث التأثير الخارجي، من حيث واجهاتها المطلة على الشارع التي تُعطى كل عناية لإبراز شأن الأبنية الأوروبية حتى ذات القيمة المتوسطة؛ بحشوها بالتزيينات التي لا طائل من ورائها، وتعدّ واجهاتها تلك مصدر فخر المواطن، يكمن جمال البيت الشرقي بتوجهه الحميمي نحو الداخل كليّة، نحو ذلك المركز الرائع للحياة الأسرية الذي يشكله الفناء، أو الردهة، ولا يطل على الشارع سوى باب الدخول، الذي يصمم بطريقة لا تمكّن الناظر أن يلمح شيئاً من

خلاله في الداخل مهما يكن بسيطاً، وثمة أحياناً بعض النوافذ التي تطل على الشارع من طابق الحريم مزودة بأقفاص خشبية. وهذا بالطبع من نتائج النظام العائلي وعزل النساء. يتطلب نظام الحريم أنماطاً معمارية خاصة، مثل الدير تماماً، فعزل الحياة الأسرية تقود إلى حتمية الحياة في بيوت مغلقة مموّهة. ومثل هذه البيوت تنقسم بشكل واضح إلى قسمين يناسبان احتياجات النظام الأسري؛ المستوى الأرضي متاح للضيوف، وهو السلملك، أما الطابق الأعلى فهو للحريم. المستوى الأرضي يكون عادة فاخراً وغنيّاً، أما الحرملك فأقلّ غنى ومبني ببساطة وخشبي في أحيان كثيرة. وفي كثير من المنازل عدّة غرف تستخدم صيفاً فقط.

إنّ تقاليد هذا النمط من المنازل عريقة جدّاً. فعندما سأل أمير دمشقي أحد السفراء البيزنطيين عن رأيه بها؛ وصف القصور الدمشقية ساخراً بصفاقة: "الطابق العلويّ للطيور، والسفلي للجرذان." ليس هذا قطعاً بيتاً دمشقيّاً خالصاً، لكن على الأغلب تعاليم القرآن الاجتماعية ساهمت في اعتماد هذا النمط. إذ يمكننا أن نتصور بالطريقة نفسها البيت اليوناني أو الروماني، بل أيضاً أي بيت لعائلة تعدد فيها الزوجات، لأنّ تعدد الزوجات يرتبط دوماً بعزل النساء «بل إنّ المورمون في تلك الأزمنة التي عاشوا فيها تعدد الزوجات استخدموا نمطاً خاصاً من المنازل في مدينة Salt Lake City الذي يعد اليوم من آثار الماضي». وبغضّ النظر عن المناقشات الاجتماعية، إنّ الأوربي الذي يعيش في المدينة، الذي ينظر أحدهم في معدته دوماً، الذي لا يستطيع تغيير ملابسه أمام النافذة المفتوحة، الذي تضايقه وتقطع عليه عمله النأمة الصغيرة في الشارع، الذي هو دوماً تحت رقابه جيرانه المزعجين في أي نشاط اجتماعي أو حميمي يقوم به، لابدّ أن ينظر

بحسدٍ إلى مثل هذا البيت المنعزل، الذي يمكن لسكانه أن يشعروا حقاً أنهم في مملكتهم الخاصة. لو كان بالإمكان إيجاد نمط من المنازل يتحلل فيه الإنسان من واجبات الزوجات المتعددة، وكان بإمكانه أن يكون مستقلاً فعلاً عن الأقارب، لكان في هذا العالم هدوء أكبر وسعادة أعظم «ولسقط بذلك السبب الوحيد لحسد سكان دمشق، الذين لا تدعو حالتهم الراهنة أن يُحسدوا أبداً».

لكن لدمشق أيضاً بالإضافة إلى طابعها المحلي الخاص ميزة واحدة أخرى، وهي نادرة جداً في الجنوب، تلك الميزة هي غناها بالماء والخضرة. بردى ذلك الجدول الجبلي الذي يسيل من صخور لبنان الشرقي ويحمل معه مياه سيول كثيرة ترفده، يصبح عند حلق الوادي نهراً كبيراً يجري بسرعة بين الأحياء الجديدة كي يختفي بعدها بين بيوت المدينة القديمة. نظام الأقنية الذي يعود استخدامه إلى قرون بعيدة يوزع عنصر الرحمة والحياة في المدينة. ولدينا في المصادر القروسطية التي تصف دمشق معلومات عن الأقنية التي كانت تروي المدينة في عصر المماليك، حيث كانت المياه تجري لتصل إلى المنازل، والحدائق كانت وفيرة بالمياه، وكانت أشجارها تمتلئ أغصانها بالطيور، ونباتاتها تنشر عبيرها العطر في أرجاء المدينة كلّها. ترش النافورة في ردهة الأمير مياهها، والخضرة الطازجة تؤكد غنى المكان بالمياه. بعد خروجنا من الردهة وفتحنا باباً، يا لدهشتنا الكبيرة، لسنا في الشارع بل على جسر يصل البيت بالبستان الذي يقع على الضفة الثانية للنهر، أضحى النهر ملكية خاصة تعود لأصحاب الحظ السعيد ممن بنوا بيوتهم على ضفته. يصبح النهر جزءاً من ملكية خاصة ويحمل الحياة والخضرة، فكيفما قلبت بصرك يميناً أو شمالاً سترى جسوراً تخص المنازل، وفي الجهة الثانية تمتد الحدائق

المزروعة بعناية شديدة. لدى قاطن الشرق المعتاد على لهيب الشمس والجفاف تعلقٌ أكبر بالماء أكثرَ من إنسان الشمال الذي يتشوق بدوره إلى حرارة الشمس البخيلة. ففي كل مكان على البوسفور، أو على الشاطئ السوري، أو على ضفاف العاصي تشاهد أبنية عديدة تضم المقاهي المشغولة بازدحام، يقضي التركي أو العربي وقته هناك جالساً يسحب نفس الأركيلة، مستمتعاً برقرقة مويجات المياه، ولدى الدمشقيين الأغنياء إمكانية امتلاك هذه المتعة في بيوتهم، ومن هنا ترى الصحراءُ كلها في دمشق الجنة الأرضية، التي تنتظر متعةُ انعكاساتها المسلمَ المؤمن في السماء.

يظهر ضيفٌ جديد في أثناء جولتنا في الحديقة الكبيرة، التي كانت مموهة أيضاً كي لا يستطيع أحدٌ من الخارج رؤية ما يجري في داخلها، وكما يتبيّن لاحقاً كان قد حضر من أجلنا خصيصاً. إنه رئيس المجمع العلمي العربي.[1] رجل متقدم في العمر، في ملابس أوروبية، رقيق وحليق؛ حضر لدعوتنا إلى زيارة المجمع. كنت أعلمُ سابقا بوجود هذا المجمع الذي يعنى باللغة والثقافة العربية، وكنت أصادف هنا وهناك بعض تقاريره، والأهم من ذلك أن صديقي من كراكوف:Tadeusz Kowalski تاديؤش كوفالسكي[2]، المستشرق هو عضو هذا المجمع العلمي العربي. أبدأ الحديث إذن، ناقلاً للسيد رئيس المجمع تحيات كوفالسكي، وقد تهيّأ لي أن أقوم بذلك

---

1 ـ لا يخفى أنّ الحديث سيدور عن الأستاذ الرئيس محمد كرد علي؛ رئيس المجمع العلمي العربي ومؤسسه. (المترجم).

2 ـ Tadeusz Kowalski: تاديؤش كوفالسكي 1889ـ 1948 مستشرق، كان متخصصاً بالدراسات العربية والتركية، له إسهامات في نشر التراث العربي نشراً علمياً محققاً، ومن كتبه بالبولونية Na Szlakach Islamu "على نهج الإسلام". (المترجم).

بجـرأة، مـع أنـي لم أكـن شخـصياً مكلفاً بـذلك. سـرَّ الـرئيس بهـذا، وسـأل لمَ يحـضر كوفالسـكي بنفسه، وكيـف حالـه، وفي أيّ سـنٍّ هو، وكـم عـدد أبنائـه، ومـا شـابه ذلـك مـن أسئلة. استغرب ذو الـذقن الحليقـة؛ هـذا العربـي ـ المستشرق، عنـدما عـرف أنـه يوجـد في بولونيـا مستشرقون محليون بذقون طويلة صفراء فاقعة بلون التبغ المقدوني.

نغادر بيت الأمير ونمشي إلى المجمع، الـذي يتـألف بتواضـع مـن عدّة غـرف مليئـة بالكراسـي، وخـزائن الكتـب غير المجلـدة علـى الأغلـب، وطاولات خضـر عليهـا المحـابر الـتي لا غنـى عنهـا، والأجـراس الرئاسـية الصغيرة التي تدلّ على أن جلسات المجمع تعقد هنا. يذكرنا جـو المنـزل الفاسـد الـذي لم تتم تهويته؛ وبنمطه البشع ـ العتيق بصالة الأكاديميـة العلمية الكراكوفية، قبل تجديدها منـذ فـترة قريبـة. واضـح أنّ كلّ شـيء هنـا في بدايتـه، عمومـاً مثـل كـل أنمـاط الحيـاة الاجتماعيـة والثقافيـة في هـذه الأنحـاء. الأسـتاذ الـرئيس والأمـير الـشاب يمـثلان بوضـوح الـنمط الـذي يفـضل أسـاليب الحيـاة الجديـدة، وأوربَـة الحيـاة العربيـة، هـم أنهـوا دراسـتهم في الغـرب، ودعـاة تفـاهم وحـوار. ولـديهم أصـدقاء بـين القـادمين مـن وراء البحـر. يقومـون بدراسـات حـول الثقافـة العربيـة بحـسب منـاهج العلـوم الأوروبيـة، وينـشئون المجـامع العلميـة والمتاحف. تفلس كـل سياسـة التقـارب هـذه مـع أوروبة تحت انفجـارات قذائف المدفعية التي تسقط من fort Gouraud "الهضبة المحصنة" علـى أسـواق المدينـة وضـواحيها. وهـؤلاء المثقفـون اللطفـاء يقفـون وحيـدين معزولين بين الجمهور العربي المتعصب الـذي يـدافع بعنـاد عـن اسـتقلاله وحـق تقريـر مـصيره ولـو بغلـوّ، وبـين مفـاهيم الطبقـة الحاكمـة الدكتاتوريـة في بيروت أو بـاريس. لكـن المـلازم الفرنسـي الغـرّ وشـيخ الواحـة الملتحـي الوسـخ حاليّـاً لهمـا تـأثير أكـبرُ علـى الأوضـاع مـن تـأثير

العمل الهادئ والذكي الذي يقوم به هؤلاء المتعلمون الذين يحاولون دفع الثقافة العقلية لأبناء بلادهم أبعد من المناقشات المدرسية الدينية للتعاليم القرآنية، وإنشاد المنشدين الجوالين، ورواية الحكواتية للسير الشعبية في المقاهي. إنها المصائر الطبيعية لتكوّن الحركات الوطنية!

لا نتحدث طبعاً عن القضايا الراهنة، أو في السياسة. نشاهد المتحف، إنه لافت للنظر أكثر من المجمع، ليس كبيراً لكنه غني، ومرتب جيّداً. أميرنا هو قيم هذه المجموعات المتحفية الجذّابة، إنّ صديقي فــواچمييج شديد الحماس للمتاحف، وأينما وجد فرصةً يتفحص مقتنياتها بشغف، ويبدي رأيه بقيمتها. أمّا أنا فلا تثير اهتمامي كثيراً مستودعات الجثث هذه، مقارنة بالحقائق الحية الأكثر إثارة. لكنني أعترف أنّ هذا المتحف الصغير كان شائقاً جدّاً. سوريا بلدٌ متنوّع جداً، ثقافات كثيرة متنوعة ازدهرت هنا الواحدة تِلو الأخرى، ومؤثرات كثيرة من جهات متعددة تراكمت طبقاتها الواحدة فوق الأخرى، فأيّ مجموعة متحفية تلقي الضوء على هذه اللوحة الفسيفسائية الثقافية لابدّ أن تكون لافتة للنظر. نجد هنا آثار عصور ما قبل التاريخ، وآثار الحضارات الساميّة، والحثيّة، والفرعونية، واليونانية، والرومانية، والبيزنطية، ثم آثار العصور المختلفة لازدهار الفنون العربية. وهذا كله يتيح لنا أن نتتبع بصرياً تاريخ تطوّر هذه المدينة أو ذاك البلد. رأينا الآثار ما قبل الإسلامية معروضة في أماكن أخرى، في متحف آثار الشرق القديم في استانبول، وفي المتحف المنشأ حديثاً في بيروت. وسنتهم هنا قبل أيّ شيء آخر بالآثار العربية، وهي على الرغم من تقييد التعاليم الدينية للأنشطة الفنية غنية ومتنوعة. يقدّم لنا الأمير شرحاً عامّاً عن تطور الفنون في دمشق الإسلامية، مركّزاً على علاقاتها القوية بالتاريخ السياسي وتبدلاته ازدهاراً أو

انحداراً، على مدى القرون: 650- 750 سيادة الأمويين في دمشق، 1155- 1250 سيادة نورالدين زنكي والأيوبيين، ثم سقوط القلعة على يد المغول، 1260- 1390 عصر المماليك، 1400 سقوط القلعة وتدمير المدينة على يد المغول بقيادة تيمورلنك، وبعدها 1400- 1517 عصر المماليك الشراكسة، ومن 1517 السيادة التركية. وحوالى منتصف القرن الماضي التأثيرات الأوروبية القوية، وهكذا حتى الحرب العالمية. إن من يرى سعادته في التواريخ الدقيقة سيجدها بسهولة في أيّ كتاب يتحدث عن تاريخ سوريا، أو على الأقل في كتاب الدليل السياحي مرتبة زمنياً: ليس ثمة أمرٌ أسهل من كتابة الأرقام، ومن هنا فإنّ كتب أدب الرحلات مليئة بما يسمى "بمعلومات الوقائع"، ولكلٌ ما أحبّ! أنا شخصيّاً لا أتذكر رقم هاتف واحد، وتقريباً أي تاريخ من التواريخ. فتكفيني إذن معرفة أنّ دمشق كانت هدفاً لحملات حربية كثيرة، أتتها من جهات مختلفة، من الغرب « روما، الحملات الصليبية، والتأثيرات الأوروبية» ومن الجنوب «مصر» ومن الشمال «بيزنطة وتركيا» ومن الغرب «المغول». وأنه على آثار الغزوات السياسية أتت أيضاً التأثيرات الثقافية التي تداخلت فيما بينها واصلةً الشرق بالغرب، والشمال بالجنوب. ملاحظتنا في اليوم الماضي حول توسط العمارة الدمشقية بين القاهرة واستانبول كانت صحيحة وأساسية، لكنها أيضاً سطحية، ففي ضوء شرح الأمير وتفحُّصنا المجموعات المتحفية يبدو هذا كله أكثر وضوحاً، ويصبح تنوع الثقافة الدمشقية قابلاً للفهم أكثر.

في فترة دخول الجيوش الإسلامية إلى دمشق، كانت المدينة ذات طابع بيزنطي، وبدقة أكثر سوريّ - بيزنطي، مع سمات محلية خاصة، وخلال فترة زمنية طويلة كانت الفنون الإسلامية غير معروفة

تقريباً، بل إلى حدٍّ بعيد أيضاً، وهكذا استخدمت الصلبان اليونانية كعناصر زخرفية تقليدية. فغير بعيد إلى الجنوب في شرق الأردن في مدينة عمان «العاصمة الحالية» وفي المشتى « في القصر الرائع المبني بشكل غامض في الصحراء، الذي نقلت إلى برلين واجهته المزخرفة بالزخارف الشرقية الغنية كاملة» عمل الفنانون الفرس والهنود، لكنّ تأثيراتهم كانت ضعيفة في دمشق. وأشهر بناء يتصل باسم الأمويين هو المسجد الكبير Dżamî el Umuaui " الجامع الأموي"، لكنه بناء بيزنطي، أعطي طابعاً إسلاميّاً من الخارج فقط. تمكن ملاحظة التأثيرات الفارسية في زمن سيادة نورالدين في المقام الأول، أو الشرقية عموماً، الآتية من إيران القريبة، ومن هنا أتت القباب الدمشقية العالية المميزة المبينة من الفخار التي تشبه خوذة الفارس البيضاء الضخمة. كما أجبر قرب الصليبين الذين وصلوا إلى مشارف المدينة نفسها أحياناً على بناء الأسوار الدفاعية والقلاع. تبدأ في زمن المماليك البرجية حركة عمرانية كبيرة ونشيطة، وكان بناء القلاع خصوصاً في فترة الحروب الصليبية في المحل الأول. وتظهر تحت تأثير عمارة رهبانيات الفرسان العظيمة في الأراضي المقدسة ولبنان رشاقةُ فن العمارة القوطية في دمشق، يرتفع البناء إلى الأعلى، وتتطاول فتحة المدخل عالية، وتصبح المآذن أكثر علوّاً وارتفاعاً، وتتحول من المربعة إلى ثُمانيّة الأضلاع، وفي عهد المماليك الشراكسة أسياد مصر تظهر تلك العناصر التي تذكرنا بوضوح بالقاهرة. من ذلك على سبيل المثال الواجهات الحجرية البُلق التي يتم تشكيلها من استخدام الحجارة البيض والملونة بصفوف متداخلة، وتزيين الجدران، واستخدام العناصر الزُّخرفية البارزة المستمرة، المقسمة إلى مربعات مملوءة بالأشكال الهندسية الملونة، ثم استخدام الديكورات الخزفية، لاسيما الخزفيات

الجدارية المزخرفة، التي نرى خلفياتها في الأبنية القاهرية وفي المتحف العربي هنا. بعد دخول الأتراك لدينا من جديد التأثيرات التركية - الفارسية، ونلاحظها من النظرة الأولى في عمارة المساجد، التي تصمم بشكل مركزي، بقبة ضخمة في وسطها تحيط بها قباب صغيرة، ومآذن عالية أسطوانية عالية ترتفع هرمياً. التأثيرات الأوربية لم تتميز بأمور تلفت الانتباه، وليست ببساطة ممثلة في المتحف؛ منها أبنية الثكنات، والسراي، والبريد، ومحطة القطار، ومجموعة الفنادق، وما شابه ذلك، وهي تذكرنا بمدينة متوسطة في الأقاليم في أوروبة الوسطى. وبالمقابل إنّ الأبنية العائدة إلى فترة الحرب الأخيرة لا تثير الاهتمام؛ البلاغات، النقود الورقية، أما الصور الفوتوغرافية، والرايات التي تتدلى من السقف بألوانها المختلفة، وشعاراتها التي لا نعرفها، يشرحها لنا قيم المتحف: علم العراق، علم مملكة الحجاز، علم إمارة شرق الأردن، وأخيراً الراية الكبيرة الموشاة باللون الأزرق، راية المملكة السوريةالتي استمرت بضعة أيام، وكان فيصل ملكها، ودمشق عاصمتها.

يضمّ هذا التعداد الجاف دون كلمة توضيحية واحدة كلّ هذه المضامين، والتواريخ، والذكريات، والطموحات، الأحلام حول امتلاك العظمة تبخرت بسرعة. مملكة العراق هي اليوم دويلة تابعة لنفوذ انكلترا تماماً، وإمارة شرق الأردن هي نظرياً تحت الانتداب الانكليزي، لكنها محكومة فعلياً بكولونيل انكليزي يقيم بشكل دائم في عمّان. والشيخ حسين ملك الحجاز والد ملك العراق وأمير شرق الأردن أضحى منفياً من وطنه، طرده المتعصبون المتمذهبون بالوهابية، الذين واجهوا مسيرة السياسة الجديدة باسم التعاليم الدينية السلفية. والمملكة السوريةكانت فقط حلم ليلة تموزية حلم بها فيصل

المنتشي بنجاحاته، الذي أراد أن يضم كل الأراضي العربية تحت سلطة مملكته، غير منتبه أن قوى الغرب العظمى المنتصرة قد أعلنت حقّها في ميراث تركيا.وحدها الرايات المشرقة التي خفقت ذات يوم فوق دمشق يمكن أن تشهد على الماضي القريب الذي أضحى بعيداً الآن، وهي الآن مؤقتاً مادة متحفية، لكن هل هذا إلى الأبد؟ الراية الفرنسية ثلاثية الألوان هي التي تخفق فوق القلعة الدمشقية الآن، لكن من يمكن أن يقول: إن ذلك إلى الأبد؟

الأمر واضح، إننا لا نتفق بآرائنا مع محدثنا الدمث، فالحديث عن الأوضاع الحالية تسبب لمضيفنا إزعاجاً واضحاً. وفي النهاية من الصعب التوصل هنا إلى صراحة متبادلة. نخرج من المتحف سائرين في الأزقة الضيقة الظليلة نحو الآثار الحيَّة «القناطر الواصلة بين لبيوت المتقابلة تذكرنا أحياناً بالمدن الايطالية» أوّلاً إلى المسجد الأمويّ، الذي يضم قبر القديس يوحنا المعمدان. هذا المكان المقدس كان في الماضي كاتدرائيّة مسيحية، وإلى يومنا هذا على الرغم من التغييرات الكثيرة، وعلى الرغم من الحريق الذي أصابه في نهاية القرن الماضي، فإنه مازال يوحي من الداخل أنه كنيسة ضخمة ثلاثية الأجنحة نبحث فيها عن موضع القدّاس والمذبح دون طائل. السجاجيد الفاخرة الطويلة تغطي الأرضية الخشبية، ومجموعات الناس جالسون على الأرض طاوين أقدامهم الحافية، متجهين بانحناءاتهم نحو المحراب، يذكّرون أن الكاتدرائية القديمة أضحت للإسلام منذ اثني عشرَ قرناً. وعلى قفص المقام الغنيٍّ بدقة زخارفه الذي يضم رفات القديس يوحنا، يلتمع الهلال الذهبي. نشاهد من الخارج المسجد، بواجهته المميزة، وباحته العظيمة المبلطة بالحجارة البيض، وبحراته المتعددة التي يقصدها المؤمنون بعد خلع أحذيتهم قرب بوابات الدخول ليقوموا بشعائر

الوضوء. إن المسجد عموماً رائع دون شك ولافت للانتباه بأسلوب عمارته، لكنه لا يثير انطباعاً قوياً. بل يمكن أن نغامر بحكمنا إن ذهبنا إلى أنّ أسلمة الكاتدرائيّة قد نزعت عنها طابعها الأصلي دون أن تذيبها تماماً في روح الديانة الجديدة، وبهذا يمكن أن نفسّر فشلها من الناحية الفنية الجمالية! لكننا نتذكر في هذه اللحظة آيا صوفيا الاستانبولية، التي هي على الرغم من المصير المشابه واحدة من أروع المعابد في العالم من حيث تأثيرها الجمالي وجوّها الديني، بل هي تضاهي بفن عمارتها الكاتدرائيات القروسطية في شمال فرنسا.

إنّ القنصل ترجمان ماهر حقّاً كما هو واضح، و يبدو أنّه قد كان دليلاً لأكثر من زائر في دمشق. انعطفت بنا السيارة بعد عدّة شوارع ووقفت أمام قصر العظم؛ بعد الانطباعات المختلطة البيزنطيّة - الإسلامية، لدينا الآن الشرق الأكثر نقاءً، والأكثر أصالة، والأكثر جمالاً. إنّ دمار الحرب التي تجاوزت كاتدرائية الأمويين، قد أصابت القصر الجميل بالخراب الهائل، يؤكّد بعضهم أنّ قصف السوق قد تسبب بخراب جزئي في بيت آل العظم القريب. وآخرون يقولون إنّ عنف الغوغاء الذي سيطر على الأسواق قد هجم بعد ذلك على القصر الذي ضمّ المقتنيات المتحفية الثرية؛ يكفي أنّ جناحاً كاملاً ينوء تحت ثقل الحطام. والجدران العارية المتفحمة، التي بدأت النباتات الصغيرة تنمو بينها، تشكّل ثلماً كبيراً في إطار واجهة البناء الأنيقة المطلة على الباحة الضخمة المرصوفة بطبقة ملونة من الحجارة البيض والوردية، والمدعومة بالأعمدة الرشيقة. يسود الجمال العظيم السامي هنا على الرغم من الدمار. قليلاً ما نصادف عمارة مثل هذه قد أنجزت بكلّ هذا الكمال والأناقة، والمحتفظة بأصالتها النبيلة. الباحة العظيمة المرصوفة بالحجارة البيض، ومساكب الورود، والنوافير، والصالات

الواسعة الخافتة الإنارة، ومعتدلة البرودة، المزينة بالتعشيقات والزخارف الفسيفسائية، الممدودة بالبسط الفاخرة العظيمة، لاشيء هنا عشوائي، لاشيء غريب، لاشيء زائد عن الحاجة. كلّ شيء تمّ تركيبه ليخدم الكمال الكليّ، بل حتى بين الخرائب الخطرة في القسم الأيمن من القصر تلحم الخضرة الحطام، حابكة بين قطع المنحوتات، ومظهرة هنا وهناك الزخارف الفسيفسائية الغنية؛ الزمن يعالج الدمار!

كان هذا القصر العجيب يضمّ متحف الفن العربي، ومدرسة الصناعات التقليدية الفنية، التي تشرف على إدارتها السلطات الفرنسية؛ اندفعت مجموعات الغوغاء مستفيدة من الحريق الذي اندلع، إلى الداخل، ونهبت المقتنيات الثمينة، التي لا وجود لها اليوم، بقي فقط الأسدان الحجريان الضخمان؛ وهما يمثلان الفن الحثيّ نادر الوجود، وهاهما ينتصبان في الفناء محدقين أمامها بنظرة حجرية مرعبة. بعد ذلك أمكن العثور على قسم من المقتنيات في الأسواق، لدى تجار التحف القديمة، الذين هم كثرة هنا، مادام أيّ ضيف يرى من واجبه أن يتموّن بالتحف القديمة والشرقية، وهكذا في مصر يشترون أيضاً الخنافس المزوّرة، وفي إيطاليا التماثيل الصغيرة والنقود "المستنسخة" ad hoc في المناسبات. وقد تم استعادة بعض المسروقات لتشكل من جديد نواة المجموعات التي ستنمو مستقبلاً. ليبكِ الآثاريون إذن، ومؤرخو الفن، وحريٌ أن يبكي قبلهم أكثر منظموا ذاك المتحف على الآثار المنهوبة. لا ريب أنّ القصر يبدو أفضل في هيئته الأصلية، بل ربما بمظهر أفضل من وضعه عندما كان مستودعاً للتحف، فإنها حتى إن كانت ذات قيمة كبيرة، فهذه التحف المجلوبة من أماكن مختلفة، عندما توضع في القصر سيتحول إلى مقبرة للفن. وهكذا هو المتحف دوماً. الفناء الفارغ المزين فقط بالتشكيلات

الحجرية التي تغطي أرضيته، وبالورود والبحرة ذات النافورة، هو أكثر جمالاً من ساحة مملوءة بالحجارة الأثرية، والصالات المبطنة بالخشب، والمفروشة بالبسط، دون أثاث زائد، الغارقة في جوٍّ من نور الغسق، فيها بهاء أكبر كثيراً من جمال صالات أشهر المتاحف العالمية. فنهاك لا نرى إلاّ مجموعات موادٍ متحفيّة تم جمعها بعناية، ونقلها إلى مكان واحد، وهي معروضة بكثافة دون أن تناسب إحداها الأخرى كثيراً، تحتم عليك أن تمتلك مهارة تركيزِ انتباهٍ عالية وقدرة على التحرر من الأشياء المحيطة، كي تستطيع الاستمتاع بجمال التفصيلات والجزئيات؛ أما هنا فإننا مسحورون بالكل، والكلّ هو البناء، الذي يحيط بالمساحة المغلقة. ما هو موجود من لوحاتُ الفسيفساء، وخشب السنديان، والبسط هي أجزاء لا تتجزأ من هذه العمارة، إنها له ومنه، وهي متحدة به تماماً. متفحصين الجزئيات، نحسُّ بتلك المشاعر نفسها التي نعانيها من معاينة الكلّ. إنّ أبناء هذه الثقافة الذين يدعوننا إلى تأمل جزئيّة ما، تحرّضنا بدورها على التحرك في مقاطع صغيرة لظاهرة ما، يحضوننا على العيش بالبسيط، والتبدّل الدائم، والقلق. فنعاني من مشاعر غريبة، ونحن في عالم مغلق، هو في محصلته جماعُ الفنّ الأسمى، والحكمة الأعمق، والسكينة الصوفية!

القنصل الذي فيه شيء ما من مونتبراناس، مسرور جداً منّا ومن نفسه. تهدر السيارة من جديد، وتلفّ عدّة شوارع من جديد، لتصل إلى عالم أرحب. نسير نحو الحيّ الأوربيّ، نجتاز خطّ الترام، أبنية حكومية مملة، فنادق، وبسرعة نجتاز حيّاً ضيّقاً وطويلاً، مبنيّاً على امتداد الطريق نحو حيّ فقير es-Salehiye "الصالحية"، ومن ثمّ نحو الجبل. نشاهد صفّاً طويلاً من الأبنية يمتدّ دون أن تثير فضولاً، طابقية على الأغلب، متاجر ودكاكين وشركات أوروبية كثيرة، وفي

منتصف الطريق .Singer Co "شركة زينجر"[1] التي يديرها ذاك السرديني الذي تعرفنا عليه في مقصورة القطار. وأبعد قليلاً في نهاية شارع مغلق فيلا قنصلنا، المؤثثة بأسلوب هجين شرقيّ - أوروبيّ؛ وفيها السيدة المتوحدة المربوعة القامة، زوجة القنصل : مدام ساموفار. نكمل سيرنا نحو سفح الجبل، وكلما قطعنا شوطاً تخف الخضرة، وتتكاثر البيوت والمنازل الصغيرة الفقيرة، التي يمتد بناؤها بحسب ضرورات الحياة الشرقية على حدود الصحراء، كي تترك puca aratris iugera "لراعي الغنم ما يرعاه". ترتاح البيوت على المنحدرات العارية الصفر، وكلما ارتفعنا أضحت البيوت أقل وأفقر، حيٌ فقير يسكنه العرب حصراً، وأبعد قليلاً حيّ الأكراد، وهو غير آمن، لا يمكن أن نذهب أبعد لأنّ سلطة الشرطة لا تمتدّ إلى هنا.

تصل السيارة بالطريق الصغيرة إلى حيث أقسم ويلهيلم الثاني[2] قبل سنوات غير بعيدة قبل الحرب بإخلاصه للثلاثة ملايين مسلم. ننزل من السيارة يحك قنصلنا بوزه ثم يردد شيئاً ما يشبه:

- تا تشاتردا ![3]

- يا للروعة !

ثم فجأة ، منظر رائع غير متوقع! نحيط بالواحة كلها : سواد الخضرة يتناقض بروعة مع عراء الصخور الملتهبة. وفي الوسط، في العمق دمشق، مدينة متناثرة على اتساعها في الخضرة، ومنارة بالشمس الساطعة، تشكل بقعة هائلة مضيئة كالثلج، تجمعات سكنية بكثافات متفاوتة، قباب كثيرة ومآذن، وكلّ شيء أبيض متّقد في محيط جوّ الخضرة المعتدل.

---

1 - .Singer C شركة زينجر: من أشهر شركات صناعة ماكينات الخياطة في القرن الماضي.(المترجم).

2- طبعاً يريد منطقة المصطبة في حي المهاجرين حالياً . (المترجم).

3 - عبارة للتعبير عن الدهشة وليس لها معنى حرفي نستطيع ترجمته. (المترجم)

درّةٌ بين حبات زمرّد!

كلّ انبهار الشعراء، وكلّ شغف العرب بهذه الجنة الأرضية، التي يفترض أنها خلاصة المتع الأخروية، وكلّ شيء، يصبح الآن مفهوماً. إنّ السائح الأوروبي متوسط الثقافة عند وصوله بالقطار مرتاحاً، وقيامه بجولة على قدميه في هذه المدينة، يستغرب من أين لهذه المدينة المبنية دون ذوق، والتي لا يوجد فيها فندق مناسب، والمشتهرة كلّ هذه الشهرة العريضة، وسيميل إلى رمي هذه المفارقة على عاتق تخيّل الشرق«حتى وإن كان فناناً من طراز Maurice Barrès موريس باريه»، لكن بالمقابل إنّ كلّ من عاين لحظة الانبهار، وتذوّق هذا المشهد المعجز، سيفهم، ويشارك أبناء الصحراء انبهارهم، عندما يصلون بعد ترحال طويل بين كثبان الرمال إلى جنات الله المباركة، وإلى الغنى الذي لا حدود له بالماء والخضرة، وإلى المساجد الظليلة الرطبة الشامخة، والخانات. وها نحن أيضاً قد تذوقنا ذلك قبل يومين وتنشقنا أنفاس الصحراء الملتهبة عندما سافرنا من تدمر نحو سفوح لبنان الشرقي.

نبدأ تمييز مواقع الأحياء المتعددة، في هذا التجمع الهائل الأبيض المتقد. أبنية شامخة، ومآذن مرتفعة، ويكمل لنا القنصل الشرح، ويشير إلى المواقع العسكرية، على الهضبة المحصنة، وإلى نقاط الحواجز العسكرية، ونسأله عن الأماكن الجديدة والأحياء، والمياه والتلال والهضاب. إننا على سفوح لبنان الشرقي، على حبل قاسيون، وكأننا على الطرف الأخير لسلسلة الجبال التي تبدو في الأفق محيطة بالواحة كلها. المرتفعات القريبة صفراء مسمرّة، والبعيدة العالية منها والمنخفضة زرقاء لازوردية تشكل إطاراً رائعاً للواحة الزمردية. وفي العمق الأبعد جنوباً على خط الأفق تماماً ترتسم بضبابية قمة جبلية برّية:

- وماذا عن تلك الجبال التي تلوح في الأفق؟

- جبل الدروز- يجيب القنصل.

جبل الدروز

هذا هو إذن جبل الدروز؛ جبل حوران!

لو كنت روائيّاً بولندياً، لقدمت نفسي كفارسٍ مثالي دونكيشوتي، يحارب بشجاعة دوماً في صفوف الجنود الفرنسيين ضد مهددي السلم العالمي، غير عابئ بأمر سادته الضباط، ويحرر بشجاعةٍ السلطانةَ الجميلة ابنة الأطرش الكبير نفسه من الأسر الدرزي. أو لتخيَّلت نفسي في دور المقاتل المؤازر للدروز في ثورة الأمم نحو الحرية ضدّ الغزاة من الغرب، الذي تحكم عليه السلطات العسكرية بالموت، ثمّ لتدبرت إطالة عمره الرومانسي، ووصفت مغامراته في روايةٍ تتدخل فيها بسريّة سيّدةٌ مثيرة؛ تستخدم علاقاتها الشخصية المؤثرة لإنقاذ الشاب البطل.

ولو كنت صحفيّاً بولندياً لوصفت بالتفصيل الدقيق لقائي بالجنرال Gamelin جاميلين قائد القوات الفرنسية في الشرق الأدنى، الذي يقود الحملة ضدّ الدروز، ولصغت بكلماتٍ بليغة الوقائعَ والأحداث التي رافقت الحملة على الجبهة، أو ربما أيضاً مهمةً تجسُّسية إلى قلب التجمعات الدرزية في قلب السويداء، ولحددت بدقة الضابط الخبير سير العمليات العسكرية، وأحداث المستقبل بدقة حسابية فائقة.

ولو كنت دبلوماسياً بولندياً....

يا لها من أفكار... ينسج المرءُ دوما أحلاماً عن امتلاك العظمة، وبعدها يستيقظ كي يعترف بتواضع أنه رأى فقط في الأفق من بعيد

الجبـال الدرزيـة، ورأى الجنـرال جـاميلين خارجـاً إلى الغـذاء محاطـا بقيادة أركانه في فندق الشرق، وأنه كما يبدو أمضى ليلة فقط معه تحت السقف نفسه. لأعترف إذن أنّ خيالي ليس جامحاً إلى ذلك الحدّ الذي يمكنني من تركيب مادّة إبداعيّة من كل هذه الوقائع.

وبعيداً عن هـذه التـأملات الحزينـة حول الإمكانات المهدورة، فإنّ منظر مجموعة الجبال العظيمة التي ترتفع بعيـداً عن الواحـة الدمشقية الخـضراء تـثير في الـذهن مجموعـة مـن الموضـوعات التاريخيـة والاجتماعيـة المعقـدة؛ الواحـة تخلـق لنفسها كـلّ شـيء، فهـي محبـوّة بـشبكة واسـعة مـن الأنهـار والجـداول والحقـول الخـصبة، الـتي تـوفر إمكانيـة الـسكن الكثيـف للفلاحـين في قلبهـا، لتـصبح مركـز الصحراء كلها، تنشأ مدينـة كبيرة بـين الجبـال الـصخرية الجـرد مـن جهة؛ جبال لبنـان العارية تمامـاً، وبـين الـصحراء التي تمتدّ إلى الفـرات مـن جهـة ثانيـة والمسكونة بقليـل مـن قبـائل البـدو الرحـل، فمـن الجهـة الأولى إنّ سلسلة الجبال العظيمة تمنع دخول الغرباء الذين يودون العبور من سهل البقاع الخصيب الواقع بين السلسلتين أو من جهـة البحـر. ومـن الطرف المقابل تمثل الصحراء الواسعة خطراً إضـافيا أكـبر، فهجمـات البدو النهّابة تطال بسهولة سـكان القـرى علـى تخـوم الواحـة. وهـكـذا فـإنّ جبـال الـدروز المسكونة بكثافـة هامـةٌ لحيـاة الواحـة، بـل هـي في بعض الأحيان فائقة الأهمية.

وللجبـال أيـضاً أهميـة راجحـة، فـالراعي الجبلـي الـسريع دومـاً، والرشيق الذي لا يرتبط بالمكان، الذي اعتاد على الحيـاة المتنقلة يبتـزّ جارَه المزارعَ ثقيل الحركة المرتبط بعمله في الحقل، الزاهـد في مغـادرة حدود أمـلاكـه، والذي لا يلجـأ إلى الـسلاح إلاّ لحاجـة نهائيـة، وهـكـذا فالرعـاة في كـل المنـاطق كـانوا ينهبـون دومـاً المـزارعين الـذين يقطنـون

الوديان والسهول بسلام، ثم يتراجعون حاملين غنائمهم إلى الجبال حيث لا يستطيع أحدٌ أن يصل إليهم. وبهذا الشكل بدت تقريباً هجمات عصابات الكارباتيين[1] لدينا على المزارع والقرى المتناثرة على النجد. وبهذه الطريقة أيضاً يهاجم الرعاة العرب في أيامنا المستعمرات الصهيونية في جبال السامرة والجليل في بعض الأوقات[2] . ودوماً إنّ هذا الذي يكون في الأعالي يستغل قريبه الذي أجبره حظه السيئ أن يعمل في الأدنى، وينطبق هذا بالسوية نفسها أيضاً على مظاهر المجتمع

---

1 . هم سكان جبال الكاربات المشهورة التي تمتد في أوروبا حوالى 1500 كم. (المترجم).

2 ـ واضح أنها مقارنة غير دقيقة، وهي ـ إن أحسنا الظن ـ وهمُ عالم يدقق في جزئية ويحاول تعميمها، لكنه ينسى هنا ظروف قيام المستوطنات الصهيونية في فلسطين قبل النكبة، أو ليس مطلعاً عليها بدقة، إذ قامت الوكالة اليهودية بداية بشراء أراضٍ كانت وقفاً أو مراعي لتقيم فيها مستعمراتها التي أضرت بمصالح وحقوق الفلاحين ومربي المواشي، ومن هنا أتت هذه المشكلات التي يتحدث عنها آنذاك، بالإضافة إلى شعور الفلسطينيين بخطورة المشروع الصهيوني منذ البدايات ففي عام 1918 تم إنشاء أول منظمة سياسية في تاريخ فلسطين الحديث، وهي " النادي العربي " وقد أنشأه الحاج أمين الحسيني، وكان ذلك النادي قد عمل على تنظيم المظاهرات في القدس في عامي 1918-1919. وفي عام 1919 عقد المؤتمر القومي الأول في مدينة القدس، وقد أصدر المؤتمر ميثاقا نص على ما يلي:

ـ رفض وعد بلفور، والانتداب البريطاني، والهجرة الصهيونية ـ اعتبار فلسطين جزءا من سوريةوتسميتها سوريةالجنوبية ـ استقلال فلسطين التام ضمن الوحدة، والمطالبة بوحدة سوريةالكبرى ـ إرسال برقية احتجاج إلى مؤتمر الصلح في باريس تسجل الاحتجاج الشديد لممثلي الشعب الفلسطيني.

وفي 1929/10/27 دعت اللجنة التنفيذية للقيادة الفلسطينية إلى اجتماع للجمعية العمومية للمؤتمر الفلسطيني في القدس حضره أعضاء الجمعية العمومية، وزعماء العشائر، وعدد من الشخصيات العربية لتأكيد رفض الاحتلال ورفض وعد بلفور.(المترجم).

كما ينطبق على الأحوال الجغرافية. والنتيجة حالة حرب دائمة بين الجبال والسهول، أو على الأقل ثمة عداوة متبادلة وانعدام ثقة بين الاثنين. هكذا الأمر دائماً، لكن العلاقة أحياناً تستقر بينهما في ظروفٍ تشبه العلاقة القائمة بين اللصِّ والشرطي، هذا في الظروف التي تسود فيها مفاهيم الدولة البدائية جداً؛ فمثلما يكون مسموحاً للسارق في تلك الظروف أن يسطو بحسب معايير معينة دون أن يضرّ بمصالح الشرطي المهنية، يكون أيضاً مسموحاً للجبليين أن ينهبوا الفلاحين ضمن حدودٍ مرعية بالعرف الاجتماعي. وهذا ببساطة نوع من أنواع الخوّة يقوم الجبليون الشجعان بجبايتها من الريفيين الصبورين، وعلى الجبلي الذي يقوم بالنهب أن يقوم بهذا الأمر ضمن الحدود المرعية والمقبولة عرفاً. إنّ هذا النمط من العلاقات اللوكارنية «من Locarno»[1] يتيح للجماعات الاجتماعية العديدة المجبرة على العيش قرب بعضها في شروط جغرافية متباينة أن" تتعاون سلمياً".

وهكذا إذن، يكفي أن ترى ذلك المشهد من مصطبة ويلهيلم كي تفهم أنّ سكان الجبال الدرزية « والأدقّ أن نقول جبل حوران، لأنّ الدروز وصلوا إلى هناك قبل فترة ليست بعيدة؛ قبل بضع عشرات من السنين بعد الاضطرابات في لبنان» لا يستطيعون أن يكونوا حياديين تجاه سكان الواحة، إنّ هذا صحيح قطعاً ولا يمكن لمجلدات كاملة من الأبحاث العلمية الأنتروبولوجية أو الاجتماعية أن تستطيع بوضوح تقديم هذه الحقيقة التي تفرض نفسها بنفسها عند مشاهدة البانوراما الدمشقية. وهنا ينتهي دور العوامل الطبيعية، أما كيف يتحدد شكل

---

1 - إشارة إلى اتفاقية لوكارنو 1925 التي وقعتها ثمان دول أوروبية هي بلجيكا وتشيكوسلوفاكيا وفرنسا وألمانيا وبولونيا وبريطانيا العظمى وإيطاليا وهي اتفاقية عدم اعتداء وتعاون سلمي. (المترجم).

العيش المشترك بين الرعاة والمزارعين، بين الجبليين و"سكان السهول" و"أهل الوادي"، فهي قضية أخرى محكومة بالنظام الاجتماعي، والتقاليد، والظروف السياسية والاقتصادية، وإن أراد أكثر الجغرافيين دهاءً أن يستنتج مستقبل الوقائع التاريخية من مورفولوجية الوسط الجغرافي فلن يستطيع أن يتوقّع المصائر المتغيرة للفكر الإنساني والعلاقات الاجتماعية التي تنشأ عنها. مرّت علاقات الدروز بسكان الواحة بمراحل مختلفة: فكانت غير وديّة عندما هاجمت مجموعات الجبليين المغامرين الواحة لنهبها، لكن مع مرور الوقت استقرّت الأمور على شيءٍ من الطفيليّة المسكوت عنها، وأشكال من الوجاهة الممنوحة لرجل العصابات الشريف، كما لم تنته بالطبع هنا أو هناك بعض الخلافات الدمويّة جداً أو الخفيفة حول حقوق الجبليين. ثمّ أخيراً عندما احتدم الحراك الفكري المقاوم ضدّ الشخص الثالث أي ضدّ سلطات الاحتلال أو الانتداب الفرنسية كان عليه أن يتوافق في عملياته مع نشاطات الدروز الذين هم -كما كانوا دوماً- في القمّة، فاستلموا زمام المبادرة لقيادة العصيان المسلح. ولولا المشاركة الفعالة لسكان حوران أصحاب التقاليد الحربية الرائعة والقدرات القتالية الاستثنائية لبقيت الاضطرابات الدمشقية، هذا إن انفجرت عموماً، مقتصرة على المظاهرات، ولكانت الواحة ضعيفة جداً وحدها وسهلة الاستباحة ولا تستطيع أن تضرم ثورة عامّة دون السند القوي الذي يمكن أن تقدمه الجبال. أما الأسواق التي تقرّ بفضل ازدهارها إلى حدٍ بعيد لأغنياء الدروز وشيوخهم الأسخياء فقد أصيبت بالدمار وكأنها ساحة الحرب المتقدمة التي أدارها الدروز، والتي كانت أسهل منالاً من السويداء الجبلية العصية، وقلعة الجبليين الأساسية.

نفهم إذن أنّ الواحة والجبل هما حليفان طبيعيان في هذه الحالة،

لكن حقاً ما الهدف الذي يتخاصم الكلّ من أجله هنا، ويتحاربون، ويدمر بعضهم بعضاً؟ إنّ المشاجرات العرضيّة لا يمكن تلافيها طبعاً. فهي أمرٌ يتعلق بالطبيعة البشرية، ووقوع خلافات الجيرة هي عادةً ذات طبيعة تراثية جزئياً، وجزئياً هي ذات طبيعة رياضيّة. لكن لأيّ غاية شيطانية بالتحديد تنظم العمليات هنا على هذا المستوى العالي، وتحشد الجيوش بالألوف، وتعلن الحروب، وتتورط سلطات الانتداب لإحلالِ الأمن في البلد المبتلى بوطأة الحرب العالمية أيضاً، تخرّب المدن والقرى، ويشغل الرأي العام في العالم كلّه، ويسمح للصيادين المتطفلين بالاصطياد في المياهِ العكرة؟

تتنازع أوروبة على الفحم أو على النفط، أو على الحدود، أو من أجل حق الشعوب بالحرية، وحول النظام السياسي الجديد، أو حول قيم عملية أو مثالية، بكلمة واحدة حول برامج اقتصادية أو عقيديّة، أما الشرق، كما يبدو، فليس لديه برنامج. كان ثمة برنامج ديني ضخم في الماضي لدى الخلفاء، وبرنامج سياسي ضخم لدى السلاطين، لكن هذا كله أضحى اليوم من الماضي، فالناس، والعائلات، والعشائر، والقبائل، والدول تتقاتل فيما بينها دون برنامج محدد، وتعقيد الحوادث هذا، هو ما يقود ببساطة نحو الأزمة؛ فيبدأ الجميع بإطلاق النار؛ تلاحظ هنا وهناك بعض الومضات، أو أيضاً بعض الإرادات لصياغة برنامج تحرري ما، قوميٍ أو اجتماعي، لكنّها على الأغلب شعارات وعناوين، تسمح لقارئ الصحيفة اللطيف في أوروبا أن يتداول الأحكام الجاهزة في ثرثرات المقاهي، وللصحفيين أن يستخدموا المصطلحات المنتزعة من موسوعة العلوم السياسية الحديثة للبروفيسور بيريتياكوفيتش. لا ريب أن ثمّة مجموعة قليلة العدد جداً تريد أن تضفي على الحركات التي تظهر تلقائياً بعضاً من

سمات الفكر المنهج، ويتمّ استغلال هذه الحركات من قبل التيارات السياسية الدولية، ولاسيّما الشيوعية. ويتوجه بعضها الآخر بفعل النتائج الداخلية للحوادث نحو بناء أيديولوجية عشائرية أو وطنية، أو أيضاً بشكل شمولي نحو أممية - إسلامية. وفي النهاية إنّ الحوادث المغربية قريبة العهد المتعلقة بثورة عبد الكريم[1] هي تماماً المثال النموذجي لتشكل الوعي القومي الحديث بتأثير القائد الماهر الذي يوحد في أتون الثورة القبائل المتنازعة في وحدة كبيرة متكاملة.

حوادث الريف ونجاحات عبد الكريم الأولية الكبيرة السريعة - والأمر واضح - أثّرت في تكوين علاقات جديدة في سوريا، فالزلزال في المغرب العربي كان أمراً جديداً وقويّاً جدّاً، ولم يكن البتة ذا صدىً ضعيف لا يمكن له الوصول إلى الصحراء السورية. لكن دعونا لا نستبق الحوادث، لاسيّما أن الثورة في دمشق وحوران، بالإضافة إلى الظروف السياسية المواتية كانت لها أسبابها المهمة والعميقة: فالمواجهات الدامية نشأت على خلفية عدم تلاؤم النظم الاجتماعية الإقطاعية السائدة في البلاد مع نظام الإدارة الجديد. لم تكن حتى لدى الفرنسيين والدروز مصالح متناقضة، بل توافرت بالطبع المصالح الاقتصادية و السياسية العديدة التي تربط الطرفين، بالإضافة إلى أنّ أنه في فرنسا الفرنسيين كان يوجد لديهم عطف كبير على الدروز الذين كان ينظر إليهم سابقاً كأحفاد الفرسان الصليبيين الذين بقوا في لبنان بقيادة الكونت درو، محافظين على تقاليد الفروسية القروسطية. لكن هذين الطرفين اللذين كان يجدر بهما أن يتعايشا

---

1 - هو عبد الكريم الخطابي(1882- 1963) زعيم قبائل الريف بالمغرب، مجاهد؛ ثار على الأسبان وهزمهم قرب مليلة1921. استسلم للفرنسيين 1926، وتوفي في القاهرة. (المترجم).

معاً وفق اتفاقية السلام وقرار عصبة الأمم حول الانتداب، لم يتفاهما، وكان أسلوب تفكير كلّ منهما مبنياً وفق أسس مغايرة ومن هنا كان الصدام حتمياً. وكم هو صعبٌ لعب الشطرنج مع منافس يخترع عند افتقاده مهارة اللعب قوانين جديدة لحركات حجارته، أو أيضاً يستعين بقبضته في اللعب.

لاشكّ أبداً أنّ كل هذه المغامرة الحربية التي زلزلت هيبة وسيادة فرنسا بعنف في الشرق الأدنى، وأضعفت كثيراً قبائل الدروز ضئيلة العدد أصلاً، دفعت إلى المواجهات بين الطرفين دون إرادتهم، وبعد أن احتدمت المواجهات أضحت قضية شرف عشائري عند الدروز، وتوسعت إلى أنحاء الواحة الدمشقية كلها، متحولة إلى ثورة اجتماعية ووطنية، وكان لابدّ من إخمادها بهجوم الجيوش النظامية المعتادة على النصر في فترة الحرب الكونية الكبرى. وكل هذا كان مظهراً من مظاهر الحمى الدماغية للعالم الجديد الذي نشأ على أنقاض الإمبراطورية العثمانية. وكان الدروز أيضاً ميراثاً تركيّاً، لكن ميراثاً اسمياً جدّاً. لأنّ الإدارة العثمانية المستبدة والطاغية لم تصل واقعيّاً في البلد المستباح بسلطتها إلى الجبال. ففي لبنان كان تدخل الإدارة التركية غير مؤثرٍ نسبيّاً، وهؤلاء الأكراد أو الدروز كانوا مستقلين واقعياً تماماً. إنهم لم يقيموا حتى دولة ضمن حدود الدولة، ولم تكن لديهم طموحات تحررية أو إقليمية، وبكلمة واحدة كانت فكرة الدولة غريبة عليهم، وكانوا يواجهون الإدارة بعدائيّة، دون يستوعبوا ماذا يريد هؤلاء الأغراب و المجهولون منهم، ولأنهم كانوا يمدون يدهم بسهولة إلى السلاح، فقد تمّ تجاوزهم ببساطة، وتركهم في جبالهم دون جباية ضريبة منهم أو تجنيدهم إجبارياً.

كان لدى الدروز مناعة قوية ضدّ التأثيرات الجديدة. وألّفوا جماعة

متماسكة جداً، لها عبادتها السريّة الخاصة، خليط من عناصر مسيحية وإسلامية ـ وكما يبدو ـ من العبادات الوثنية السوريةالقديمة، وظلّوا تحت القيادة الروحية لرؤسائهم الدينيين، الذين كانوا يدعون إلى نوع من التبشيرية القبلية، وتحت السلطة الدنيوية لسادتهم الإقطاعيين. وهم يدينون بالفضل لهذا التنظيم الديني ـ الاجتماعي القوي، المتجذر في التقاليد، الذي حفظ لهم استقلالهم وأهميتهم على الرغم من قلّة عددهم، ودورهم التاريخي الذي عبّروا عنه بروعة في أيام فخر الدين، هذا الحاكم الذي وصل بسلطته إلى البحر، واحتلّ الموانئ الفينيقية القديمة، وأنجز العديد من الأعمال العظيمة الناجحة، ونال إعجاب أوروبا بشجاعته العسكرية والسياسية المتألقة. عاش الدروز في النهاية في لبنان مختلطين بالموارنة، وعدلت المعارك الدامية طيلة القرن التاسع عشر حدود ممتلكاتهم تدريجياً مع جيرانهم، وفي النهاية بعد مجازر المارونيين الكبيرة في سنة 1860 وتدخّل الجيوش الفرنسية في لبنان أجبروا على التراجع إلى المناطق الجنوبية اللبنانية، وإلى سفوح جبال الحرمون، وإلى حوران الذي سكنوه بكثافة، وهو يحمل اليوم اسم Dziebel Druz جبل الدروز. إنّ عدم القدرة على التأقلم مع روح العصر، التي هي صفة مميزة لكلّ مجموعة محافظة بإخلاص على تقاليدها القبليّة، أجبرت الدروز على تلك الهجرة القسرية، فأضحت قمم حوران البازلتية معقلاً أفضل من سفوح جبال لبنان التي أضحت أكثر فأكثر عرضة لتأثيرات الساحل. وتطورت الأوضاع في لبنان تحت تأثيرات متميزة بالطابع والروح الأوروبية، وعلى أنقاض الإقطاعية المارونية القديمة بدأت تنمو أنماط الحياة الجديدة، ثمّ تأكدت بالطموحات التحررية، التي تكللت بالنجاح الكبير إلى حدٍّ بعيد. أمّا جبل حوران فقد بقي منعزلاً،

مخلصاً للتقاليد. وعندما كان السلطات التركية يحاولون التدخل إلى حدٍّ ما بالقوة كانت الثورات تندلع مباشرة، وتنهي دوماً بالتأكيد على مناعة الجبال. عاش الدروز وحدهم براحةٍ، بطريقةٍ بدائية، يعتنون بالزراعة والرعي، وفي أوقات فراغهم بالسطو على فلاحي الواحة، وحصلوا في زمن الحروب على ثروات كبيرة، بتأمين الطعام للجيوش، وينهبون دون رحمة القوافل العسكرية التي تقترب دون ضرورة من الجبال.

تقرأ الأخبار المتعلقة بالنظام الاجتماعي الدرزي مثلما تقرأ رواية مثيرة عن الماضي البعيد، وأزمنة البطولات. نحن في عصور الإقطاع. كلّ قرية لها سيدها الحاكم، الذي ينتسب عادة إلى واحدة من العائلات الدرزية الارستقراطية، وهذه العائلات هي عشر، وأهمها عائلة الأطرش التي كان دورٌ عظيم في الحوادث الأخيرة. مثل هذا السيد الإقطاعي يقوم بزراعة ثلث الأراضي على نفقته، ويدفع بكامل حريته الضرائب، القسم الأعظم من موازنة مثل هذه الدويلة، التي هي القرية المنظمة بهذه الطريقة، تستهلكها التشريفات، أي ببساطة كرم الضيافة على الطريقة القديمة، يستقبل Seigneur "السيّدُ" الضيوف، كاسباً بهذه الطريقة الأعوان والتابعين، ويقيم العلاقات الجيدة مع الجيران. إنّ كرم الضيافة هو أساس التعايش الداخلي في إطار القرية، ومظهر نشاط السياسة الخارجية معاً. وأهمّ أبنية القرية هي "medafê" المضافة الرحبة التي تستخدم قاعةً للاجتماعات، وبيتاً لاستقبال الضيوف. وفيه تحل كل المشاكل والقضايا العامّة على الطريقة البطريركية «الأبوية». حسناً، ووحدهم هؤلاء السادة، الذين ينتسبون إلى العائلات الوجيهة، يمكن أن يبتوا القضايا مهما تكن؛

وهم فقط العوامل المؤثّرة التي يمكن أن تؤخذ بالحسبان. لكن هذه العائلات لا تشكل مع ذلك تنظيماً متكاملاً، ولا يمكن الاعتماد عليها وجعلها اسمنت بناء الدولة المستقبلية. هم في تناحر دائم فيما بينهم، ولديهم مواجهات وخلافات، لا بل إنّ بعض أفراد هذه العائلات يتبع سياسة شخصية خاصّة به. يمكن إذن أن نتخيل وضع السلطات الفرنسية عندما واجهت تدبير خطّة لحوران كانت أمام مشكلة عويصة: التوصل إلى اتفاق مع أسياد القرى الإقطاعية المشاغبين والطغاة، الذين طالب كلّ واحد منهم على الأقل أن يكون السيد الوحيد المهاب، الذي يجب التوصل معه إلى اتفاق معه كطرف ندّ. وبنفس القدر الذي كانت هذه الاتفاقيات - وهذا من طبيعة الأشياء - غير كافية للتوصل إلى الاستقرار المنشود في البلد؛ كانت الحرب الطريق الأكثر سهولة بما لا يقارن. كانت الارستقراطية الدرزية في حال ظهور الأخطار الخارجية تؤجل خلافاتها الداخلية إلى المستقبل، وتتحد متماسكة في وحدة متضامنة، ويقف بقية الدروز وراء سادتهم بطاعة تامة. كما يُؤخذ في هذه الحالات برأي القادة الدينيين الأربعة، وهم حراس الأسرار الخالدة للعقيدة الدرزية المغلقة في وجه غير المختارين، وهم الذين يعلنون عقيدة الأمة الناجية، التي ستسود العالم، ويحافظون على الإيمان بدور الدروز العظيم وانتصارهم في نضالهم، وتتشكل هنا الأسس الأولى للوعي الوطني التي تحمل غالباً ملامح دينية.

هذا الإيمان برسالة الدروز الذي كان عاملاً - لا ريب - حاسماً في تاريخ بطولاتهم، يمكن أن يكون مثالاً تقليدياً لأهمية العوامل الأيديولوجية للجماعات البشرية، ويمكن أن نذكر هنا أننا أمام

قبيلة صغيرة، فالإحصاءات الرسمية الفرنسية تقدر عدد سكان جبل حوران بستين ألفاً، منهم 48000 درزي، لأنّ باقي السكان الستة آلاف. هم مسيحيون ومسلمون.

على هذه الخلفية المرتسمة بوضوح وخصوصية كبيرة، والمختلفة جداً عن مفاهيمنا عن الدولة والإدارة، تتطوّر الأحداث بعد الحرب، الحرب نفسها لم تصب الدروز بأذى يذكر، مقارنة بسوريا التي تم استغلالها بالجيوش الزاحفة، والملاحقات بسبب عواطفها الموالية لفرنسا، ولاسيما لبنان منها؛ الجبال خرجت سالمة، لم تدفع ضرائب أو تقدم سخرة أو خدمات إلزامية. بل اغتنت بالطبع بالمساعدات والغنائم، وإن لم يكن بالإمكان التوصل إلى تسوية هادئة مع الدروز في زمن السلم؛ فإنه لم يكن ممكناً التوصل إلى ذلك بشكل أكبر في زمن الحرب، لأنه لم يكن بالإمكان توجيه قوات عسكرية أكبر لإضعاف استقلالية الجبليين الأشدّاء. ومع ذلك كان ثمّة دروز كثر بين صفوف ضباط الجيش العثماني، الذين تميّزوا بعشقهم لحمل السلاح، فانتسبوا إلى صفوف الجيش، وكان لهم دور كبير في تنفيذ العمليات العسكرية. بعد هزيمة الجيوش التركية ـ الألمانية في سوريا واجه الدروز مشكلة "تقرير مصيرهم"؛ ودارت آنذاك مواجهات دبلوماسية حامية، لم تعدم مظاهر استخدام الشدة، وخلق حالات "الأمر الواقع" حول السيادة على سوريا. وقفت فرنسا في جهة، وفي الجهة المقابلة وقف الأمير فيصل قائداً لجيوش الشريف مع توجيه عربي ـ سوري، وفي الخلفية تراءت ظلال انكلترا الكبيرة. نظر الدروز بعدم الرضى إلى نجاحات فيصل الأوليّة، فكلُّ عملٍ عربي ذي طابع قومي، ولو كان بدائيّاً جداً، بدا مهدداً للدروز بالضرورة، لأنّ الأفكار الديمقراطية التي يعتمد عليها الفكر القومي، تهدد في

المقام الأوّل أسس النظام الإقطاعي وتهدم بالدرجة الأولى التسلسل الهرمي الجماعات المحليّة، وتضع مفاهيمَ مساواةٍ ووحدةٍ جميع من يتحدثون العربية محلها. وتشهد المفاوضات التي جرت مع السلطات الفرنسية حول استقلال جبل حوران سنة 1919 على ذلك الخوف من قبل الارستقراطية الدرزية من الذوبان في بحر العروبة. بعد سنتين تمّ التوصل إلى اتفاق مع الدروز، ضمن لهم حكماً ذاتياً في دولة جبل الدروز كدولة من بقية الدول التي شكلت كونفيدرالية الدول السورية. تم وضع ما يشبه الدستور، وعين سليم باشا صديق فرنسا المجرَّب والحكيم حاكماً، وكان من عائلة الأطرش أقوى العائلات الدرزيّة، وكان إلى جانبه في السويداء العاصمة conseiller administratif "المستشار الإداري"، الذي كان عليه أن يكون صلة الوصل بين السلطات المستقلة والسلطة "الانتدابية" الفرنسية. بكلمة واحدة، تمّ ترتيب كلّ شيء على أفضل وجه ممكن. و أوحى كل شيء أنّ الدروز قد توصلوا إلى حريتهم القصوى. تبدأ مرحلة العمل الإيجابي تحت إدارة المستشارين الفرنسيين، ويتم الشروع بأعمال جرّ المياه ومدّ القنوات، التي كانت متوقفة منذ أزمنة الرومان. وهي ذات أهميّة فائقة في بلدٍ فقير بالمياه، وتشقّ الطرقات، ويستتب الأمن الداخلي بتشكيل قوات الشرطة الدرزية الخاصة التي درِّبت في دمشق.

لكن هذه المرحلة المثالية للعمل السلمي لم تستمر طويلاً. العائلات الدرزية الأرستقراطية التي لم تعرف منذ عهودٍ منسية سيداً فوقها، تحملت الوضع الجديد بصبر نافد. بل إنّ عائلة الأطرش ، التي مُنحت شرف اختيار الحاكم من بين أفرادها لم تكن راضية، أحد أفراد هذه العائلة الذي كان يتبع سياسة شخصية أراد ضمّ حوران إلى سلطة أمير شرق الأردن عبد الله، وتسبب بتدخل عسكري فرنسي في صيف

1921، كما رأى جميعهم أنّه مادام ابن عائلتهم قائماً بالحكم فإنّ من حقهم المشاركة في توزيع المكاسب، وطالبوا بالوظائف والرواتب بأرقام خيالية. وقد أثار هذا بالطبع حفيظة العائلات الأخرى، مثل آل الأطرش أنفسهم، الذين تصوّروا إمكانية استغلال مكانتهم بطريقة أكثر تقليدية، وتعاملوا ببغض مع مدير المالية الفرنسي الذي كان مسئولاً عن الميزانية وحدّ من مطالب العائلات. وبدأ بعض آل الأطرش الاحتجاج علانية؛ ونهبت قرية مسيحية ما للترهيب في حوران.

كما وجدت أسباب أخرى للامتعاض نتجت عن اختلاف النظام الاجتماعي. فقانون حماية الضيف الخالد، الذي يضمن حماية كل من يستجير بحماية أحدهم وينزل عنده ضيفاً، ظلّ حتّى الأيام الأخيرة فعّالاً جدّاً بين الدروز؛ وكان الضيف مقدساً عندهم، وتعدّ إهانته أو إغضابه إهانة للسيّد المضيف، الذي ينتقم بشدّة للإهانة. كان لدى السادة الدروز بيوتاً مفتوحة ويستضيفون باستمرار جماعات متنوعة، وكثيراً ما كان يُصادف بين هؤلاء الضيوف أعضاء أو عيون من هذه التنظيمات أو تلك، ممن يقومون بنشر الدعاية المعادية لفرنسا، وكانوا على الأغلب عملاء من شرق الأردن، ومطاردين من قبل الشرطة الفرنسية. حسناً، ليس من الصعب أن نتخيل المشهد المثير عندما تصل الدورية الفرنسية إلى المضافة كي تعتقل هذا المطلوب السياسي أو ذاك، ويعلن عندها السيد الدرزي الغاضب من أعماقه، أنّ الضيف مقدس، وأنه" عندما يجتاز عتبتي، لا يمكن لشعرة أن تمس في رأسه"، سيكون من الصعب جدّاً إيجاد حلٍّ للمشكلة بطريقة ما. وهكذا مع نهاية عام 1921 استفاد أكثر من ثمانين ناشطٍ سياسيّ ضدّ فرنسا من حقوق الضيافة المقدسة عند السادة الدروز، ثم بعدها بمدّة قصيرة نشبت مواجهة دامية بسبب ذلك. عندما

اعتقلت الشرطة أحد من مثل هؤلاء الضيوف، كان لبنانياً[1] قد شارك في عملية محاولة اغتيال المندوب السامي الفرنسي الجنرال غورو؛ يحاول سلطان الأطرش[2] المضيف الانتقام للإهانة، فيهاجم الوحدات الفرنسية، ويتسبب باضطرابات، يتم إخمادها بسرعة لحسن الحظ بفضل مهارة المساعي الدبلوماسية للقنصل، الذي ضمن ولاء شيوخ العقل الدروز لسياسته. وبالطبع لم توجه أيّة عقوبة لسلطان، ولو استخدمت الوسائل القمعية ضدّه لتحركت كل عائلة الأطرش متضامنةً لحمايته.

كان وضع الحاكم في هذه الحالة صعباً جداً، فهو إن أراد الإذعان لرغبات العائلة سيغضب الفرنسيين، وبالمقابل إن نفّذ السياسة الفرنسية سيواجه موقفاً عدائيّاً من أبناء عائلته. يقدّم سليم باشا استقالته، ينوب عنه مؤقتاً المستشار الفرنسي، ثم يعاد من جديد تكليفه، لكنه لم يحكم طويلاً بسبب المرض المقعِد، فناب عنه قريبه توفيق بك الأطرش. وبعد وفاة سليم يتسلم الحكم موظف فرنسي، تنتخبه النواة البرلمانية الدرزية «المجلس medżles»حاكماً، كان الدروز قد ملّوا من عائلة الأطرش. لكن هذا الاختيار كان أيضاً تحدّيا موجهاً للعائلة العظيمة.

بدأ الاستياء يتعاظم مع تعيين الحكومة الجديدة، فالناس "عَبدَة الماضي" laudatores temporis acti ، الذين يقدسون الماضي، لا يرون عادة عند تقويم الجديد الوجوه الايجابية، وهؤلاء الذين يدعون للعودة إلى أوضاع الماضي القديمة هم بالتأكيد ظاهرة نمطية! لم يرَ

---

1 ـ المقصود طبعاً هو المجاهد أدهم خنجر. (المترجم).

2 ـ هو سلطان باشا الأطرش1891 ـ1982 القائد والمناضل وزعيم الثورة السوريةعلى الفرنسيين 1925. (المترجم).

الدروز في شق مئتي كيلومتر من الأقنية، وبناء العديد من خزانات المياه إلا أمراً عادياً، وطرق السيارات والمدارس كانت غير ضرورية بالنسبة إليهم، فهي تجعلهم قريبي الشبه بالغريب، ومؤسسات العدل كانت في تصورهم عنصراً وافداً لا يمكن توفيقه مع ما كان في الماضي. وتثبيت علاقات الملكية بعث فيهم الكراهية، لم تكن الأراضي إلى الآن ملكاً لأحد، وكان يجري توزيع جديد للحصص كلّ ثلاث سنوات؛ وفي كلّ مرّة كان الشيخ يستولي على الحصّة الأكبر وبالطبع الأفضل. ولهذا أيضاً تعاظم غضب الجماهير الريفيّة، فمادام تحديد قانون الملكية الخاص بالأراضي قد أقرّ، لم يكن أحدٌ راضياً، لأنّه فقد الأمل بالحصول على نتائج أفضل في القرعة القادمة. وكانت ملكية الأراضي مشمولة بالضرائب، ولم بفهم الدروز الذين اعتادوا أن يسمحوا راضين للسيّد الإقطاعي أن يستغلهم لم يفهموا، بأي قانون ليجبرهم الغريب على دفع الضرائب. والأرستقراطية التي رأت خطر زوال سلطتها القديمة حضّرت للثورة.

جرت الأحداث بسرعة متعاظمة، متحوّلة بشكلٍ غير متوقع إلى أوضاعٍ عظيمة الخطر. فمع بداية شهر تموز عام 1925 تمّ اغتيال ضابط فرنسي في أثناء الاحتفال بالأعياد الدرزية في السويداء كان ذلك نداءً للنضال. يهاجم سلطان الأطرش مدينة صلخد حيث كانت حامية عسكرية قد وصلت، يهاجم وينتصر في المعركة، تتراجع القوّة الفرنسية الصغيرة أمام الثوار، لتحتل مواقع دفاعية في السويداء. أشعلت أخبار انتصارات الدروز الخيال الملتهب في الواحة الدمشقية، المعارك التي لم يكن لها سوى أهميّة محلية توسعت إلى مساحة أكبر، وأغنيت ex post بالمعاني الأيديولوجية، التي لم تكن تحملها بالأصل، وأغنتها الشعارات القومية ـ العربية التي أطلقت في سماء

المعارك، والتيارات القومية في مصر سعد زغلول باشا، وأصداء المعارك التي بدأت في الريف، وانتصارات عبد الكريم الباعثة على الفخر. ومن جهة ثانية الدعاية الشيوعية التي كانت دمشق مركزها، ساهمت في إلهاب المشاعر. وأيضاً بالتأكيد تذكر النقود المصرية القوية التي كانت مستخدمة في دمشق قبل الاحتلال وقبل حكومة فيصل. كلّ ذلك أسهم في هبوط شعبية الفرنسيين الذين كانوا يدفعون بالفرنك الذي يفقد قيمته مرّة بعد أخرى.

بدأت الاضطرابات إذن في الواحة، هوجمت خطوط النقل الحديدية، وخربت خطوط الهاتف، ووصل الثوار إلى القرى الواقعة قرب المدينة. يشارك الدروز، والبدو، وسكان الريف في هذه الثورة، التي تصبح قيادتها بيد "المؤتمر السوري - الفلسطيني" ذي التوجهات القومية المعادية لفرنسا عداءً تاماً. لم يقوِّم الفرنسيون القوة الضاربة لدى الثوار تقويماً صحيحاً، لكنّ المؤكد أنّه في نهاية أيلول تتقدم القوات العسكرية الفرنسية لنجدة مدينة السويداء المحاصرة منذ شهرين، لكنها تُجبر بعد مدّة قصيرة على التراجع عن الجبل كلّه. إنّ الانسحاب من الجبال قد نال كثيراً من هيبة السلطة الفرنسية في سوريا. وبالتزامن مع وصول الأخبار عن انتصارات عبد الكريم، والإشاعات التي نشرت حول رغبة فرنسا بالتراجع عن انتدابها على سوريا، اشتعل البلد كله. ففي حماة المدينة المتوسطة بحجمها، الواقعة على حدود الصحراء، وعلى الخط الحديدي دمشق - حلب انفجرت انتفاضة نظمها ضابط سابق[1] في "الفيلق السوري"« الذي

1 - الحديث هنا طبعاً عن المجاهد فوزي القاوقجي. وقد نشر الشهيد الدكتور عبد الرحمن الشهبندر ملخص تقرير القاوقجي عن ثورة حماة في مذكراته عن الثورة السوريا، وقد أعيد نشرها في وزارة الثقافة بعناية محمد كامل الخطيب. انظر أيضا: المعلم، وليد: سوريا: الطريق إلى الحرية 1916- 1946، ص 190. (المترجم).

أسسه الفرنسيون في فترة الحرب العالمية»، هجم البدو على المدينة، وأحرقوا السراي، ونهبوا السوق وتوسعت عمليات الثورة إلى أعمال السطو والنهب.

وتطورت الحوادث في دمشق بالطريقة نفسها، وأدت إلى تخريب مركز المدينة القديمة، فبدأت هنا معاً: هجمات الدروز الخارجية الذين هبطوا من الجبال إلى الواحة، وهجمات البدو الذين اغتنموا الفرصة، والأعمال الثورية ذات الطابع العربي - الإسلامي، وعمليات الشيوعيين، المدعومة من الشمال، وأخيراً الغوغاء من أحياء المدينة وضواحيها، الذين شارك معهم في المقام الأول الأشقياء العاديون. كانت القوات العسكرية الفرنسية المقيمة في سوريا بشكل دائم ضئيلة العدد إلى حدٍ ما، ولا تستطيع السيطرة على البلد كله، وبدت قوات الشرطة السورية التي كان عليها أن تحفظ النظام في الأرياف عاجزة تماماً، بل كانت متحالفة مع الثوار على الأغلب. وهكذا دخل الدروز في الواحة عميقاً دون مقاومة ناهبين ومستولين على أسلحة المخافر. وفي بداية تشرين الأوّل اندلعت في دمشق المظاهرات الحاشدة الغاضبة لاعتقال السلطات الزعماء الوطنيين، وفي الوقت نفسه وصلت الوحدات الدرزية القوية إلى حيّ الميدان في ضواحي المدينة المسكون بكثافة بأكثر الناس فقراً ونشاطاً. فبدأت حرب الشوارع ونهب المدينة. فشلت الشرطة السورية في السيطرة على الوضع، مما أدى إلى انسحاب الجيش إلى الأماكن الأكثر أمناً، لتحمي جزءاً فقط من المدينة. احتلّ الثوار الأسواق، وسيطروا على قصر العظم. أمر الجنرال "سراي" Sarrail القائد العام للجيوش الفرنسية في الشرق والمندوب السامي في سوريا آنذاك بقصف المدينة بالمدفعية الثقيلة الرابضة محصنةً في الضواحي. كان ذلك من ليلة 18 إلى ليلة 19 تشرين الثاني؛

سقطت شظايا القذائف على الأسواق. وفي الصباح ظهر وفدُ الثوار للمفاوضة طمعاً برأفة أو غضب المتنصرين. دفعت المدينة إتاوة قدرها مئة ألف ليرة عثمانية ذهبية، وسلمت ثلاثة آلاف بندقية.

إنّ السيطرة على المدينة، وبدقة أكثر على وسط المدينة، لم تعنِ أبداً فشل الثورة، كانت الواحة كلها في الواقع تحت سلطة الثوار، وقد صادفنا الوضع نفسه في دمشق في نيسان سنة 1926، كانت المدافع تحرس وسط المدينة، لكن ليست هذه الطريقة للسيطرة على البلد كله. فمرّة بعد أخرى كانت المعارك المحلية تندلع، سواء في الغوطة أم بعيداً في الشمال، في مناطق حمص، حيث شاركت القبائل البدوية بفعالية في المعارك، أم في جبال لبنان الشرقية، حيث هوجمت التشكيلات العسكرية الصغيرة، والقطارات ووسائط النقل. وبالمقابل إنّ سلبية المواطنين البعيدة المدى تجاه تنظيم الدولة السوريةسببت صعوبات كثيرة للسلطات المحتلة في العمل. هذا الاحتقار العميق الذي يكنه إنسان الشرق للأوربي يظهر أيضاً في الازدراء التام للأفكار والصناعات الأوروبية. وفي الوقت الذي كنا فيه نزور دمشق كانت الجيوش الفرنسية تتجهز لشن هجوم شامل، وتم التزود بمؤنٍ كبيرة، وحشدت الجيوش الملونة أيضاً، موسّعةً من التشكيلة الفسيفسائية السوريةالغنية بالألوان أصلاً، وجهزت المواد الحربية بكميات كبيرة. لم تكن نتائج هذه العملية التي نفذت بقيادة الجنرال Gamelin "جاميلين" مفاجأة لأحد؛ فسقطت السويداء خلال فترة قصيرة، ومعها المواقع الجبلية المنيعة الأخرى، وفي الوقت نفسه هدأت الواحة وجبال لبنان الشرقية.

لكن، هل لفترة طويلة؟ تلك مسألة تتعلق بالوضع السياسي والعسكري، وإلى حدٍّ بعيد بالمصادفات، لا يمكن لأحدٍ أن يتوقع

المسارات التي ستسلكها الأوضاع القادمة في هذا البلد. يمكننا أن نتيقن من أمرٍ واحد: ما لم تحدث إعادة أساسية لبناء بناء للمفاهيم الاجتماعية لدى ثوار العهد القريب، فإنّ أيّة حالة سلم في البلاد ستكون ذات طبيعة مؤقتة، وكل نظام حكمٍ ـ ولو كان مدروساً بعناية فائقة ـ سيكون لجاماً فقط، وعلى كلٍّ جيشٍ أن يجهّز المكامن، لأنه لن يعرف من أين يمكن أن تأتيه الهجمات المفاجئة.

لا يمكننا السفر حاليّاً إلى حوران، نحن في اليوم الذي يسبق الهجوم. خسر الآثاريون مؤقّتاً إمكانية التنقيب في المنطقة الجبلية المثيرة إلى أبعد حدّ على الأغلب. في تلك الجبال البركانية، وعلى الأراضي الحمراء، بين الحقول، والمراعي، ثمّة آثارٌ لا حدّ لكثرتها، رومانية على الأغلب. بيوت مبنية من مقاطع بازلتية ضخمة، معابد عظيمة، أعمدة، وكلّ شيء هناك قد صمد دون تخريب كبير إلى أزمنتنا. يسكن الدروز في البيوت الرومانية القديمة، وأحياناً في المعابد التي تمّ ترميمها جزئيّاً، مستفيدين من خزانات المياه الحجرية التي نحتها أسلافهم الماضون. كتابات يونانية ولاتينية ونبطية كثيرة في كلّ مكان، جنة لعلماء الآثار، الذين تخيفهم أحياناً عصا قابيل ـ الراعي الدرزي التي تلغي بأقصر الطرق الأبحاث العلمية مع موضوعاتها. لكن ستبدأ من جديد عمليات جمع الكتابات الأثرية بحماية الآليات المجنزرة.

أما فيما يتعلق بي، فقد رأيت مجموعة مهمّة من تلك الكتابات في كتاب Renè Dussaud رينيه دو سو Voyage archèologique au Safa et dans le Djebel el Drûz " رحلة آثارية إلى الصفا في جبل الدروز" «المطبوع في باريس سنة 1901». ولابدّ لي أن أعترف أنني قرأته دون أهتمام كبيرة. فإذا كان الأمر يتعلق بمثل هذه الأشياء فإنني

سأعدل عن رحلتي إلى جبل الدروز عن طيب خاطر. تلك قضيّة ذوق. لأيّ شخص كامل الحرية أن يكون له رأي في هذه القضية. لكنّي أتحسّر بالمقابل أنّي لم أستطع عن قرب مراقبة ذلك المجتمع القروسطي الذي يعيش إلى يومنا هذا في نظام اجتماعي بعيد جداً عن مفاهيمنا، ولشاهدت مسروراً أولئك الدروز الذين يرى الفرنسيون فيهم اليوم رجال عصابات سفاكي دماء. لكن أيضاً الذين أثاروا إعجاب الكتاب القدماء، فرأوا فيهم أحفاد الصليبيين الفرنسيين فمجّدوا مزاياهم العقلية والجسدية. فهذا على سبيل المثال Puget st. Pierre بوجيه بيير، في كتابه: Historie des Druses peuple du Liban formè par une colonie de François "تاريخ الدروز: شعب لبنان، المكتوب في مستعمرة فرانسوا" «الصادر في باريس سنة 1763» يمدحهم قائلاً "فكر عادل ووجداني، وعقل متوقّد، ومشاعر رقيقة" ويصفهم رجالاً " فارعي الطول، أقوياء، وماهرين إلى حدود الإعجاز، يقظون، يحبون العمل، عادلين، ومؤمنين، وإنسانيين، مرتبطين بالتقاليد إلى حدود المبالغة، صرحاء إن كنت صريحاً معهم، أوفياء بمشاعرهم ووعودهم، متعاونين فيما بينهم، شجعاناً عند المكاره"، كم كان مفيداً أن أشاهد عن قرب ذلك المجتمع، الذي هو أكثر إثارة من كلّ تلك الكتابات الإغريقية والنبطية المنثورة في حوران كلها.

لكن لأنّ الرحلة إلى حوران ظلّت pium desiderium رغبة فقط لم تتحقق للمؤلف، فإنّ القارئ العطوف إن أتمّ قراءة الكتاب إلى نهايته سيجد الفصلَ الأخير مقالاً صحفيّاً اعتمد على التقارير الرسمية الفرنسية المقدّمة إلى لجنة الانتداب في عصبة الأمم، وجزئيّاً على منظر الجبال الدرزية التي شاهدها من على بعد عشرات الكيلومترات.

❖ ❖ ❖

نتابع، يا عزيزي ڤواچميج، رحلتنا، عدنا من دمشق البارحة مساءً، واليوم نسافر من جديد متابعين طريقنا من بيروت عبر صيدا وصور، نحو الحدود الفلسطينية. وسنكون في أراضي الجليل، التي عرفناها في أثناء رحلتنا العام الماضي، وهي برأينا الخضرة والنعيم، وسنكون في الناصرة، وقرب الشاطئ اللازوردي لبحيرة طبريا، وعند آثار المعبد في كفر نعوم. وسنسافر بعدها نحو الشمال نحو سفوح حرمون، وسنقوم بين الحقول بجمع الفؤوس الحجرية وأدوات الساكن الأول لتلك البلاد. وبعدها متجاوزين أطلال السامرة سنكحل عيوننا بأسوار القدس البيض، وستقودنا الطريق بعد ذلك إلى شرقي الأردن، وأخيراً سيحل وقت العودة.

كان لديّ فضولٌ لمعرفة الانطباعات التي ستأخذها عن سوريا، التي نغادرها الآن. أنت تنظر بعين عالم الآثار، فترى أكثر وأدق، وتفهم بشكل أفضل ما هو بنظري أسطورة بعيدة، أو في أبعد الحدود صدىً فقط لا معنى له. على الرغم من أنّي - شخصياً - ممتلئ باللّوحات الرائعة والانبهار، فإنني أحمل كليّاً حزناً ما غير مفهوم يريح على الأشياء البعيدة التي تحمل بوضوح طابع المأساة.

بلدٌ مأساوي! كلُّ هذا الجمال ونور الشمس هنا، كي يمكن أن تعيش السعادة الكاملة، لكن يا لكثرة المآسي التي مرّت عبر هذه الأرض! كلُّ جمال الفكر الإنساني، وبدائع ما صنعته يد الإنسان هنا، كم من أفكار وعقائد، هزت العالم، مرّت من هنا، ومع ذلك الفقرُ الفكريّ هو الذي يسود اليوم هنا، وفوضى المشاكل اليومية الصغيرة المضجرة. كم من أمم مرت أيضاً من هنا: الآراميون، الكنعانيون، الفلسطينيون، الحثيون، المصريون، الآشوريون،

البـابليون، الفـرس، اليونـانيون، المقـدونيون، الرومـان، العـرب، الفرنجـة، الأتـراك، وكـلّ أمـة منهـا كانـت لهـا شخـصية مـستقلة، وصـفحة كـبيرة في التـاريخ، لكـن الأمـة الـسوريةلم تكـن موجـودة. فالسوريون هـم تحديـدٌ جغـرافيٌ فقـط لمجموعـة جماعـات تعيش معـاً في حدود معينة. مرّاتٍ كثيرة وصلت الجيوش إلى هنـا وكـثيراً مـا انـدلعت المعـارك علـى هـذه الأرض، الـتي تـسيل بالحليـب والعسل والـدماء، ولم تدافع جيوشٌ سوريةعن هذه الأرض، لكن بالمقابل كانت ثمّة بضائع سورية ومـوانئ سـورية، وأسـواق سـوريّة، لم يكـن ثمّـة في مـدن الـشرق سـوريون بـل تجـارٌ سـوريون، في هـذا البلـد الواقـع مأسـاوياً علـى مفـارق الطرق التي عبرت عليها الجيوش، والأمم من الـشمال إلى الجنـوب ومـن الغرب إلى الشرق، بهذا الاتجاه أو ذاك، لم يرفع أحدٌ شعار الدفاع عن الحـدود، لأنّ حريـة التجـارة كانـت العقيـدة الأولى لأبنـاء هـذه الأرض الجاحدين.

بلـدٌ تعـيس! يمكننـا أن نـصفه بكلمـات الـشاعر: "خلالـك تجـري جداول الجمال، لكنّك لست الجمال". يا للجمال الذي عبر من هنا مـن الجنـوب نحـو الـشمال ومـن الـشرق والغـرب والـشمال: لـدينا هنـا مـصر وآشور واليونان وروما وبيزنطة وفارس، والإسلام والمسيحيّة. سوق الفـن والفكـر، وخانُ الثقافة.

ألا تعتقـد أيـضاً، يـا صـديقي الغـالي، أنـه عنـدما نتجـاوز الوحـدة الحدودية الفلسطينية لنقترب من الكرمل الذي سيبدو أمامنا في الأفق مثل غيمـة زرقـاء طويلـة، سـيتبدّل الطقس تمامـاً، وسـيبدو الهـواء أقـلّ ثقـلاً، والخـضرة أكثـر فرحـاً؟ فهاهنـا سـنرى الكنـائس والمـساجد والكنس، وسـنزور آثـار مختلـف الثقافـات والعـصور. وأيـضاً لم يحمـل أحدٌ ما فكراً للبيـع هنـا، لأنّ المعانـدين كـانوا قـد طـردوا مـن المعابـد.

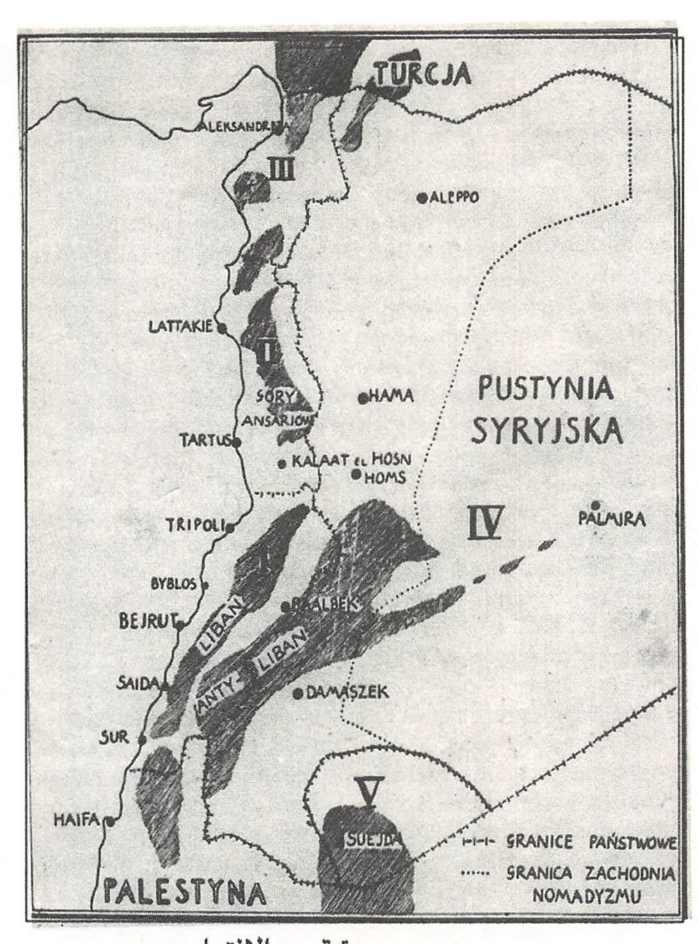
هنـاك وراء الحـدود الـتي عبرناهـا قبل قليـل كانـت لـدينا تفـصيلات متنوعة جمّة، أما هنا فيمكن أن نشعر في كل مكـان بتلك الوحدة العظيمـة الغريبـة، حتـى وإن كانـت اللوحـة مـن الخـارج تتـألف مـن انطباعات متباينة. ففي كل مكـان، سـواء هنـا في الجليل الأخضر أم في جبال نـابلس أم بين صـخور جبـال الخليـل العارية، في كلّ مكـان يمكن أن تشعر بذلك اللحن العظيم المتعالي، ولـن تفهـم في أي مكـان آخـر بقـوّة كمـا تفهم هنـا أنّ الفكـر فقـط هـو الحقيقـة، وكلُّ شـيء آخر هو أمر مؤقت، ووهم، وغير واقعي؛ كتلك المشاهد الـتي يرميهـا الخيال المتعب على العيون الناعسة.

ولهذا أيضاً، يا عزيزي ڤواچمييج، اليوم، بعد أشهرٍ «عنـدما أكتـب هذه الكلمات»، أفكر أننا سنلتقي أيضاً معاً في وقت مـا بـين أسوار القـدس، وقـرب صـفحات ميـاه البحـر الميـت الفولاذيـة، وعلـى مـروج الجليل المضيئة.

ملحق الصور



أرز لبنان



سورية تحت الانتداب

I دولة لبنان الكبير

II دولة العلويين

IN سنجق الاسكندرون

IV دولة سورية

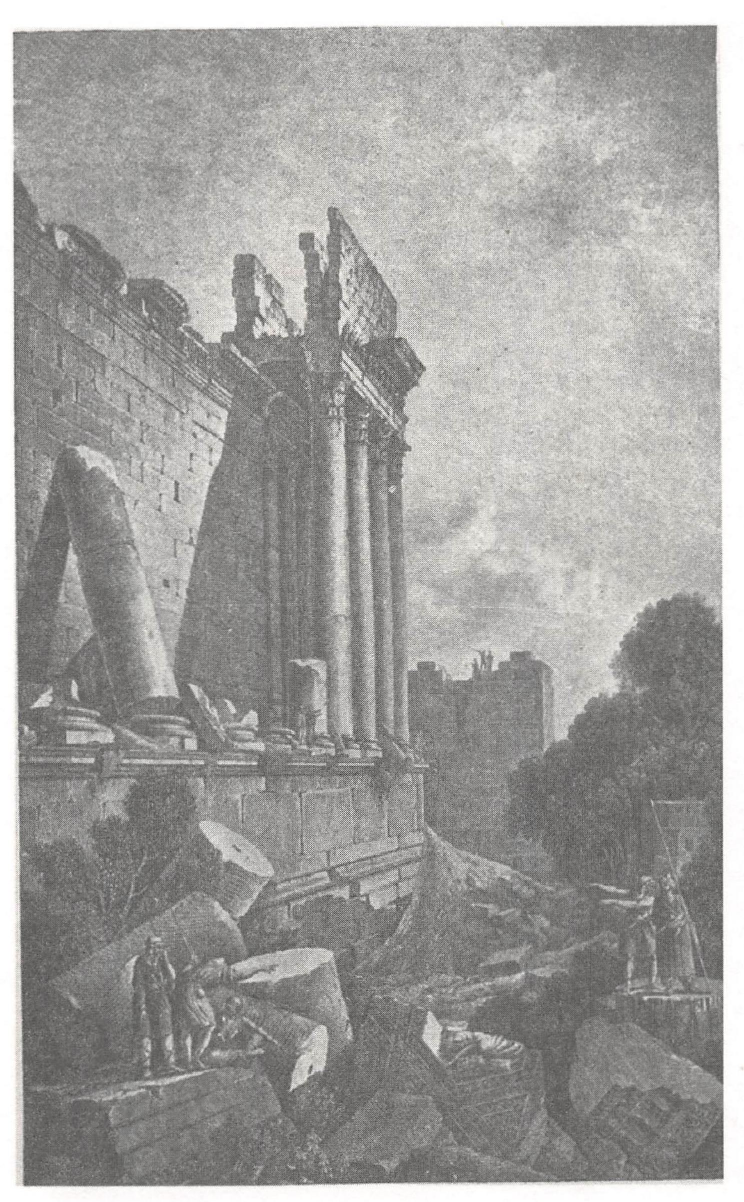
V دولة الدروز

الحدود الدولية . 1 . 1 . 1

حدود البادية الغربية.......

أطلال معبد قرب البحر

معبد فينوس في بعلبك



الأكروبوليس في بعلبك



النواويس الفينيقية

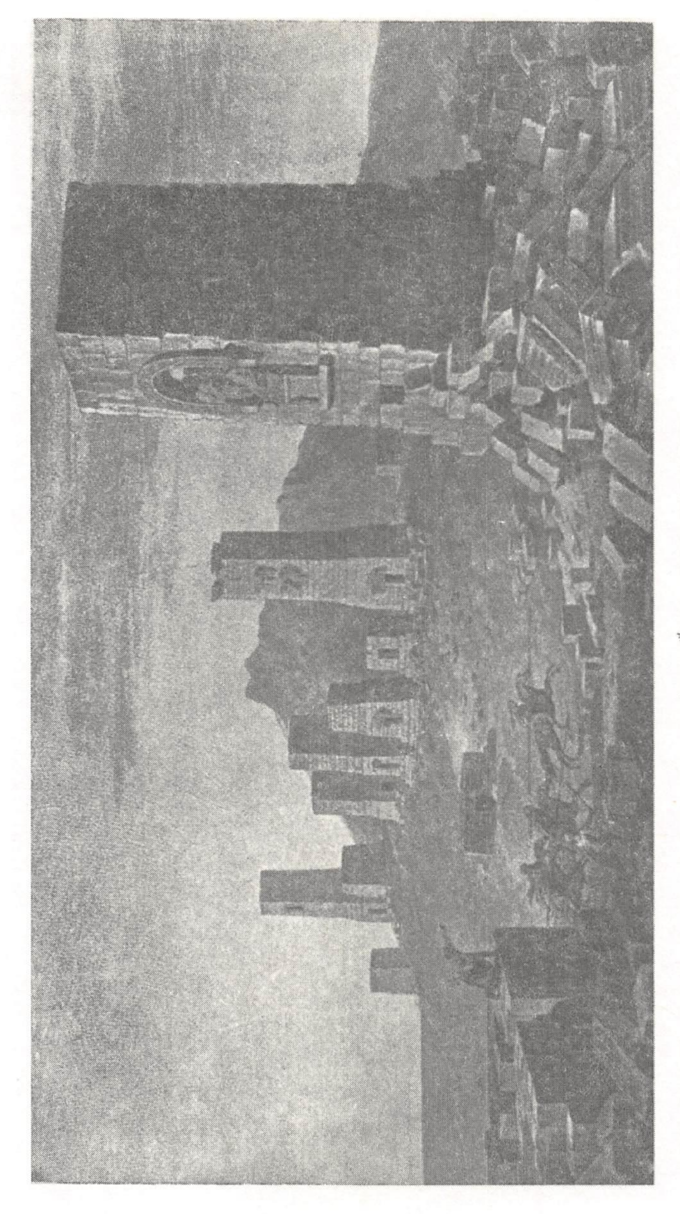
نهر الكلب. الطريق الأثرية



الشاعر المعمّد في تدمر ومنظر القلعة



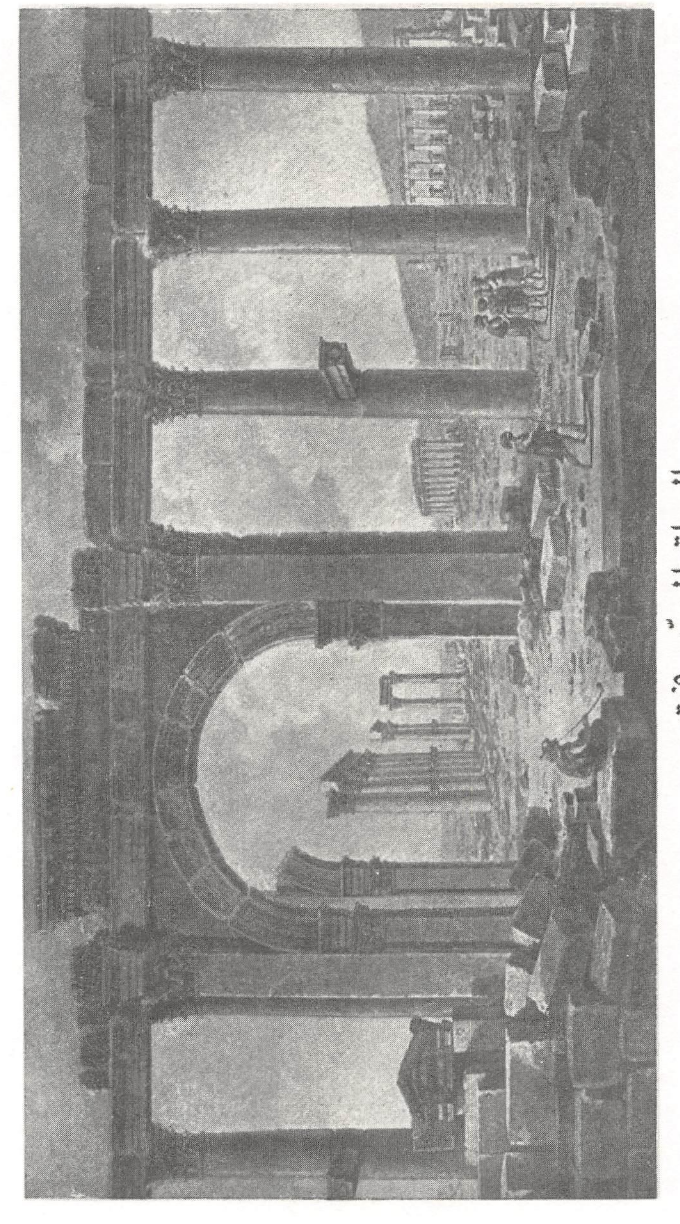
الشارع المعمّد الكبير في تدمر



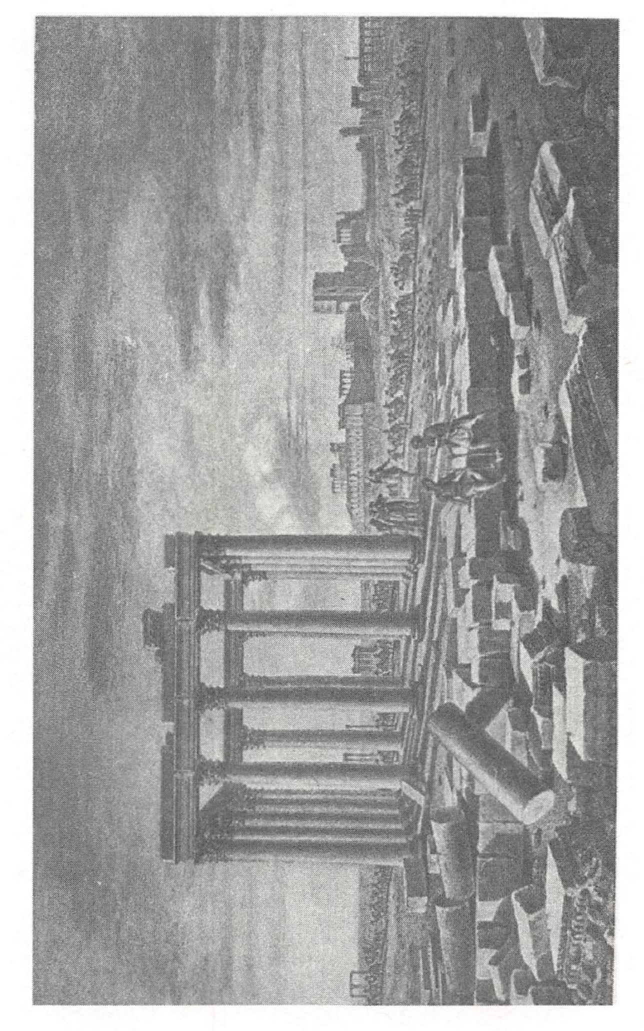
المدافن البرجيّة في تدمر



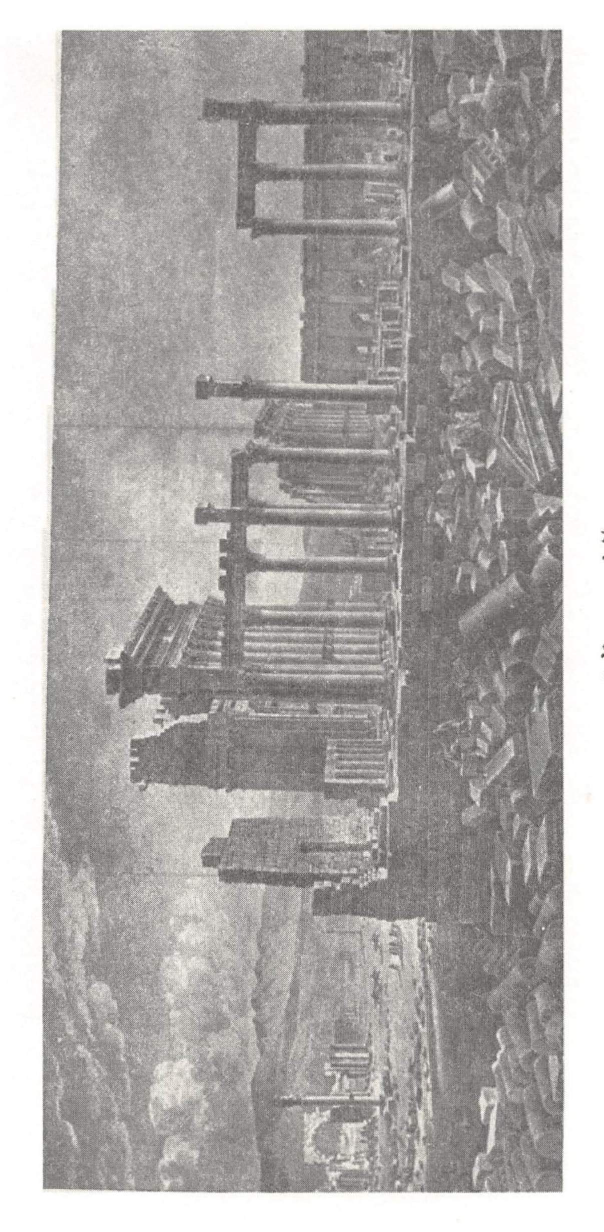
ضريح جامبليك في تدمر



الرواق المعمّد في تدمر
وقوس هدريان



أطلال تدمر - وفي العمق معبد الشمس



معبد الشمس في تدمر

المعبد الصغير في تدمر

المحتويات

كلمة المترجم 5
بيروت 11
الحرب والانتداب 48
السواحل الفينيقية 66
جبال الأنصارية ولبنان 81
تدمر 113
الليدي استير استنهوب 151
دمشق 183
جبل الدروز 221
ملحق الصور 245

صدر حديثا من هذه السلسلة

- رحلة نيقولا السيوفي - بيروت، كردستان، بغداد 1873
- رحلة حمود البوسعيدي - الحجاز، مصر، الشام 1872
- رحلة الشيخ محمد بهجة البيطار 1920 إلى الحجاز ونجد
- رحلة إلى جبال العلويين - ليون كاهون 1878
- رحلة إلى قلعة آلموت - فلاديمير إيفانوف 1940

قيد الإنجاز:

- رحلة جون كليمان من دمشق إلى تدمر 1908